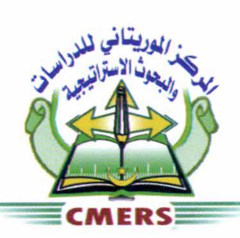


الطوارق

من الهوية إلى القضية



الأستاذ: اكناته ولد النقره



المركز الموريتاني للدراسات والبحوث الاستراتيجية: هيئة بحثية مستقلة تُعنى بدراسة قضايا التنمية بأبعادها المختلفة، واستشرافِ المستقبل، ورصدِ ظواهر وتحولات المجتمع وعراقيل تطوُره.. بغية النهوض بالبلد وتقدّمه؛ متخذا من البحث العلمي وسيلتَه الأولى لذلك، ومن الموضوعية شعارا، ومن الاستقلالية مبدأ، ومن العلمية منهجا .

ومما يسعى إليه المركز تفصيلا:

- توفير المعلومات والمعطيات الدقيقة، وتزويدُ الباحثين وصانعي القرار والساحةِ الثقافية والعلمية بالبيانات والتحاليل المفيدة.
- الإسهام في صياغة السياسات والخططِ والاستراتيجيات الوطنية، ومساعدة أصحاب القرار في اتخاذ القرارات الصائبة، وتقديم الاستشارات العلمية للجهات العمومية والخصوصية.
- تتبع حركة المجتمع ورصد ظواهره الجديدة، واستشراف تحولاتِه الاجتماعية والأخلاقية والدينية.. واستقراء مآلات ذلك التحول وانعكاساتِه على المجتمع.
- الإسهام في تصميم وتطوير المناهج الدراسية، وتطوير المنظومة التربوية الوطنية.
- إنعاش روح البحث والدراسات العميقة والمفيدة في البلد، وتأهيلُ الباحثين والدارسين، والدفع بمفكري وعلماء الأمة إلى إصدار مؤلفات مفيدة، وإنشاء مناخ علمي يشجعهم على ذلك.
- نقل المعارف الأجنبية المفيدة وتنشيطُ حركة الترجمة والنشر.

وحدات البحث بالمركز:

1. وحدة الدراسات السياسية والأمنية
2. وحدة الدراسات الاقتصادية والاجتماعية
3. وحدة الدراسات العلمية والبيئية
4. وحدة دراسات التربية والتعليم
5. وحدة المسوح والاستطلاعات
6. وحدة الاستشارات والدراسات القانونية
7. وحدة دراسات التراث والتاريخ
8. وحدة التدريب والتطوير.

العناوين:

- المقر الرئيسي: نواكشوط - تفرغ زينه، حي: P المنزل: 51 (خلف باسيم بنك)
- الهواتف: 22070750 - 44444538 - 45243910 (+222)
- فاكس: 5243910 (+222) ص.ب: 569
- الموقع الإلكتروني: www. Cmers.org
- البريد الإلكتروني: E-mail : cmers@cmers.org
E-mail: cmersmr@gmail.com

هذا الكتــاب

يحاول هذا الكتاب بأسلوب أكادمي ومنهجي التعريف بالقضية الأزوادية كما حملها وعبر عنها في أبـعادها المختلفة شـعبُ الطوارق الذي يُعد من أعرق الشـعوب التي اسـتوطنت المجال من سواحـل الأطلسـي إلى عقـفة نهر النيجر ضمن الحـركة الأوسـع للقبـائل الصنهاجية، وقد نجح الكاتب في مزج لا يخلو من تشويق للتاريخي بالسياسـي، والثقـافي بـالاجتماعي، في إلقـاء أضواء كاشـفة على بـعض الزوايا المعتمة من مسيرة هذا الشـعب الحـافلة، إشبـاعا لنهم القـارئ المتعطش لمعرفة المزيد من تاريخ هذا الشـعب، ومحـددات هويته وملامح حـياته الاجتماعية الفريدة، إلى جانب حـركته الثقـافية، واسـهامه العلمي المتميز في رفد الثقافة الإسلامية بقامات علمية من أضراب العلامة الموسوعي: أحمد بابا التنبكتي، ومحمد بقيقو، والشيخ سيد المختار الكنتي.

وتبقى الاضافة المتميزة لهذا الكتاب هي رصده للإرهاصات الأولى لميلاد هذه القضية، ثم التحقـيب لأهم المحـطات التاريخية والمنعطفات الحاسـمة في مسـيرتها منذ الحقبـة الاسـتعمارية وحـتى تفجر أحـداثها الأخيرة، مع جهد أكاديمي ملحوظ في الفرز والتبـويب، بالإضافة للتحليل والتعليل.

ومن أهم ما حمله هذا الكتاب تركيزه على العلاقـة التاريخية الخاصة التي ربـطت موريتانيا بأزواد وشعبه، مبـرزا الأهمية الحـيوية لأزواد بـوصفه عمقـا اسـتيراتيجيا لموريتانيا وأمنِها القـومي، مع حـاجة الأزواديين أنفسـهم لظهير يسـند مطالبـهم المشـروعة في الحـرية والعيش الكريم.



المركز الموريتاني للدراسات والبحوث الاستراتيجية: هيئة بحثية مستقلة تُعنى بدراسة قضايا التنمية بأبعادها المختلفة، واستشرافِ المستقبل، ورصدِ ظواهر وتحـولات المجتمع وعراقيل تطوُّره.. بغية النهوض بالبلد وتقـدّمه؛ متخذا من البحث العلمي وسيلتَه الأولى لذلك، ومن الموضوعية شـــعارا، ومن الاستقـــلالية مبـــدأ، ومن العِلْمية منهجا .

الغلاف من تصميم : عبد الرحمن ولد الداه (عباد)

الطــوارق.. من الهوية إلى القضية

رقم الايداع القانوني بموريتانيا 1394 – 2014
السنة : 2014
المطبعة : طوب بريس الرباط

بسم الله الرحمن الرحيم

المركز الموريتاني للدراسات والبحوث الاستراتيجية

الطــوارق..
من الهوية إلى القضية

اكناته ولد النقره

إهـــداء

إلى كل صاحب قضية عادلة..

إلى كل صاحب يَراعٍ حرٍ نَذَرَ مِداده للذود عن الحرية والحق والعدل..

إلى شهداء الحرية والكرامة الذين جعلوا من شتاء العرب الكالح ربيعا مزهرا، فكتبوا بذلك لأمتهم حياة جديدة..

شكـــر وامتنان

الشكر والامتنان لكل الذين أسهموا أو ساعدوا في إنجاز هذا العمل، وأخص بالذكر سعادة الوزير والباحث: محمد محمود بن ودادي الذي قام مشكورا بمراجعته، وكان لملاحظاته القيمة وتصويباته الدقيقة الأثر الطيب في إخراج هذا البحث على النحو الذي هو عليه.

والشكر كذلك للدكتور محمد محمود ولد الصديق الذي أنفق من جهده ووقته بسخاء تجويدا وتصويرا.

والشكر موصول أيضا للمركز الموريتاني للدراسات والبحوث الاستراتيجية، الذي احتضن هذا العمل وأشرف على نشره.

المحتويات

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله

تقـــديـــم

بقلم مدير المركز

محمد محمود بن الصديق

الطوارق، أزواد: كلمتان تختزلان أبعادا ودلالات حساسة لشعب وأرض و"قضية" ظلت متفاعلة منذ زمنٍ سحيق.. الطوارقُ شعب متميز عريق، عَوّدهم صحراؤهم (أرضُهم) الممتدة، وحِلُّهم وارتحالُهم بها منذ آباد الزمن، على الاستقلال والحرية وعدمِ الخضوع لأي جهة تملي عليهم أو تَحد من إرادتهم، تجسيدا لمثلهم القائل: "أنا لا أتناهى مثل الصحراء". ومع مجيء المستعمرِ (الفرنسي) ثم رحيلِه كان من أول ما اهتم به تحديدُ مصائر الشعوب والأقوامِ الذين احتلهم ورحل عنهم، فَرَسم على هواه خرائط وحدودَ الدول المستقلة عنه، مراعيا في ذلك أبعادا وأغراضا تخصه وتخدم مصالحه، على حساب مصالح وحقوق تلك الشعوب.

وهكذا نال شعب الطوارق حظَّه السيئَ من هذه العملية بتحديد مصائره السياسية عن غير مشورة منه ولا رضى، ودون مراعاة لخصوصيته الثقافية والتاريخية والجغرافية.. فتوزع بين ثلاث دول رئيسية هي: الجزائر امتدادا إلى ليبيا، والنيجر، ومالي امتدادا إلى بوركينافاسو.

والواقعُ أن الحكومة الفرنسية ومستشاريها ترددوا في تحديد الوضع السياسي لشعب الطوارق عموما، ولمنطقة أزواد وساكنيها خصوصا، بين خيارات عدة؛ فبينما كان يَرى (كبولاني) أن أزواد هو امتداد لـ"أرض البيضان" الكبيرة، في نظريته المعروفة لدولة "البيضان" التي تمتد من الساقية الحمراء شمالا إلى نهر السنغال جنوبا، ومن المحيط الأطلسي غربا إلى منعرج نهر النيجر شرقا؛ بينما كان هذا هو رأي

المستطلِع والقائد الاستعماري (اكزافْيي كبولاني): استبعدَ الساسة الفرنسيون لاحقـــا هذه النظرية وحاولوا في البداية تأسيسَ كيان شبه مستقل خاص إلى حد ما بالطوارق، هو ما أطلقوا عليه اسم: "المنظمة المشتركة للمناطق الصحراوية". والذي يضم، بحسب التقطيع الإداري الذي أقره البرلمان الفرنسي 1957: الصحراءَ الغربية، والـــصحراء الشرقية، والصحراء الشمالية[1].

ورغم العوامل المتعددة (الظاهرةِ والخفية) التي دفعت فرنسا إلى هذه الفكرة، والتي ربما كان منها الانتقام من الجزائر الثائرة، وخلقُ كيان بين الدول الستة تابعٍ لفرنسا يُكرس هيمنتَها وبقاءَ سيطرتها على المنطقة بعد انسحابها منها، إلا أن الأمر كان فرصة تاريخية لشعب الطوارق في إقليمي أزواد والهكّار وامتداداتهما.

وقد رفَضَ الطوارق هذه الفكرة لأسباب يوازي غموضُها غموضَ مبادرة الفرنسيين بها، لعل أهمَّها: عدمُ الانسجام الداخلي، وضعفُ التكوين الثقافي للنخبة الطارقية حينها، حيث لم يكن طموحُهم للانفراد بكيان سياسي خاص بهم، بتلك الدرجة من الأهمية والوضوح لديهم، وكانوا مقتنعين بالتعايش مع الشعوب والأقوام الذين يساكنونهم . وهكذا تلاشى حظ الطوارق في دولة خاصة بهم بعد ما أضاعوا هذه الفرصة النادرة.

وإذا كان ساكنة إقليم (الهكّار) بالشمال الجزائري الذي يُعتبر الموطنَ الأولَ لشعب الطوارق وموئلَ حضارتهم البائدة، لم تَتَّقِدْ لديهم مطالب ورغبات الانفصال عن الجزائر، فكذلك ساكنةُ إقليم أزواد لم تكن لهم نفس النزعة، بل كانوا قابلين ومطمئنين إلى الاندماج في كيان واحد يجمعهم وإخوانَهم الماليين، وهو ما يعكس "الفطرةَ السياسية" المسالمة التي فُطر عليها هذا الشعب رغم ما عُرف عنه من صلابة

1) شملت حدودُ الدولة المقترحة - وفق ذلك التوزيع- اقتطاعَ أراض من ست دول، هي: **موريتانيا**، **الجزائر** (غالبيةُ مدنها الصحراوية الجنوبية الكبرى) ، **النيجر** (شمالُها المأهول بالطوارق والعرب: مناطق طاوه وأزواك)، **ليبيا** (جنوبُها الغربي)، **اتشاد** (شمالُها الغربي حيث التبو والقرعان: إقليم بلتيم) ، إضافة إلى شمال مالي (إقليم أزواد). (على نحو ما هو مفصل في متن هذا البحث)

وقوةِ بأس وشكيمة. وقد يكون لِعامل البداوة دور في نقص الاهتمام "بالطموح الانفصالي" الذي هو بطبيعته تفكير سياسي.

غير أن ساكنة أزواد - على خلاف إخوانهم في الهكّار- سرعان ما سيُغيرون هذه الطبيعةَ ويتحولوا عن هذه الوجهة غداة إعلان استقلال جمهورية مالي التي انضووا فيها، وذلك حينما شعروا بقدر كبير من التمييز والتهميش، بل والظلمِ والاضطهاد من حكومة الاستقلال المالية بقيادة (موديبو كيتا).

وهكذا نشأ ما عُرف بـــ"قضية أزواد" أو الطوارق، أو مشكلةِ الشمال المالي كما يحلوا للبعض أن يسميها، لتتفاعل وتتحول لاحقا إلى قضية دولية تستحق وصفها قانونا بأنها "قضية تقرير مصير"، وإن كان البعض يفضل وصفها بـــ"قضية انفصال".

ولا تنحصر المسألة الطارقية - من الناحية البحثية على الأقل- في المشكلة التي أصبحت عنوانَ كل قضاياهم اليوم (مشكلةِ أزواد)، والتي تستحق البحث في مضامينها وأبعادِها المختلفة خصوصا مع تطوراتها الأخيرة المتسارعة، وإنما تمتد القضية المتعلقة بالطوارق إلى تاريخهم وهويتِهم وحضارتهم العريقة، التي لم تجد حتى الآن من يكتب عنها حَقَّ الكتابة.

ويرتبط شعب الطوارق عموما، وأزواد وساكنوه خصوصا بموريتانيا وشعبها بروابط تاريخية عميقة، سهلت علينا في هذه الدراسة وَسْمَها بـــ"العلاقة الاستراتيجية" التي قد تصل في نظر البعض إلى الارتباط العضوي؛ أي أن الشعبين والمنطقتين هما امتداد لشعب وأرض واحدة، وإن حجزت بينهما حواجز السياسة، على نحو ما أفاضت فيه هذه الدراسة.

ونظرا لكل هذه الاعتبارات (نقصِ الدراسات المتعلقة بأمة الطوارق وتاريخها العتيد، ووجودِ القضية الأزوادية التي ما انْفَكّتْ متفاعلةً مشكلةً حدثا دوليا وإقليميا بارزا خصوصا مع تطوراتها الأخيرة ودخولِ تنظيم القاعدة في حيثياتها، وعلاقةِ موريتانيا الاستراتيجية بهذه القضية وأصحابِها..)؛ نظرا لكل ذلك فقد رأينا في المركز الموريتاني للدراسات والبحوث الاستراتيجية — ضمن اهتماماتنا وأولوياتِنا البحثية لتي نُسخرها لخدمة وطننا وما يتصل به — أن نكتب في هذا الموضوع برؤيتنا ومنهجيتنا

البحثية المعتادة، التي تتحرى الدقة الموضوعية، والجودةَ البحثية، والفائدةَ العلمية، وصولا إلى رؤية شاملة حول هذه "القضية" بأبعادها وتفاعلاتها الذاتية من جهة، وبعلاقة موريتانيا بها واقعا ومأمولا من جهة ثانية.

وهكذا سَطَّرت أناملُ زميلنا الباحث والمتخصص في هذه القضية: اكناته ول النقره هذا البحث، وتم تَعَاهُدُه من قِبل المركز ومستشاريه بما يستحقه من دراسة ومراجعة وتدقيق.

ولا يستطيع قارئ هذا الكتاب إلا أن يُقدر الجهدَ الكبير الذي بُذل فيه، استنادا لأهمية موضوعه من جهة، ولجودة مضمونه وأصالة منهجه من جهة ثانية؛ فمِن التعريف بهذا الشعب وتاريخه وهويته وأرضه، إلى مقاومته للاستعمار ومناوأته له، إلى قضيته ومَظْلَمته التي تَورَّطت وتواطأت فيها دول إقليمية ودولية، إلى علاقته بموريتانيا وعلاقة موريتانيا به.. تنقل الكاتب، بلغته الرصينة، و"أسلوبه الحكيم"، مُبدياً ثقافةً واستيعابا كاملا لهذا الشعب وقضيته، وقُدرةً تحليليةً وسياسيةً عميقة يَظن البعض أنها قد تنقص المؤرخين أمثالَه.

فشَكَر الله للباحث جهدَه، وحَقّقَ للشعب الأزوادي حُلمَه، ووفق موريتانيا إلى الموقف الذي يناسب علاقتَها الاستراتيجية بالشعب الأزوادي، ولا يُهمل خصوصيةَ علاقتها بالشقيقة مالي.

مقدمة

أعادت التطورات الأخيرة التي عرفها إقليم أزواد "قضية الطوارق" إلى الواجهة وتصدر المشهد الإعلامي بعد عقود متراكمة طمرت خلالها القـضية والـشعب في غياهب التجاهل والنسيان، وعانى خلالها الإقليم وساكنته من تنكر الأشقاء وجفـاء الأصدقاء وسطوة الغرباء، غير أن عشق الحرية وإرادة الحياة الكريمة التي فطر عليهـا هذا الشعب الجلد ظلت حافزا قويا يلهم أبناء الإقليم معاني التضحية، وصور العطـاء المتجدد الذي بقي يمد قضيتهم العادلة بأسباب البقاء والاستمرارية بعد ما عملت قوى وأطراف إقليمية ودولية على تغييبها عن دائرة الضوء والاهتمام، وحشرها في زوايـا معتمة، وتقديم أصحاب القضية للعالم الخارجي في ثوب "اللـصوص المـسلحين" أو "القتلة الانفصاليين"[1]، وهي الصورة النمطية السلبية التي نجح إعلام النظام الرسمـي الرافض لمطالب الطوارق في تكريسها وتسويق مخرجاتها السياسية لعقود قبل أن تتمكن الانتفاضات المتوالية للطوارق ابتداء من 1963، وانتهاء بالأحداث الحالية المتزامنة مع الربيع العربي من فضحها وتعريتها ليتكشف للعالم أجمع حجم البؤس والمعاناة الإنسانية البالغة التي حاقت بشعب مسالم حرم من أكثر حقوقه السياسية والمدنية، واسـتثنيت مناطقه من خطط التنمية للدولة المالية، وأهملت فيه مرافق البنى التحتيـة والخـدمات الوظيفية العامة منذ الحقبة الاستعمارية وإلى اليوم.

يأتي هذا العمل المتواضع -إضافة إلى أعمال أخرى محدودة سـبقته لبـاحثين وكتاب من هنا وهناك-[2] في سياق الجهود الرامية إلى إهالة تراب التجاهل والنسيان

---

1) درجت وسائل الإعلام الرسمية في مالي على وصم الثوار من الطوارق وغيرهم بمثل تلك النعوت السلبية.

2) ننوه في هذا المجال بالجهود الأكاديمية والبحثية التي بذلها البعض للتعريف بالطوارق، ونفض التراب عن تراثهم الثري، وتقديمه للجمهور حتى يطلع عليه الناس، نذكر منهم تمثيلا لا حصرا د/ علي فهمي خشيم في كتابه: "سفر العرب الأمازيغ"، ود/ محمد سعيد القشاط في كتابه: "التوارق عرب الصحراء الكبرى"، همام هاشم الألوسي في كتابه: "الطوارق"، د/ الهادي المبروك: "قبائل البربر"، د/ حماه الله ولد السالم، والذي حقق مشكورا

في مختلف صوره وأشكاله، وإلقاء أضواء كاشفة؛ من أكثر من زاوية على تاريخ هذا الشعب العريق بتقاليده الحضارية - عكس ما هو شائع- وبتجذره التاريخي العميق.

وهكذا فقد خصصنا الفصل الأول من الكتاب لطَرْق مشكل الهوية عند الطوارق بشكل عام، وجعلنا نصب أعيننا حقيقة هامة طالما تجاهلها البعض، وهي أن شعب الطوارق (أو أيَّ إثنية أخرى) هو وحده المخول ليقول من هو وإلى من ينتمي، وأيَّ وجهة سيقصد؟ فاستعرضنا مختلف مكونات الهوية عندهم بدءا بالأرض أو قدر الجغرافيا الذي تجاوزناه إلى محاولة الحفر الأركيولوجي حول البعد المفاهيمي المتعلق بالتسمية عند الطوارق، وناقشنا عددا من الروايات والافتراضات التاريخية حول الموضوع، وهو ما شكل مهادا نظريا للتطرق إلى المكون الآخر الهام من مكونات الهوية والمتعلق بجدلية الأصول والانتماء عند الطوارق، حيث يشكل حسم الجدل بشأنه حجر الزاوية في النقاش الدائر منذ فترة في صفوف النخبتين الأمازيغية والعروبية على الجانب الآخر من الحدود، وتحديدا في كل من الجزائر والمغرب وليبيا، بينما لم يحظ بذات القدر من الاهتمام في دوائر الصفوات المتصدرة من أبناء الطوارق الأزواديين، فيما تحولت معهم ظاهرة التنوع العرقي والفئوي في المجتمع المالي المتعدد من ظاهرة اجتماعية قد تشكل إيجابيا عامل قوة وإثراء اجتماعي إلى مشكل ثقافي وسياسي بات يهدد "العقد الاجتماعي" للكيان المالي بالانفراط والتشظي على صخرة المطالب الملحة بالانفصال لأكثر من أثنية من مكونات الاجتماع المالي المفتقر إلى التجانس والانسجام، ثم استعرضنا كذلك الروافد الثقافية التي غذت الهوية الطارقية، ومنحتها خصوصيتها الحضارية المميزة وقدرتها الفائقة على الممانعة الفكرية في وجه محاولات التذويب الهوياتي والإلحاق الثقافي على يد أكثر من جهة وطرف ليس أقلها الهجمة الاستعمارية الفرنسية التي كانت "الثقافة الفرانكوفيلية" إحدى أمضى أسلحتها الفتاكة.

وبجهد أكاديمي مثمر عددا من الكتب التراثية الهامة لمولفين من الطوارق: من أمثال كتاب تاريخ السودان لعبد الرحمن السعدي، وتاريخ الفتاش في أخبار البلدان وأكابر الناس، لمحمود كعت بن المتوكل الكرمي.

كما وقفنا على جوانب من الحياة الاجتماعية عند الطوارق وبعض ارتساماتها التي وشت تلويناتها المختلفة عن ملمح آخر من ملامح الهوية المميزة للشعب الطارقي كما هي من حيث المكانة الخاصة التي يوليها للمرأة، والتي جعلت منه مجتمعا "أميسيا" بامتياز، وكما هي أيضا في تقاليد الفروسية والنزال عندهم، وهي أيضا في عادات الزواج واختيار الأزياء وغيرها كثير، تطرقنا كذلك في الملح الخاص بالحياة السياسية للطوارق إلى محاولة تصحيح الخطأ الشائع لدى البعض من أن جل الطوارق بالإقليم هم من البدو المتنقلين على عكس جيرانهم من الزنوج الماليين الذين اعتادت الوثائق الرسمية المالية على نعتهم "بالسكان المتحضرين" في مقابل بداوة الطوارق، والحقيقة التي أثبتناها هي أن الطوارق عَرفوا التمدن والاستقرار، وأسّسوا مدنا عَرفت العمارة، مثل "تادمكه" و"تينبكتو" ووطّنَتْ لحياة سياسية مستقرة كان من أبرز مظاهرها قيامُ سبع سلطنات قوية ظلت مهابة الجانب حتى دخول الاستعمار الفرنسي إلى المنطقة.

وطبيعي أن يكون على رأس أهداف ذلك الاستكشاف التهيئة لدخول الاستعمار الأوروبي إلى المنطقة، وهو ما حدث بالفعل حين حاول الفرنسيون بسط سيطرتهم على الإقليم، فجوبهوا بمقاومة شرسة من قبل الطوارق استعرضنا صورا من تاريخها البطولي الناصع، وهو ما ضاعف من نقمة الفرنسيين وحنقهم على الطوارق، حيث ساءت أوضاعهم على مختلف الصعد من ثقافية واجتماعية واقتصادية تحت الاحتلال الفرنسي، وهو ما استعرضناه إلى جانت مناقشة الحيثيات المتعلقة بمشروع "المنظمة المشتركة للمناطق الصحراوية" أو "جمهورية الطوارق"، والذي عرضت فرنسا بموجبه على الطوارق إنشاء كيان سياسي خاص بهم في مقابل الوصاية الفرنسية عليه، وهو ما رفضه الطوارق وقتها، حيث تم لفت الانتباه إلى المفارقة القائمة بهذا الصدد، وهي أن فرنسا التي سعت اليوم رفقة تحالف فضفاض لإجهاض مشروع الدولة الطارقية الوليدة بأزواد هي نفسها التي كانت قد عرضت عليهم قبل أزيد من خمسين عاما إقامة كيان سياسي مستقل خاص بهم، فما الذي تغير في المعادلة إذن؟ الشعب هو الشعب لم يتغير، وكذلك الإقليم، ولكنها مصالح الفرنسيين تغيرت بعدما جرت من تحت الجسر مياه كثيرة جدا.

وبعد ما رَفَضَ الأزواديون مشروعَ "المناطق الصحراوية" مفضلين خيار الوحدة والاندماج ضمن الكيان المالي الذي حصل على الاستقلال لتوه، شعروا بخيبة أمل كبيرة من سلطات الحكم الجديد، حيث استعرضنا طبيعة الانتفاضة التي قاموا بها، والقسوة البالغة التي جوبهت بها من قبل النظام القمعي للرئيس المالي يومها موديبو كيتا، حيث أوضحنا أن تلك الأحداث وما تلاها من إقصاء وتهميش شكل الخميرة الملائمة لنمو وإنضاج القضية الأزوادية بعيدا عن فكرة الدولة الجامعة التي كانت حلم الجيل الذي جابه الاستعمار من الآباء المؤسسين، حيث فشلت الدولة الوليدة في صياغة عقد اجتماعي جامع تنحل فيه الولاءات الفردية لصالح الولاء الأكبر للدولة الأم.

وهو ما انعكس لاحقا في المسار الذي أخذته الأحداث حين ثار الطوارق مجددا في "تمرد 90" الذي سلطنا عليه الضوء من خلال استعراض ملامح الخارطة السياسية والعسكرية القائمة آنذاك.

وكان الحدث الأبرز هو المتعلق بالانتفاضة الثالثة الحالية، والتي حملتها رياح الربيع العربي العاتية، حيث هوت صروحٌ واهتزت عروش في أكثر من مكان، فاستغل المقاتلون الطوارق الموقف، وقرؤوا المشهد قراءة صحيحة سرعان ما أثمرت نصرا خاطفا على قوات الجيش المالي، استثمروه سياسيا لصالح الانفصال، وهو الخيار الذي وقفت في وجهه بقوة دول الجوار الإقليمي مع لاعبين دوليين كبار، حيث حاولنا تحليل دوافع ذلك الرفض لدى الطرفين من منطلق ثنائية "المصالح والمخاوف"، والتمسنا في نهاية ذلك التحليل بصيصَ ضوء في نهاية "مغارة علي بابا" التي دخلتها الأزمة المالية، ضمَّناه أفكارا قد تشكل أرضية ملائمة لإمكانيات التلاقي على أكثر من مشترك، يضمن للطوارق حقوقَهم السياسية الكاملة، ويحترم خصوصيتَهم الثقافية والاجتماعية، فيما يحفظ للكيان المالي وحدةَ وسلامة أراضيه وفق عقد اجتماعي جديد تكون المواطنة الكاملة، لا الانتماء العرقي، هي "قاعدة الحقوق والواجبات" فيه.

ونظرا لخصوصية العلاقة بين المجتمعين الموريتاني والأزوادي بتنوعه المختلف، فقد أفردنا تلك العلاقة بأبعادها الزمانية والمكانية بفصل خاص، حاولنا من خلاله الحفر حول الجذور العميقة لتلك العلاقة الحميمية التي ربطت صحراء صنهاجه أو صحراء الملثمين -كما اعتاد كتاب العصر الوسيط وصفَها - بالمجال السوداني، وخاصة تُخومَه الغربية المصاقبة لهذه الصحراء، فقلَّبنا صفحات مشرقة من تاريخ تلك العلاقة الخاصة، قبل أن نقف على حاضرها المأزوم وتداعياته على مستقبلها المنظور على خلفية الأزمة الأخيرة (2011) التي كادت أن تعصف بالاستقرار الإقليمي لدول الجوار المالي التي منها موريتانيا.

ولقد جاهتني في ثنايا هذه الدراسة عوائق كثيرة، فالكتابة في مثل هذه المواضيع أشبه ما تكون بالنحت في صخر الصوان، حيث تَعِزُّ المراجع التي يمكن الاعتماد عليها في موضوع بِكر، إضافة إلى الضغط النفسي المتعلق بالفاصلة الزمنية، فمن جهة يتطلب مثل هذا الموضوع الكبير مدى زمنيا ضافيا ولقاءات موسعة، ومن جهة هناك الحرص على مواكبة الحدث، حيث "البيان لا يجب أن يتأخر عن وقت الحاجة" كما يقول الأصوليون.

ولكن بفضل الله ثم بإيماني بأهمية الموضوع ووجوب الدفاع عن القضايا العادلة والتعريف بها إلى التشجيع المعنوي الكبير من الأخ والصديق العزيز الدكتور محمد محمود ولد الصديق مدير "المركز الموريتاني للدراسات والبحوث الاستراتيجية"، تم تذليل أغلب تلك المعوقات لتخرج الدراسة مقارِبة للمطلوب.

وقد اعتمدتُ لائحة مصادر ومراجع توزعت بين الكتب المطبوعة والأبحاث والدراسات والوثائق والمقالات والمقابلات والمصادر الشفهية لأصل إلى هذه العصارة التي نأمل -على تواضعها- أن تفي ببعض المطلوب في موضوع لا يزال في نظرنا بحاجة إلى مزيد من تعميق الدراسة والبحث.

الفصــل الأول
الطوارق وسؤال الهوية والانتماء

- الهوية: المفهوم والسياق التاريخي
- قدَر الجغرافيا: الوصف الطبيعي للإقليم
- الحفر حول التسمية
- جدلية الأصول والانتساب
- النفوذ السياسي للطوارق
- الحركة الثقافية والعلمية عند الطوارق
- الحياة الاجتماعية للطوارق

سنقف في هذا الفصل على مفهوم الهوية وطَرَفٍ من مسار تطور هذا المفهوم، وربط ذلك بسياقه التاريخي لدى الطوارق، ثم نستعرض بالتفصيل مكونات الهوية عند الطوارق على اختلاف تجلياتها وتنوع مساربها، فنقف ابتداء مع الأرض من حيث هي جغرافيا متصلة عملت على تقريب وتواصل الجماعة البشرية للطوارق من بعضها البعض وصبغها بصبغة خاصة حتى أصبحت الأرض (أزواد) عنوانا دالا يُحيل على أهلها (الطوارق). كما سنستعرض البعد الخاص بالملمح الثقافي عند الطوارق كمُكون أساسي من مكونات الهوية عندهم ارتبط بشكل وثيق بالمرجعية الإسلامية وفضائها الحضاري الرحب الذي استوعب التنوعَ الثقافي والاجتماعي للأمم والشعوب التي اعتنقته ضمن الهوية الإسلامية الجامعة. وغير بعيد عن الثقافة نتحدث أيضا عن اللغة التي يعتبرها علماء اللسانيات أقدمَ تجليات الهويات لدى الجماعات البشرية ومرآة فكرها، حيث يعتبرها البعض أصدق العناصر تعبيرا عن تفرد وخصوصية الهوية الطارقية.

وبعد الأرض استوقفنا الجدل المثار حول الهوية العرقية للساكنة، والتي شكل اللغط بشأنها أحدَ العناوين الرئيسية للسجال الساخن منذ بعض الوقت بين دعاة القوميتين الأمازيغة والعربية، وهو الجدل الذي حول "القضية" من مبحث أنتروبولوجي أكاديمي هادئ إلى صراعٍ هوياتي يَستبطن مطالب سياسية وثقافية ويستدعي تاريخا مريرا من المظلومية و"الإلحاق" المتعسف، من قبل أبناء الوطن الواحد والانتماء الجامع عربا وزنوجا.

كما ألقينا بعض الضوء على مكون آخر من مكونات الهوية الطارقية، وهو المتعلق بوحدة المطمح السياسي أو "إرادة العيش المشترك" وفق تعبير المدرسة الحقوقية الفرنسية، والذي جسد هو الآخر أحد جوانب التفرد في الشخصية الطارقية المولعة بعشق الحرية واستقلال الإرادة السياسية.

إلى جانب كل تلك العناصر والمكونات: شَكّلت العادات والتقاليد والمواضعات الاجتماعية عند الطوارق ملمحا هاما منح الهوية الطارقية مادة تلوينها الرئيسية التي طبعت تلك الشخصية بسمات وقسمات أكسبتها مع الزمن مناعة ذاتية

في وجه محاولات التذويب وطمس معالم الهوية التي تتدسس خلف أكثر من لافتة ودِثار ليظل اللثام الطارقي العتيق عنوان الصمود والثبات في معركة "الذب عن الهوية" في هذا الجانب الرمزي منها على الأقل.

المبحث الأول

الهــوية: المفهوم والسياق

الهُوية قضية من أعمق القضايا وأكثرِها إشكالا وتداخلا، لا من حيث تعدد وتشعب أبعادها الفلسفية والأخلاقية والثقافية والانتروبولوجية وحسب، وإنما أيضا من حيث تأثيرها الحاسم في تحديد وجهة الأفراد والشعوب ومعتقداتِهم واختياراتِهم الفكرية والايديولوجية والقواسم التي تجمعهم مع الغير أو تجعلهم يفترقون عنه.

وتاريخيا شَكلت الهُويات الأرضيةَ الفكرية الصلبة للمدنيات التي فَتحت العالم ثقافيا وعلميا وقدمت نماذج تُحتذى، حتى أصبح مقياس تطور الأمم ونضجِها الحضاري مرتبطا بمكانة الهوية عندها ومدى القدرة على تفجير الطاقات الكامنة في مكوناتها الذاتية إلى جانب التحكم الواعي في عملية التثاقف النسقية مع الآخر أخذا وعطاء.

وقد تجاوز خطاب الهوية اليوم في مَدَيَاته حوارَ "الانتلجنسيا" الفكرية والسياسية في أنديتها الخاصة، إلى صخب الفرد العادي في سوقه ومعمله، حتى صار الجدل والنقاش بشأن الهويات العنوانَ الأبرز للصراع الثقافي والتدافع الحضاري، وسمةً مسيطرة على قرننا الحالي، ومحركا رئيسا الأسباب التوتر والاحتراب الطاغية.

هذا القلق بشأن "الصراع الهوياتي" القادم، دفع عديدين من أصحاب النيات الحسنة شرقا وغربا إلى دق جرس الإنذار في مسعى حثيث للفت انتباه العقلاء حول العالم إلى العواقب المترتبة على الخطر الداهم الذي بات يتهدد مستقبل التعايش السلمي بين أبناء المعمورة. ويندرج في هذا السياق عدد من الأعمال الفكرية، يأتي على رأسها كتاب "الهويات القاتلة" للمفكر والكاتب اللبناني "نبيل معروف" الذي أوضح فيه أن مسألة الهوية ظلت مثار جدل في الفكر العربي على امتداد التاريخ، وأنها برزت في عصرنا الحاضر لتصبح مسؤولة إلى حد كبير عن الكثير من الفظائع والمآسي المرتكبة تحت عناوين الهوية المختلفة، تارة باسم الدين وأخرى باسم العرق.

وهو الهاجس نفسه الذي دفع من الغرب الكاتبَ والصحفي الفرنسي (أريك دوبان) إلى تأليف كتابه الهام "هستيريا الهوية"، حيث استهله بعبارة "من أنا"، وكان من جملة ما قال فيه: "إن مسألة الانتماء إلى هوية أخذت أبعادا جديدة دفعت في بعض الأحيان إلى اللجوء إلى العنف الدامي كما حدث في يوغسلافيا، كوسوفو، منطقة القوقاز، منطقة البحيرات بإفريقيا السوداء.. فهذه النزاعات قد قامت حول مفهوم الهوية وتأكيدها والاستماتة من أجل بقائها وإبرازها ماثلة ومؤثرة"[1].

وإذا ما عدنا إلى الهوية في مفهومها العام، نجدها مصطلحا تراثيا قادما من عالم الفلسفة والتصوف حمل شحنة دلالية حديثة أكسبته اعتبارات رمزية خاصة.

وقد ولّد الفلاسفة المسلمون هذا المصطلح من النسبة إلى "هو" أو "الهو" لتؤدي معنى فعل الكينونة في اللغات الهندو أوربية الذي يربط بين الموضوع والمحمول.

وانطلاقا من هذه العلاقة عَرَّفها من الأوائل الجرجاني بأنها: "الحقيقة المطلقة المشتملة على الحقائق اشتمال النواة على الشجرة في الغيب المطلق"[2]. وعرفها أبو البقاء الكفوي بالقول: "إن ماهية الشيء: هُو؛ باعتبار تحققه يسمى ذاتا، وباعتبار تشخيصه يسمى هوية.. والأمر المتعقّل من حيث امتيازه عن الأغيار يسمى هوية"[3]. وقد عرفها معجم جامعة اكسفورد بأنها: "حالة الكينونة المتطابقة بإحكام والمتماثلة إلى حد التطابق التام أو التشابه المطلق".

ومن المعاصرين عرفها المرحوم محفوظ نحناح بالقول: "تلك العوامل التي أثرت بشكل فاعل وحاسم في تكوين كيان الشعب ورسم ملامحه المميزة، وهي بشكل عام: الدين، اللغة، الموقع الجغرافي، الانتماء العرقي.. أو بعبارة أوضح: الهوية بمكوناتها وعناصرها المختلفة، أي: تلك القيم والأفكار والمبادئ الكبرى التي شكلت الحس المشترك وتبلور في إطارها الضميرُ الجماعي للشعب"[4].

---

1) علي محمد با عباد: مقال بصحيفة 26 سبتمبر اليمنية، العدد 1426

2) علي ابن محمد الجرجاني: "التعريفات"، ص: 257، دار الكتب العلمية – بيروت، 1995

3) أبو القاء الكفوي: الكليات، ص: 961، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1995

4) الهوية، ص: 7، الدار الخلدونية للنشر والتوزيع، ط7، 2004.

وعَرّفها الدكتور أحمد بن نعمان، فقال: "الهوية هي كلمة مركبة من ضمير الغائب (هو) مضافا إليه ياء النسبة لتدل الكلمة على ماهية الشيء كما هو في الواقع بخصائصه ومميزاته التي يعرف بها".

والحديث عن الهوية يحيل على مفاهيم أخرى تشترك معها في ذات الحقل الدلالي وتتساوق معها عضويا في علاقة تكاملية لا تُلغي الحدود القائمة بين الأنساق المعرفية بالضرورة. ومن تلك المفاهيم: الثقافة التي يعرفها أنور الجندي بأنها: "الكل المركب الذي يتضمن العقائد والمعارف والفنون والقوانين والعادات"[1].

وتمييزا لها عن الحضارة، يقول المفكر الإسلامي البوسني على عزت بيكو فيتش[2]: "إذا كانت الحضارة تقول لنا كيف نحيا؟ فإن الثقافة تقول لنا لماذا نحيا؟ ذلك أنها تُعامل أخصَّ ما فينا وهو العقل والضمير والوجدان". وانطلاقا من ذلك يرى أن الثقافة هي الخَلق المستمر للذات، بينما تعني الحضارة التغيير المستمر للعالم"[3].

أما مالك بن نبي فيركز في تعريفه للثقافة على البعد السلوكي على حساب المعرفي، فيجعلها نظرية في السلوك أكثر مما هي في المعرفة عند ما يقول: "الثقافة ليست المدرسة، لكنها لبيئة، وهي لا تؤخذ بالتعلم ولكن بالتنفس"[4].

وانطلاقا من هذا التشابك في العلاقة بين الدال والمدلول فيما يتعلق بهذين المفهومين (الهوية والثقافة) يرى بعض المفكرين صعوبة الفصل المفاهيمي بينهما، فما من هوية إلا وتختزل ثقافة، بل قد تتعدد الثقافات داخل الهوية الواحدة مثلما قد تتنوع الهويات في الثقافة الواحدة، وهو ما يعبَّر عنه بــ"التنوع في إطار الوحدة"، كما هو

---

1) معلمة الإسلام، ص: 225، المكتب الإسلامي، بروت، 1980

2) (بكوفتش): وُلد بمدينة بوسانا اكروبا البوسنية من أسرة مسلمة، وأكمل دراساته الجامعية بسرايفو واعتنق الفكر الإسلامي، مما جر عليه الكثير من الاضطهاد والمضايقات من النظام الشيوعي في يوغسلافيا، ثم أصبح رئيسا للبوسنة سنة 1990، قبل أن يستقيل عام 2000، وتفي بعدها بثلاث سنوات.

3) الإسلام بين الشرق والغرب

4) انظر كتابه: مشكلة الثقافة

عليه الحال بالنسبة للهوية الإسلامية التي تشكلت من ثقافات الأقوام التي اعتنقت الإسلام وانضوت تحت لواء حضارته مكوِّنة بذلك هوية إنسانية منفتحة ومرنة[1].

ومن المفاهيم المتصلة أيضا بالهوية: "المرجعية"، فالعلاقة بينهما كما يقول محفوظ نحناح لا توقف عند حدود التشابه للفظي والتناسب البلاغي، بل إنها أو ثق وأعمق مما يظهر على السطح، إنها "علاقةُ تأثير وتفاعل متواصل يصل إلى حد التداخل والتمازج، ويتجلى هذا التفاعل والتداخل في أوضح صورة وأصفاها في المواقف الحاسمة والمنعطفات المصيرية التي يمر بها شعب، ولنا في هذا السياق عشرات الشواهد والأمثلة من التاريخ في كل مراحله وعصوره؛ فأمام الخطر الداهم الذي حاق بروسيا في بداية الحرب العالمية الثانية لم يجد ستالين ومن ورائه الحزب الشيوعي السوفياتي وسيلة أفضل من بعث الشعور القومي في الشعب الروسي وتذكيره بمآثره التاريخية وإثارة حميته الدينية والعرقية في وجه الخطر النازي المحدق، (والمهاتما غاندي) دعا شعبه لمقاومة الاستعمار بالتخلي عن كل القيم والمظاهر والعادات والسلع الوافدة مع المستعمر فتمكن بمِغزله العريق وردائه الهندي العتيق من مواجهة الامبراطورية التي لم تكن تغيب عنها الشمس، وفي عالمنا الإسلامي شواهد وأمثلة تفوق الحصر.."[2].

وعادة ما يُلح سؤال الهوية والانتماء ويحتد الجدل الخلاق بشأنه حين تمر أمة من الأمم أو شعب من الشعوب بأزمة وجودية فاصلة أو حالة من الصراع الفكري والثقافي الحاد تمتحن تماسك لحمته الداخلية وقوة ارتباطه بثوابته المرجعية وقِيمه العليا التي يستمد منها شرعيتَه المجتمعية ومبررات كينونته؛ دورانا حول الذات، أو استجماعا للقوى في مواجهة الخطر الداهم.

وقد بدأ هذا السؤال يتردد صداه بقوة في ساحات النقاش الفكري والسياسي بتزامن مع بروز القضية الأزوادية للعلن وتصدّرِها للواجهة السياسية غداة ما عُرف حينها بـــ"انتفاضة كيدال" في ستينات القرن المنصرم، وما تلاها من أحداث وتطورات شكلت أول اختبار حقيقي كشف مدى هشاشة وتهافت "العقد

---

1) الدكتور: عبد العزيز التويجري (موقع الاسلام اليوم).

2) الهوية، المرجع السابق، ص: 8

الاجتماعي" للدولة الوليدة إلى جانب تآكل مصداقية النخبة السياسية المالية، خاصة من أبناء الجنوب، وسط حالة غير مسبوقة من الفرز والاصطفاف الطائفي لصالح هذه الهوية العرقية أو تلك، في لحظة فارقة لا تحتمل التأويل كان يُفترض فيها الحسم دستوريا في اتجاه هوية موحّدة جامعة منفتحة في نفس الوقت كذلك، بحيث تستوعب الاجتماع المالي بكل تلويناته العرقية والثقافية؛ فقد تتعدد الثقافات في إطار الهوية الواحدة دون أن يشكل ذلك التنوعُ المثري خروجا على ناموس الإطار الجامع كما هو الشأن مع الهوية الإسلامية التي هي نتاج انصهارٍ وتفاعلٍ عميق لثقافات وتجارب الأمم والشعوب التي اعتنقت الإسلام وارتضته مرجعية عليا تَبلورَ في إطارها الضميرَ الجماعي للأمة الإسلامية.

أما وقد حصل ما حصل، فقد راح أبناء الطوارق يفتشون في قلق عن هوية ضائعة أو أوشكت على الضياع بين مطرقة القمع والتهميش جنوبا، وسندان الإلحاق الثقافي غربا. يقول الوزير الفرنسي الأسبق (بينون): "لقد خسرت فرنسا إمبراطورية استعمارية وعليها أن تعوضها بإمبراطورية ثقافية".

وفي رحلة البحث عن الذات الضائعة كثيرا ما تتشعب السبل وتلتبس المعالم حتى يَقطع بعضها بعضا فيفترق على قارعتها السالكون حتى ما يكاد يجمعهم فكر ولا ينتظمهم سلك، فإذا ما آبوا إلى الهوية وجدوها كالواحة النفسية تُلقي في الروع سكينة وسلاما تطمئن له الأنفس وتزكو به الأرواح وتنقاد له العقول.

وقبل أن نقف على مكونات الهوية عند الطوارق ومختلف مظاهر وأشكال التعبير عنها، لا بد من التنبيه إلى مسألة في غاية الأهمية في نظرنا، وهي أن شعب الطوارق هو وحده المخول ليقول من (هو) ولمن ينتمي، وأي وجهة يقصد أو سيقصد؟ فلا أحد يستطيع حتى لو امتلك الرغبة والحافز (فبركَةَ) هويةٍ هجينة لهذا الشعب العريق في محاولة لإلحاقه بغيره أو الحفر عبثا لقصه من جذوره العميقة وتبيئته في خميرة مصطنعة كـ"نبتة عُلّيْقٍ برّانية"، وإهالةِ تراب النسيان و"المستحَثّات" على صفحاتٍ مجيدة من ماضيه الناصع.

ومع تسليمنا بأن الطوارق هم المخوَّلون قبل غيرهم بتحديد من هم، فإننا نرى أن من حقنا مع ذلك حريةَ "البحث العلمي" النزيه الذي ينشد الحقيقة والوصول إلى المعلومة الدقيقة بغض النظر عن النتائج والمآلات.

المبحث الثاني
قَدَر الجغرافيا: الوصف الطبيعي للإقليم

أزواد أو (أضْواد) كما يلفظها ويكتبها البعض[1]، كلمة أمازيغية تعني الأرض البيضاء المستوية التي لا سواد فيها، ويقابلها في العربية لفظة: (القَفر)؛ وهنـاك مـن ذهب إلى أنها ربما كانت مشتقة من اسم نهر قديم ناضب بالمنطقة يـسمى أزواد[2]، وهو المعنى الذي أكده المستكشف الاسكتلندي (روبـرت بـراون) بـالقول: «إن مصطلح أزواد عربي محرَّف عن الأمازيغية (أزواغ)، وهو حوض نهر جاف يقطع غربي النيجر وشمال شرق مالي وجنوب الجزائر، ومعناه: "أرض الترحال"».

ويشكل إقليم أزواد ثلثيْ مساحة الأراضي المالية، فيمتد من شمالهـا ليـشغل الحدود المطلة على كل من موريتانيا والجزائر والنيجر وبوركينا فاسو بمساحة تنـاهز 850.000 كلم^2، من أصل المساحة الإجمالية للدولة المالية والبالغة: 1.241.021 كلم^2.

يتكون أزواد حاليا بحسب التقطيـع الإداري المـالي مـن ثـلاث ولايـات (محافظات)، هي:

- ولاية تينبكتو (الولاية السادسة)؛
- ولاية گاو (الولاية السابعة)؛
- ولاية كيدال (الولاية الثامنة). كما تبينه الخريطة الآتية.

---

1) موسى الإدريسي: الطوارق، مخطوط 1992 – نقلا عن الألوسي – الطوارق، دار ابن رفراق.

2) محمد محمود بن ودادي: أوراق من أزواد – سلسلة مقالات منشورة على الشبكة الإلكترونية بتاريخ: 17/6/12.

ويغلب العنصر الطارقي على ساكنة هـــذه الولايـــات، إضـــافة إلى العـــرب والسونغاي والفولان بنسب متفاوتة[1].



خارطة إقليم أزواد

ومن أدق وأجمع ما وقفنا عليه في وصف مظاهر السطح بالمنطقة مـــا ذكـــره موسى الإدريسي[2]، حيث أشار إلى تمايز ثلاث مكونات جغرافية طبيعية للـــسطح، هي:

1. المنطقة الأولى: وتمتد من الشرق، حيث منبطح (تامسنا)، وهـــي أرض مـــستوية السطح، تتخللها كثبان رملية وبعض الأودية الواسعة التي تفتقر إلى غطـــاء نبـــاتي كثيف، حيث الشجيرات الملحية الصغيرة مثل نبتة الجرجير وغيرها من الـــشجيرات الفصلية، ويسهل استخراج المياه في هذه المنطقة، إذ لا يتعدى عمق آبارها أربعة إلى ستة أمتار، وكثيرا ما تقوم الرياح بطمرها خلال يوم واحد، مما يفرض على الأهالي

1) في غياب إحصاءات دقيقة وموثقة لا يمكن إعطاء رقم صحيح عن عدد الطوارق في منطقة الساحل الأفريقي عموما، وفي مالي خصوصا، وثمة تقديرات غير رسمية تذهب إلى أن عددهم الإجمالي بالمنطقة يناهز 3.5 مليون، نسبة 85% منهم في مالي والنيجر، والبقية بين الجزائر وليبيا. وتذهب نفس التقديرات إلى أنهم يشكلون ما بين 10% إلى 20% من إجمالي سكان كل من النيجر ومالي. وحسب آخر إحصاء رسمي في مالي أجري في العام 2011 بلغ عدد سكانها 14.500.000 ، حوالي مليونين منهم من الطوارق موجودون كلهم بإقليم أزواد.

2) همام هاشم الألوسي: الطوارق، ص 104 وما بعدها مع بعض التصرف. دار ابن رقراق.

إعادة حفرها مجددا، وتعتبر المنطقة من المراعي المفضلة لمربي الإبل وصيادي الظبـــاء والغزلان، وهي إضافة إلى ذلك منطقة صالحة لزراعة النخيـــل، ويعتقـــد الخـــبراء باحتوائها على احتياطيات هامة من الغاز الطبيعي، وهو ما يفسر في جزء منه جانبـــا من اهتمام الشركات النفطية الغربية بالمنطقة، وتنافسها المحموم على التنقيـــب بهـــا، والفوز بعقود شراكة مع السلطات المالية بهذا الخصوص.

2. أما المنطقة الثانية فتقع ما بين (تين اسكو) و(انبا غير)، وتمتد إلى حافة نهر النيجر عند (انسبنغو آفور)، وفي مركز هذه المنطقة تقع آدرار و(آن فوغاس) وهي منطقـــة شبه جبلية، تتكون من سهول صخرية تتخللها الأودية التي تنبـــت بهـــا الأشـــجار الشوكية، وتمتد من حافة (جبال الهكّار) بـــالجزائر حـــتى ملتقـــى وادي (اجـــدير وتلميسي) ومياه المنطقة الجوفية هي نتيجة لترسب مياه المطر الذي تحتجزه الصخور الجرانيتية (الـــگرانيتية)، ويتراوح عمق الآبار بها من أربعة إلى اثنين وثلاثين متـــرا. والهقار أو الأهقار التي تمتد من حافتها المنطقة هي عبارة عن سلسلة جبليـــة يـــصل ارتفاعها إلى ثلاثة آلاف متر، وتدعى (الآتاكور)، أي الرأس بالطارقية، وقد صنفت منظمة "اليونسكو" تلك السلسلة الصخرية ضمن التراث الإنساني العالمي، ومنـــهلا للباحثين المختصين في الجداريات العظيمة للحيوانات المحلية، وتقع إلى جانبها سلسلة "التاسيلي"، حيث تغطي السلسلتان مجتمعتان مساحة 55 ألف كلم^2، وهو ما يعادل ضعف مساحة بلجيكا.

3. وبالنسبة للمنطقة الثالثة فهي منبطح (وادي تيلميسي) في الغرب، وأرضه رمليـــة تتخللها مناطق مكونة من حجارة (الحوار الجيري)، وتمتد في شماله السلسلة الرمليـــة الممتدة حتى حدود موريتانيا إلى داخلها، وإلى أحراش (تندوف)، وتتركز معادن الملح بهذه المنطقة، وخصوصا في مقاطع (تغازة القديمة) و(وتاودني الحديثـــة) و(أغبـــب)، حيث يكفي مخزون المنطقة الملحي لمدة خمسين عاما بحسب تقديرات المختصين.

والوصف الطبيعي لأزواد لا يكتمل من دون الحديث عن منطقة غطت شهرتها في بعض الأحيان على شهرة الإقليم الأم ذاته، وأصبحت عنوانا دالا عليه فاكتـــست صيتها ذاك من خصائص جيو فيزيائية تفردت بها من دون ســـائر مظـــاهر الـــسطح

بالإقليم، إنها منطقة آدرار أو (ادغاغ) كما ينطقها بعض الطوارق، وتعني في الأمازيغية الجبال، يتكون آدرار من مرتفعات هضبية غرانيتية بركانية يحيط بها من الشرق منبطح سهل (تمسنا)، وغربا منخفض وادي (تيلمسي)، ومن الشمال رمال (تانطروفت)، وجنوبا السهول الساحلية لنهر النيجر، وتقدر المساحة الإجمالية له بحوالي: (250.000) كلم2، وتعتبر كيدال أكبر مدن آدرار، وقد عرفت نزوحا كبيرا لساكنتها كباقي مدن وقرى المنطقة منذ أيام الاحتلال الفرنسي وما تلاه من أحداث دامية.

المبحث الثالث
الطوارق وأحفورة التسمية

تختلف الروايات بل وتتضارب أحيانا حول منشأ التسمية، ومعناها والافتراضات التاريخية المتعلقة ببداياتها بين المؤرخين والبحاثة المهتمين، عدا الاختلافات بين أبناء الطوارق أنفسهم بهذا الخصوص.

وتلك التسميات تدور في أغلبها ما بين الوصف والموصوف، الوصف لأنماط العيش ومواطن النجعة كما هو مجرى العادة في مسميات أغلب قبائل صنهاجة كمسوفة أو (أمسوفانْ) التي تعني سكان الرمال، ولمطة من "لمط"، وهو حيوان يرمز لنمط حياة قبيلة لمطة[1]، أو "الرجال الزرق" كناية عن غلبة اللون الأزرق على ما يلبسه الطوارق، أو تنصرف إلى الموصوف لتتحدث عن مزاياه وصفاته الخلقية، وتشوفه للمثل "كايماجغن" التي تعني الرجال الأحرار أو الرجال الشرفاء.

ووفق ذلك الاعتبار فقد ذهب البعض إلى احتمال أن تكون التسمية قد اشتقت من اسم الوادي الذي سكنته بعض قبائل الملثمين قديما وهو وادي درعة[2]، ويسمى بالطارقية (تاركا)، ومعناه الوادي أو مجرى النهر.

ويرى آخرون أن تسمية "التوارق" اشتقت من "تارقا"، وهي التسمية الثانية "لمنطقة فزان" بليبيا، وهي إحدى معاقل الطوارق بليبيا.

أما المؤرخ المغربي السلاوي فقد فرق بين "التوارك" و"الطوارق" في منشأ الاشتقاق، وذلك عندما قال: «قبائل تاركه من قبائل شعب صنهاجة البرانس، وينطق حرف الكاف بالجيم المصري البدوي.. والنسبة إليها "تاركّي" جمع "تواركّه" أو

1) عبد الرحمن بن عبد الله بن عمران السعدي (ت: 1656): تاريخ السودان، ص 137، دار الكتب العلمية.

2) وادي درعة يقع إلى الجنوب من مراكش المغربية، وهو أطول أنهار المغرب (1200م)، وينبع من جبال الأطلس الكبير، ويستغل لري بساتين النخيل، وأغلب ساكنته من ذوي البشرة السوداء.

"توارگ" بالجيم المصري، وقد حرَّف العرب اسم "التوارگ" ليسهل عليهم النطق به إلى اسم الطوارق»[1].

وللباحث عبد القادر جامي رأي قريب من هذا، حيث يرى أن كلمة "التوارق" جمع لكلمة "التارقي" المفردة، ذلك لأن العرب أطلقوا عليهم اسم "التوارق" نسبة لقبيلة (تارغا) إحدى قبائل البربر القاطنة في الصحراء الممتدة من المحيط الأطلسي إلى اغدامس في القرن السابع الهجري[2].

أما اسم الطوارق فهم لا يسمون به أنفسهم ولا ينتسبون إليه في أصولهم، فهو اسم أطلق عليهم من خارجهم، لا يعرفه إلا المثقفون والمتعلمون، ونادرا ما يعرفه الشخص الأمي من الطوارق الذي لم يتصل بالثقافات العصرية والعالم الخارجي[3].

ونفس الشيء ينطبق على تسمية "الاعجام" التي يطلقها عليهم جيرانهم من الموريتانيين، بل إن هذه التسمية الأخير ينفرون منها ويرون في إطلاقها عليهم نوعا من التنقيص والاحتقار دون أن يكون ذلك هو مقصد جيرانهم حسب مدلول الكلمة الثقافي.

ويعتقد محمد وارجو أن "تسمية الطوارق قد أطلقت عليهم، لأنهم طرَّاقوا الصحراء ومرتادوها، وطوارق جمع طارق، وهو الآتي ليلا على اعتبار أن الصحراء كالليل، وأن السالك لدروبها كالسائر في الليل، كما أن العابرين للصحراء كثيرا ما يضطرون لقطعها ليلا والإقامة نهارا لشدة الحر"[4].

ويرى السفير والباحث همام هاشم الألوسي مدعما برأي المؤرخيْن الطارقيين: موسى بن شداد وعتيق بن انجانبان أن "تلك التسمية (الطوارق) قد أطلقت حديثا - نسبيا- على الملثمين من أبناء القبائل التي كانت تحكم القوافل من الصحراء خلال

---

1) أحمد بن خالد بن حماد بن محمد الناصر الدرعي الجعفري السلاوي المغربي (ت: 1315)، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، الدار البيضاء، دار الكتاب 1954م.

2) عبد القادر حاجي: من طرابلس الغرب إلى الصحراء الكبرى، دار المصراتي، ص 162.

3) محمد سعيد القشاط: التوارق عرب الصحراء، مؤسسة ذي قار 1999.

4) محمد وارجو: الطوارق الشعب الأمازيغي المنسي، جريدة تمازيغت، ص 3.

العصور الوسطى عندما نشطت التجارة بين شمال إفريقيا وجنوب الصحراء، ونعني أسواق الذهب والعاج، إضافة إلى الرقيق في غرب إفريقيا، وبالأخص في مناطق تينبكتو وغاو وجني وولاتة، وذلك عندما كان تجار العرب والبربر من سكان شمال إفريقيا يجتازون بلاد الملثمين في قلب الصحراء إلى تلك الأسواق من بلاد السودان لمقايضة سلعهم بما يحتاجون إليه من البضائع الإفريقية. وكانت مهنة التجارة في تلك العصور مهنة صعبة لا يقوم بها من الرجال إلا من كانوا على درجة عالية من الشجاعة والإقدام مع ركوب الأخطار والأهوال في مسالك تجارتهم لانعدام الأمن وغياب سلطان الدولة، حيث يسود ما يشبه شريعة الغاب بين قبائل وأقوام مردت على السلب والنهب في أغلب أحيانها في هذه الحقبة التاريخية التي نشطت فيها التجارة بين الشمال والجنوب كان الملثمون ينتشرون في قلب الصحراء الكبرى، حيث تمر بهم تلك القوافل التجارية جيئة وذهابا إذا وصلوا إلى أطراف بلاد الملثمين أوجب عليهم سوء الحالة الأمنية في الصحراء آنذاك البحث عن الدليل والحامي لقوافلهم، وكان يسمون هذا الدليل والحامي: الطارقي ويقصدون به الطريقي أو الطرقي والنسبة هي إلى الطريق، وقد جاءت النسبة خلاف القياس الصرفي لكلمة الطريق لجهلهم بقواعد اللغة العربية ربما، وهناك رواية أخرى تقول إن الطارقي جاء نسبة إلى الطارق، وهو من يطرق القوم ليلا من التصريف اللغوي (طرق يطرق طرقا) وعلى كل حال فهذا الاسم الذي أطلق على الملثمين تزامن مع عصر القوافل التجارية مما يؤكد أن أصحاب تلك القوافل من العرب هم الذين أطلقوه على الملثمين لاشتغالهم بهذه المهنة وهي حماية القوافل في طرق الصحراء ومن الضياع فيها، حيث يُعرف عنهم خبرتهم في تحديد مسالك الطرق عن طريق تقصي النجوم، وكانت مهنة تستوي فيها جميع القبائل وجميع الأجناس بغض النظر عن اختلاف ألوانهم أو أماكنهم"[1].

وقد غلبت هذه التسمية على غيرها من المسميات والألقاب الأخرى التي حملها أبناء هذه المجموعة خلال حقب تاريخية مختلفة حتى وقع تبنيها رسميا من قبل

---

1) همام هاشم الألوسي: الطوارق، دار ابن رقراق، ص 91.

القادة السياسيين والقبليين، حيث صَدَّرَ زعماء الطوارق مطالبَهم في المذكرة الـــشهيرة التي أصدروها عام 1990 إبان مفاوضاتهم مع الحكومة المالية بعبارة "نحن طـــوارق مالي".

المبحث الرابع
جدلية الأصول والانتساب

التحديد الدقيق للأصول العرقية لأي شعب أو قومية مسألة انتروبولوجية بالغة الصعوبة والحساسية، سيما إذا تعلق الأمر بشعب عانى الإهمال والنسيان، وشكل انعزالُه وانغلاقُه النسبي على ذاته حاجزا نفسيا إضافيا إلى جانب الحاجر الطبيعي (الجغرافي) الذي شكلته الصحراء، حيث يقيم الطوارق وينتقلون بشكل مستمر ومنذ القدم عبر فضائهم الصحراوي الواسع.

ولعل أقدم إشارة تاريخية إلى الطوارق وأسلافهم هي تلك التي وردت على لسان المؤرخ الإغريقي الشهير (هيرودوت) عندما زار ليبيا وتجول في واحة (فزان) في القرن الخامس قبل الميلاد، وتحدث عن شعب (القارامانت) المنتشر بسهول المنطقة آنذاك، والذي يعتبره بعض المؤرخين الأسلافَ الحقيقيين للطوارق.

وجاء اهتمام المؤرخين والنسابة العرب بالمنطقة وساكنتها متأخرا، وجرى الاعتماد في تدوين تاريخهم على الروايات الشفاهية التي يتناقلها نسابة البربر من امثال صاحب الحمار[1] وهاني بن بكور الضريسي وسابق بن سليم المطماطي وكهلان بن أبي لوا، إضافة إلى بعض نسابة العرب كابن الكلبي القضاعي ومحمد بن سلام الجمحي واليعقوبي والطبري..

وبالسبر والتمحيص للأخبار والروايات التاريخية المتداولة حول قضية الأصول والانتماء لدى الطوارق، نجد أن مدارها على أربع روايات هي أقرب للافتراضات الظنية منها إلى الحقائق التاريخية القطعية، وتتفاوت تلك الروايات في درجة الإقناع، وسلامة الافتراضات المنطقية، ومدى اتساقها مع النتائج العلمية المتحصل عليها من

1) هو أبو أيوب بن أبي يزيد مخلد بن كيداد الخارجي الأباضي، ويلقب بصاحب الحمار، من أكبر نسابة البربر، وأغزرهم علما، اعتمد عليه ابن خلدون في الكثير مما دونه عن البربر، وأبدى إعجابه به كثيرا.

الاكتشافات الأثرية والحفريات الأركيولوجية، إضافة إلى الدراسات الحديثة المتعلقة بعلم السلالات البشرية، وهندسة الخريطة الجينية، وهذه الروايات هي:

1) الطوارق من أصول صنهاجية عربية:

وهذا المبحث يحتاج إلى توضيح وتفصيل فيما يتعلق بتحرير انتماء الطوارق إلى صنهاجة، وتحقيق انتساب الأخيرة إلى العرب.

ومثلما أشرنا في التمهيد السابق فإن اهتمام مؤرخي العرب بمنطقة الصحراء الكبرى وجغرافيتها البشرية جاء متأخرا وجزئيا، وغلب على بعض ما كُتب في هذا المجال طابع الوصف العمومي على حساب التصنيف والفرز بدل التعليل والتحليل.

وفيما يتعلق بالطوارق تحديدا فغالبا ما تتم الإشارة إليهم تحت مسمى الملثمين جمعا لهم مع غيرهم من أقوام الصحراء، وأحيانا يتمحض لهم الوصف دون غيرهم، أو يقع التنصيص باسم تاركة أو تركه أو توريكه.. وممن أشاروا إلى الطوارق أو تحدثوا عنهم تلميحا أو تصريحا عبد الرحمن بن خلدون وابن حوقل والبكري والسعدي والسلاوي والناصري.

يقول ابن خلدون متحدثا عنهم في جملة صنهاجة: «هذه الطبقة من صنهاجة هم الملثمون الموطنون بالقفر وراء الرمال الصحراوية بالجنوب، أبعدوا في المجالات هناك منذ دهور قبل الفتح، لا يعرف أولها..»، إلى أن يقول: «وصاروا ما بين بلاد البربر وبلاد السودان حجزا، واتخذوا اللثام خطاما تمايزوا بشعاره بين الأمم، وعفوا في تلك البلاد، وكثروا وتعددت قبائلهم من كدالة فلمتونة، فمسوفة فوتريكه فتركا فزغارة، ثم لمطة هم إخوة صنهاجة... كلهم ما بين البحر المحيط إلى غدامس، وكانت الرياسة فيهم للمتونة»[1]. وقد أدخل ابن خلدون الطوارق الذين يشير إليهم بتركا في الطبقة الثانية من صنهاجة.

---

1) عبد الرحمن بن خلدون: تاريخ ابن خلدون، المجلد السادس، ص 370 وما بعدها.

وممن نوهوا بالنسب الصنهاجي للطوارق عبد الرحمن السعدي والذي قال عنهم: «وهم المسوفة[1]، ينتسبون إلى صنهاجة، وصنهاجة يرفعون أنسابهم إلى حمير»[2].

وكان السعدي الذي يعود في أصله إلى الأنصار قد نشأ بتينبكتو في محيط عائلي علمي، وتولى إمامة مسجد (سكوري)، وتولى منصب كتابة ديوان الباشا محمد بن محمد بن عثمان 1056هـ، وأقام علاقات سياسية واجتماعية معقدة مع الفقهاء والأعيان في إقليم منحى النيجر، مما مكنه من تحصيل فوائد ومعلومات تاريخية وجغرافية وبشرية بالغة الدقة والأهمية[3]، لذلك فإن حديثه عن الطوارق يأتي من منطلق الخبرة التاريخية والممارسة السياسية الاجتماعية، وهذا الرأي الذي مال إليه أغلب من كتب عن المنطقة من قدامى المؤرخين والجغرافيين وجد أيضا صدى واستحسانا لدى المتأخرين من أمثال السلاوي[4] وابن ناصر[5] وابن منصور[6]، ويؤكد السلاوي أن "ترقة من قبائل صنهاجة كذلك، ومن هذه القبيلة اشتقت تسمية توارق"[7].

1) مسوفة (إيمسوفن): الرمليون، سكان الرمال، اسم قبائل صنهاجية، انتشرت منذ القديم في شرق موريتانيا وشمال مالي والنيجر، واحترفت التجارة، ودلالة القوافل، وأسست أغلب القرى الصحراوية والسودانية، وإليها تنتسب قبيلة (مُغشرن)، وهم أهل الشوكة في مسوفة، وقد شاركت مسوفة في تأسيس دولة المرابطين، ومن أشهر العائلات المسوفية عائلة يحيى بن غانية المسوفي، التي خرج من رحمها ثوار بني غانية الذين دوخوا البلاد ضد الموحدين طيلة قرن كامل. (راجع الدكتور احماه الله ولد السالم: تاريخ السودان، ص 135).

2) عبد الرحمن بن عبد الله بن عمران بن عامر السعدي (1596 - 1656م)، تاريخ السودان، ص 135 – 136، دار الكتب العلمية، تحقيق الدكتور احماه الله بن السالم.

3) المرجع السابق: ص 7.

4) هو أحمد بن خالد بن حماد بن محمد الناصر الدرعي الجعفري السلاوي المغربي (ت: 1315هـ).

5) هو محمد بن أحمد بن ناصر الراشدي، ولقبه أبو راس، مؤرخ وفقيه جزائري (ت: 1823م).

6) هو عبد الوهاب بن منصور الملقب بمؤرخ المغرب، ولد في العام 1920، وتوفي سنة 2008م.

7) الناصر السلاوي: الاستقصا لأخبار دول المغرب، الدار البيضاء، دار الكتاب 1954م.

وهو ما يؤيده كذلك عبد الوهاب بن منصور بالقول: «قبائل تاركة من قبائل شعب صنهاجة البرانس، ويُنطق حرف الكاف بالجيم المصري البدوي.. وهي إحدى قبائل الملثمين الصحراويين»[1].

وخلاف ما تواطأ عليه المؤرخون قبلا فإن التجانس الاجتماعي والثقافي إلى جانب التشابه في الكثير من الخصائص الموروفولوجية بين الطوارق والعديد من العائلات القبلية المنتمية إلى المجموعة الصنهاجية يعتبر دليلا إضافيا في نظر علماء الانتروبولوجيا يعزز الفروض المتعلقة بانتماء الطوارق إلى صنهاجة، والوجه الثاني من المسألة هو المتعلق بتحقيق عروبة صنهاجة. وقد ذهب أكثر النسابة إلى عروبة صنهاجة وأختها كتامة، وأنهما دخلتا بلاد المغرب قبل الإسلام في عهود قديمة بعد انفجار سد مأرب، ويلحون على حميرية القبيلتين وكان الأمير الصنهاجي أبو الفتح المنصور كثير الاعتزاز بنسبه الحميري، خطب في أهل القيروان عندما تولى إمارتها (374هـ/983م) قائلا: «..إن أبي وجدي أخذا الناس بالسيف قهرا، وأنا لا آخذهم إلا بالإحسان، ما أنا في هذا الملك ممن يُولّى بكتاب، ويعزل بكتاب، لأني ورثته عن آبائي، وأجدادي ورثوه عن آبائهم وأجدادهم حمير»[2].

وظل ذلك هو ديدن الصنهاجيين حتى في عهد الدولة المرابطية على النحو المشهور في أيام يوسف بن تاشفين[3].

وامتدحوا بذلك واستحسنوه، وقد أنشد فيهم كاتب الدواوين أبو محمد بن حامد قوله:

---

1) عبد الوهاب بن منصور: قبائل المغرب، المطبعة الملكية، الرباط 1968م.

2) ابن عذاري، أبو عبد الله أحمد بن محمد المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، دار الثقافة، بيروت 1983، ص 240.

3) راجع د/ احماه الله ولد السالم، المرجع السابق، وكذلك د/ حسن نصار: نهاية الأرب في فنون الأدب، مطابع الهيئة المصرية للكتاب.

قوم لهم شـرف العلـى مـن حمـير | وإذا انتمـوا لمتونـة فهـم همـوا
لمـا حـووا عليـاء كـل فـضيلة | غلـب الحيـاء علـيهم فتلثمـوا

ويقول فيهم أيضا أبو فارس عبد العزيز الملزوزي الزناتي في أرجوزته التاريخية:

مرابطـون أصـلهم مـن حمـير | قـد بعـدت أنـسابهم عـن مـضر
كـانوا ملوكـا في الزمـان الأول | وأمـرهم وحـالهم لم يجهـل
وقـد رأيـت في كتـاب النـسب | قـولا بـه أعجـز أهـل الأدب
بـأن صـنهاج سـليل حمـير | وهـو ابنـه لـصلبه لا العنـصر
أكـرم بـه مـن نـسب صـريح | فقلـه لا تخـف مـن التـصريح

وهو النسب الحميري الذي قالت به جمهرة من النسابة والمؤرخين والعلماء ينيفون على العشرين[1]، منهم: ابن الكلبي، وابن سلام الجمحي، والزبير بن بكار، واليعقوبي، والطبري، والسيوطي، وابن جزي الكلبي، والهمداني، والجرجاني، وابن الأثير، والسمعاني، وابن خلكان، وابن الخطيب، والفيروز، آبادي والإدريسي..

والوجود البشري لصنهاجة بالمنطقة قديم، إذ يُرجعه بعض المؤرخين في أقل تقدير إلى الألف الثاني قبل الميلاد عندما غزا ملك حمير وقتها إفريقش بن قيس بلاد

1) راجع د/ احماه الله ولد السالم، المرجع السابق، وكذلك د/ حسن نصار: نهاية الأرب في فنون الأدب، مطابع الهيئة المصرية للكتاب.

المغرب في نُزّاع من قبائل اليمن وأقيالها وعلى رأسهم صنهاجة وكتامة، ثم أوغل في الصحراء، ولقي ملك تلك الأنحاء (جورجيس) فصرعه وتحول إليه ملكه وسميت المنطقة من يومها باسمه، وبعد ما أقام مدة قفل راجعا إلى اليمن، وخلف على أهل المغرب صنهاجة وكتامة.

وقد حصل خلاف قديم بين النسابة في ضبط الأسماء والأعداد في عمود نسب صنهاجة وتسلسله إلى حمير، وليس هذا مقام التفصيل فيه، وإنما نكتفي بما أورده نسابة العرب الكبير أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي المتوفى في مطلع القرن الثالث الهجري (ت: 204هـ) في جمهرة الأنساب: «صنهاجة وكتامة ابني السور بن سعيد بن جابر بن سعيد بن قيس بن صيفي»[1].

وصيفي المذكور كما بين ابن الكلبي هو ابن سبأ بن حمير الأصغر، ويتصل في عمود نسبه بحمير الأكبر بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن عامر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام.

أما ابن خلدون وعلى رغم اضطرابه الشديد وتردده بين النفي والإثبات في شأن حميرية صنهاجة وصحة انتسابها للأرومة العربية مثله في ذلك مثل ابن حزم وأبو الفدا إسماعيل بن علي الأيوبي (صاحب حماه) وغيرهما.. فإننا لا نعدم أن نقف في تضاعيف سفره الضخم (الديوان) على مثل هذا الشاهد: "والحق الذي شهد به المواطن والعجمة أنهم بمعزل عن العرب (يعني البربر) إلا ما تزعمه نسابة العرب في صنهاجة وكتامة، وعندي أنهم من إخوانهم، والله أعلم"، ثم يردف: "فإن أمة العرب لم يكن لهم إلمام قط بالمغرب، لا في الجاهلية ولا في الإسلام، لأن أمة البربر الذين كانوا به يمانعون عليه الأمم (يحمونه منها)، وقد غزاه إفريقش بن قيس الذي سميت به إفريقية من ملوك التبابعة وملكها، ثم رجع عنها وترك كتامة وصنهاجة من قبائل حمير، فاستحالت طبعتهم إلى البربر، واندرجوا في عدادهم، وذهب ملك العرب منهم"[2].

---

1) ابن الكلبي: كتاب نسب معدو اليمين الكبير، مطبعة عالم الكتب، الصفحتين: (548 – 549).

2) "كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر"، والمعروف اختصارا بتاريخ ابن خلدون.

وما أشار إليه ابن خلدون تلميحا من تلاشي أو حتى ذوبان لملامح الهوية الثقافية لصنهاجة جراء المثاقفة والاختلاط لقرون طويلة مع ساكنة المنطقة من بربر وزنوج وغيرهم، أفصح عنه ابن خلكان تصريحا عند ما زعم أن يوسف بن تاشفين لم يكن يحسن العربية مثله في ذلك مثل طارق بن زياد عندما شكك البعض في صحة نسبة خطبته البليغة إليه عشية عبوره مضيق الجبل الذي سمي به إلى جنوب إسبانيا.

وهي إشارات وتلميحات لا تخلو من غمز، لا يقدح بنظر البعض في أصالة النسب الحميري لصنهاجة الذي نوه به صاحب عمود النسب (البدوي) في أرجوزته عاطفا على ابن تاشفين:

وآلُ عبادَ ملوك الأندلس   من نسل ذي الطوق وغالها الندس

يوسف العدل ابن تاشفينا   الحميري ثم من لمتونا

2) الطوارق من أصول أمازيغية بربرية[1]:

يعتقد البعض - على عكس ما أثبتناه سابقا- أن الطوارق ينحدرون من قومية الأمازيغ البربرية[2]، ويسوقون لتدعيم وجهة النظر تلك شواهد عدة، بعضها يتعلق

1) لابد من التنويه هنا إلى أن استخدامنا لهذا الاسم أو المصطلح عند البعض لا يحمل أي شحنة سلبية أو توصيف قدحي في حق أبناء هذه الأورمة المحترمة، ففضلها سابق، ومجدها سامق في خدمة هذا الدين، والذب عن حياضه في وجه أعدائه المتربصين.

2) لا يوجد إجماع بين المؤرخين والانتروبولوجيين حول أصل اشتقاق تسمية البربر، حيث يؤكد البعض على أن لفظ البربر (BARBARUS) وصف كان قد أطلقه اليونان ومن بعدهم الرومان على ما عداهم من الشعوب الأخرى بدليل أن المؤرخ الإغريقي "هيرودت" قد أطلق في كتاباته لفظ البرابرة على الفرس والمصريين، وحمل شحنة دلالية سلبية، وتعني الشعوب غير المتمدنة أو الخارجة على السلطة، ومع مرور الوقت انحسرت التسمية في نطاق جغرافي محدود لتتمحض لسكان الشمال الإفريقي من ذوي البشرة البيضاء والعيون الزرق دون غيرهم.
أما القدماء من نسابة العرب والبربر فلهم آراء مختلفة في الموضوع، من أشهرها ما أشار إليه ابن خلدون بالقول: "إن افريقش بن قيس بن صيفي من ملوك التبابعة لما غزا المغرب وإفريقية، وقتل الملك جرجس، وبنى المدن

بالتسمية نفسها، والبعض الآخر متعلق بالمشترك اللغوي والثقافي، إضـــافة إلى نتـــائج الاكتشافات والحفريات الأثرية والأركيولوجية وما أضافته أخيرا الدراسات المتعلقـــة بالسلالات والجينات الوراثية في مجال ترجيح هذا الرأي أو ذاك.

يقول الباحث الطارقي محمد عبد اللطيف[1]: «إن قبائل الطوارق سمت نفسها (إمازغن) نسبة إلى جدهم (إمازيغ بن كنعان بن حام بن نوح).

ويستشهد البعض على ذلك بالحضور القوي للمكون الأمازيغي في الثقافـــة الاجتماعية السائدة لدى عموم الطوارق، وهو ما يدفع الكثير من دعاة الأمازيغية إلى اعتبار الطوارق رمزا متفردا لنقاوة وأصالة الثقافة الأمازيغية بتجلياتها المختلفة، وعـــن هذا التداخل بين المكونين الثقافيين الأمازيغي والطـــوارقي يقـــول مؤلـــف كتـــاب

والأمصار، وباسمه - زعموا - سميت إفريقية لما رأى هذا الجيل من الأعاجم، وسمع رطانتهم، ووعى اختلافها وتنوعها تعجب من ذلك، وقال: ما أكثر بربرتكم، فسموا بالبربر (تاريخ ابن خلدون: ج6، ص 89).

وأما أصل البربر وكما فصله ابن خلدون معتمدا على كبار نسابتهم كأبي أيوب، وهاني بن بكور الضريسي، وسابق بن سليم المطماطي، وكهلان بن أبي لوا.. فهو: "وأما شعوب هذا الجيل وبطونهم فإن علماء النسب متفقون على أنهم يجمعهم جذمان عظيمان، وهما: برنس ومادغيس، ويلقب بالأبتر، فلذلك يقال لشعوبه البتر، ويقال لشعوب برنس البرانس".

ويجمع أغلب نسابة البربر عدا أبي أيوب بن أبي يزيد الخارجي الإباضي الملقب بصاحب الحمار على أن برنس ومادغيس (الملقب بالأبتر) أخوان لأم فقط، فبرنس هو ابن سفحو بن ابزج بن جناح بن واليل بن شراط بن تام بن دويم بن دام بن مازيغ بن كنعان بن حام بن نوح عليه السلام. أما دغيس أو الأبتر: فهم عرب من ولد بر بن قيس بن عيلان.

وعلى هذا فالبربر البرانس حاميون، أي من نسل حام بن نوح عليه السلام، والبربر البتر ساميون، أي من نسل سام بن نوح عليه السلام. غير أن ابن حزم الظاهري نفى في كتابه: "جمهرة أنساب العرب" نفيا باتا أن يكون لقيس بن عيلان ولد يدعى بر.

وبالنسبة لـــ(مازيغ) فإن المصادر اليونانية واللاتينية تؤكد على أنه اسم قديم جدا، وكان معروفا منذ العهد الفينيقي، وورد بصيغ عديدة، منها: (MAZICES) أو "MOORS"، وسماهم هيرودوت "ماكسيس" (MAXYES).

وورد في دائرة المعارف للبستاني أن "الأمازيغ كانت تطلق على شعب قوى أقلق الرومان كثيرا بثوراته".

1) أورده محمد سعيد القشاط: التوارق عرب الصحراء الكبرى، مؤسسة ذي قار 1999، ص 341.

(إيكولوجية وثقافة الطوارق البدو) "إن غزوا للبربر البدو استعملت فيه الجمال قد بدأ في بدايات العصر المسيحي، وكان هذا الغزو لقبائل بربرية أمازيغية أخـــرى كانـــت تسكن الهكّار قبل ذلك التاريخ تسمى الآن بقبائل (إســـباتن) كانـــت المجموعـــات الأمازيغية التي تستعمل الجمال من النبلاء، وربما كانوا هم الذين أدخلوا الجمـــال إلى هذه المنطقة من الصحراء الكبرى، وأن غزوهم لبلاد الهكّار أعطى لنا ما يـــسمى الآن بالتقسيم الطبقي للمجتمع الطارقي: طوارق نبلاء، وطوراق حلفاء"[1].

أما بوفيل (E.W.BOVILL)[2] فيعتقد بأن "أغلبية الجماعة البربرية الـــتي تعيش في الصحراء الكبرى تتألف من الطوارق".

ويحاول هذا الفريق تدعيم وجهة نظره تلك علميا انطلاقـــا مـــن الأبحـــاث والاكتشافات الأركيولوجية والأثرية التي تمت في الآونة الأخيرة، حيث اكتشف عالم الآثار الفرنسي (ألوت) كتابات ورسوم بلغة الطوارق وحروفها التيفناغ منقوشة على صخور (التاسيلي) الجزائرية يعود عمر البعض منها إلى ثمانية آلاف سنة قبل المـــيلاد، وظهر في بعضها رجال ملثمون، وهو ما يؤكد بنظرهم أولية الوجـــود الطـــوارقي – الأمازيغي على الوجود العربي بالمنطقة الذي ترجعه أبعد التقديرات إلى الألف الثـــاني قبل الميلاد (غزو إفريقش بن صيفي للشمال الإفريقي).

كما ظهر في بعض تلك الرسومات جمال وخيول تجر عربات، وهو ما يدعم رأي (يوحنا نيكولاس) - الذي مرَّ بنا قبل قليل- حول غزوات البدو مـــن البربـــر للمنطقة، وقد كان لاكتشاف مدينة أثرية مغربية تدعى "ارغـــيلاس" خـــلال العـــام 2004 صدى في أوساط دعاة القومية الأمازيغية، إذ وجد أن عمرها يعود إلى حوالي 15000 سنة ق. م. وهو يدعم أسبقية الوجود الأمازيغي علـــى الوجـــود العـــربي واتصاله بالطوارق بحسب وجهة النظر تلك التي تعززت أيضا باكتـــشاف بـــاحثين أوروبيين في العام 2007 لجوهرات حجرية ملونة بمادة نباتية قرب مدينـــة بركـــان

---

1) جامي عبد القادر، من طرابلس الغرب إلى الصحراء الكبرى، دار المصراتي، ص 162ــ نقلا عن الألوسي (مرجع سبق ذكره)، ومؤلف كتاب إيكولوجية وثقافة البربر هو الباحث: يوحنا نيكولاس.

2) بوفيل: تجارة الذهب وسكان المغرب الكبير، نقلا عن الألوسي، ص 64 (مرجع سبق ذكره).

(مغارة زكزل) المغربية، وقدر فريق البحث عمر المستويات الأركيولوجية للمستحثات التي وُجدت فيها هذه الجوهرات بـــ82000 سنة، وهو اكتشاف غير الكـــثير مـــن التصورات السابقة، وخاصة فيما يتعلق ببداية الوجود البشري على الأرض بـــصورة عامة واحتمالية كون إفريقيا هي المهد الأول لهذا الوجود كما قال البحاثة (اسبنسر)، وقد رشحها لذلك مناخها المثالي من أمطار وغطاء نباتي ودرجة حرارة معتدلة علـــى عكس أوروبا التي كانت مغطاة بالجليد بشكل شبه كامل في حقب ماضية من عصر ما قبل التاريخ.

وقد عول دعاة تمزيغ الطوارق (جعلـــهم أمـــازيغ) علـــى علـــم الجينـــات والسلالات، وهو علم حديث النشأة نسبيا حيث تمكن الخريطة الجينية من تحديد هوية الشخص وانتمائه السلالي بعد فحص الحمض النووي الخاص به، فهو يعد بمثابة بطاقة تعريف غير قابلة للتزوير أو التزييف، فلكل شخص بصمته الوراثية الخاصة (D N A) إلى جانب السمات والخصائص العامة التي قد يشترك فيها مع بني جلدته وأرومته.

وفي هذا السياق قام أكاديميون جلهم من الفرنسيين بإجراء دراســـات علـــى عينات جينية لعدد كبير من سكان الشمال الإفريقي شملت أمازيغ وطوارق وعربـــا، حيث كشفت تلك الدراسة وجود جين مميز للبربر الأمازيغ ومـــا في نطـــاقهم مـــن طوارق، وهو E-M81 ذو التسلسل: E1b1b1b، وذلك بنسبة تراوحت مـــا بين: 60% إلى: 80%، وتصل أحيانا ترددالها إلى: 100% لدى المجموعات القبلية المعزولة من الجمهور محل الدراسة، وعُدَّ هذا الجين مميزا للبربر النـــاطقين بالأمازيغيـــة بحكم ندرة وجوده خارج نطاقهم الجغرافي.

ومن الاستنتاجات التي خرجت بها هذه الدراسة أن الجد الجـــامع للأمـــازيغ عاش في الألف السادسة قبل الميلاد (حوالي 5600 ق. م).

ولدى مقارنة نتائج هذه الدراسة فيما يتعلق بالجين المميز للأمازيغ بدراسات أخرى أجريت في مناطق يغلب على ساكنتها المكون العربي: لوحظ وجـــود تبـــاين

ملحوظ بين الجينين المميزين لكل من العرب والأمازيغ[1]، وهو ما يؤكـــد في نظـــر أنصار النسب الحامي للأمازيغ والطوارق ما سبق وأن قرره ابن خلدون في تاريخه من أن العرب والبربر ينحدران من جذمين مختلفين، ومن المفارقات التي كـــشفتها تلـــك الدراسة أن 62% من طوارق النيجر -على سبيل المثال- لا يختلفون في جيناتهم عن باقي السكان[2]، فيما لا تتعدى نسبة الذين يحملون الجين السابق المميـــز لهـــم مـــع الأمازيغ: 9% فقط منهم.

ويبدو أن محاولات الكونغرس الأمازيغي العالمي وغيره من الواجهات التنظيمية المدنية لتيار الموجة الأمازيغية لتجيير الطوارق وتقريبهم لا تحظى بقـــدر كـــبير مـــن الإجماع لدى هؤلاء، بدليل صدور بيان موقع باسم السلطان والنائب السابق بالبرلمان المالي "بجان أگ هماتو"، وذلك نيابة عن شيوخ وزعماء وسلاطين قبائل الطـــوارق في مالي[3]، حيث أوضح البيان المذكور بأن ما أسماه "بـــافتراءات الكـــونغرس العـــالمي الأمازيغي قد وصلت ذروتها، وعليه فإن علماء وشيوخ وسلاطين الطوارق يستنكرون ويدينون تلك الافتراءات التي يفبركها المسمى إبراهيم بلحسن"[4]، وأضاف البيـــان: "نؤكد للكونغرس الأمازيغي وللعالم بأن الطوارق قبائل مسلمة، لها جـــذور عربيـــة، وعلاقة بالعرب واللغة العربية، وهذا هو الصحيح الذي يشهد به التاريخ والواقـــع"، وهذا البيان وقبله بيانات وتصريحات لهذا الطرف أو ذاك يعكس جانبا مـــن الجـــدل الفكري والإيديولوجي والتجاذبات القائمة التي تعدت في مداها الانتلجنسيا المتصدرة داخل الطوارق أنفسهم لتشمل النخب المؤدلجة من دعاة القوميتين العربية والأمازيغية إلى جانب الإسلاميين الذين دخلوا على خط المواجهة في الآونة الأخيرة.

---

1) الجين المميز للعرب بحسب الدراسة التي أجريت بالشمال الإفريقي هو: 1C3d.

2) الجين الأكثر شيوعا بين السكان الأفارقة هو: E-M35.

3) نشرت البيان بمجلة "الوعي العربي" وهو موقع بتاريخ: 2007/10/10م.

4) هو إبراهيم بن الحسين أو تالات رئيس الكونغرس العالمي الأمازيغي.

3) الطوارق هم أحفاد الكرامانت أو الجرمنت:

يعتقد بعض المؤرخين أن الطوارق هم أحفاد الجرمنت الذين عاشوا بسهول فزان[1]، وقد تحدث عنهم لأول مرة هيرودت، ووصف حضارتهم بالعظيمة حين زار ليبيا خلال القرن الخامس قبل الميلاد، ومرَّ بفزان ووصف تربتها بأنها عبارة عن روابي من الملح تكسوها الينابيع وأشجار النخيل المثمرة، وقال أنهم كانوا يزرعون التربة الخصبة ويستنبتونها فوق روابي الملح، ولفت انتباهه شكل قرون ثيرانهم وعربات خيولهم ذات العجلات الأربعة، والتي يستخدمونها لمطاردة سكان الكهوف، حيث اتسموا بالمهارة البالغة في العَدْوِ.

وقد شاد هؤلاء الكرمنت الذين يطلِق عليهم بعضُ المؤرخين أحيانا اسم الليبيين حضارة قوية سيطرت على الطرق التجارية الصحراوية، وكانت عاصمتها تسمى جرمه، وممن تحدث عنهم كذلك من قدامى المؤرخين (بليني) حين وصف احتلال الرومان للمستوطنات الفينيقية على شاطئ المتوسط، واحتدام الصراع بينهم وبين الجرمنت، والذي وصل ذروته عام 62 قبل الميلاد عندما أرسل (بالبوس الأكبر)[2] الروماني حملة ضخمة لإخضاع بلادهم دون نجاح كبير، غير أن هزيمتهم الكبيرة جاءت بعد ذلك بقرون على يد (البرو قنصل كور نيليوس بالبوس الأصغر) في السنة التاسعة عشر قبل الميلاد، ثم سلموا بالهزيمة النهائية أمام قائد الفرقة الإفريقية الروماني (فاليريوس) سنة 69م.

وقد اختلف في أصول الجرمنت كما يقول الباحث والمؤلف الليبي إبراهيم الكوني[3] بين من يرى أنهم من أصول أوروبية ومن يقول بعروبتهم.

---

1) فزان: هي في الوقت الحالي محافظة ليبية (شعبية)، من القرن 5 ق. م. وحتى القرن 5 بعده، كانت فزان وسهولها محط حضارة الجرمنت القوية التي اتخذت من جرمه عاصمة لها، وقد أحكم الإيطاليون السيطرة عليها في الفترة ما بين: "1911 إلى 1923"، وعاصمتها حاليا هي سبها.

2) بالبوس الأكبر تمييزا له عن القائد الآخر الذي جاء بعده وهو بالبوس الأصغر.

3) إبراهيم الكوني روائي ليبي، من أصول طوارقية، ولد بغدامس سنة 1948م، وحصد العديد من الجوائز التكريمية.

وقد شكك مؤرخون آخرون[1] في نسبة الطوارق إلى الجرمنت، وساقوا على ذلك أدلة منها أن الجرمنت حسب المؤرخين القدامى كهيرودوت هم من ذوي البشرة السوداء، أما الطوارق فهم بيض، ومنها أنهم لم يؤثر عنهم ارتداء اللثام، ثم إن الشعوب التي شاركت مباشرة في تكوين الطوارق لم تسكن فزان، وهي قبائل (امسوفنْ وإزناكنْ..)

ولعل العلاقة الوحيدة نشأت بسبب التسمية الثانية لفزان، وهي (تاركه) التي صارت فيما بعد تسمية فرقة صنهاجة الملثمين. ويعلل الباحث الأوروبي (ويلارد جيمس) انزياح أحفاد القرمنت خارج مجالهم الطبيعي بأن العرب (من الفاتحين وغيرهم) عند دخولهم الصحراء في القرنين السابع والحادي عشر الميلاديين قد دفعوا بأحفاد أقوام القرمنت الذين سادوا الصحراء الكبرى في أيام اليونان والرومان جنوبا في بطون الصحراء، وهؤلاء الأحفاد هم أجداد ما يعرفون الآن بالطوارق، مع أن تاريخ مجيئهم إلى الصحراء ما يزال يعتبر سؤالا لا جواب عليه"[2].

4) الطوارق هم الطوارق:

وهناك اتجاه رابع جسدته كتابات وأصوات من داخل أبناء الطوارق أنفسهم يشدد على خصوصية واستقلالية الانتماء العرقي والثقافي للطوارق بعيدا عن التجاذبات الإيديولوجية بين دعاة القوميتين العربية والأمازيغية، والتي تحاول تجييرهم لصالح هذا الطرف أو ذاك على حساب انتمائهم الهوياتي.

ويرى هذا الاتجاه أن الثابت الوحيد الذي يمكن التعويل عليه وفي ضوء استحالة الحسم العلمي في المسائل الانتروبولوجية هو انتماء الطوارق إلى الأمة الإسلامية وفضائها الثقافي والحضاري، وهو الإطار المرجعي الذي أسهم الطوارق جنبا إلى جنب مع إخوانهم من أبناء العرب والبربر والزنوج في بناء نسقه المعرفي والمادي، حيث يشكل الإسلام إلى جانب المكونين البربري الأمازيغي والعربي أهم

1) انظر احماه الله ولد السالم: تاريخ السودان، مرجع سبق ذكره، ص 77.

2) ويلارد جيمس: الصحراء الكبرى، ص 169، مكتبة الفرجاني، الطوارق للألوسي.

الأطياف الملونة للهوية الطارقية، و لم يشعر الطوارق أن هناك تنافرا أو تناقضا جوهريا بين المكونين، يقول الكاتب والمثقف الطارقي البارز عمر الأنصاري: «ولا نعرف بهذه المناسبة أن الطوارق في الصحراء سجلوا مفخرة أو بطولة من دون مشاركة العـرب لهم، وتنقل إلينا المصادر ذلك الاختلاط العجيب الذي حدث بين الاثنين إلى درجة أن بعض العرب تحولوا عن أنسابهم إلى لسان الطوارق لطول الجـوار، وتحـول بعـض الطوارق البربر إلى لسان العرب بالكيفية نفسها، حتى تخيلوا أنفسهم عربا في الأصل».

وأضاف بأن الشعب الطارقي هو "شعب مسلم من أصل سـامي، احـتفظ بهويته الحضارية الأصيلة، ولغته الوطنية الخاصة به، وحروفها تسمى التيغناغ، وهـي تجعله أحد الشعوب الإفريقية النادرة، التي تملك أبجدية نظيفة، يرجع وجودها إلى ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد تقريبا، كما تشهد على ذلك الكتابات والنقـوش الـتي تمثـل الصحراء وإفريقيا الشمالية"[1].

وهذا التفاعل والانصهار بين العرب والبربر الأمازيغ إضافة إلى الطوارق الذي أشار إليه الأنصاري سبق وأن نوَّه به عبيدة بين قـيس العقيلـي[2] في القـرن الأول الهجري شعرا عندما أنشد:

ألا أيهـا الـساعي لفرقـة بيننـا توقـف هـداك الله سـبل الأطايـب

فأقـسم أنـا والبرابـر إخـوة نمانـا وهـم جـد كـريم المناصـب

أبونا أبوهم قـيس عـيلان في الـذرا وفي حَرَمـه يُـشفى غليـلُ المحـارب

فنحن وهـم ركـن منيـع وإخـوة علـى رغـم أعـداء لئـام المعاقـب

---

1) عمر الأنصاري: الرجال الزرق، الأسطورة والواقع، مقال منشور على الشبكة العنكبوتية.

2) من أعلام التابعين، تذكر السير تأمره على بعض السرايا في خلافة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، وقد انتدبه مروان بن الحكم لصحبة ابنيه الوليد وسليمان حين أخذ لهما البيعة بولاية العهد بعد وفاة أخيه عبد العزيز بن مروان الذي كان ولي عهده.

فإنا لـــبر مـــا بقـــي النـــاس ناصـــرا وبـــر لنـــا ركـــن منيـــع المناكـــب

نعـــد لمـــن عـــادى شـــواذه ضـــمرا وبيضا تقـــط الهـــام يـــوم التـــضارب

وبـــر بـــن قـــيس عـــصبة مـــضرية وفي الفرع مـــن أحـــسابها والـــذوائب

5) "تنهينان" أمُّ الطوارق وملكتُهم العظيمة:

وعدّى ما ذكرناه سابقا عن أصول الطوارق وما أثير حولهـــا مـــن جـــدل وافتراضات، يَعتقد العديد من الطوارق أنهم ينحدرون من جدة عظيمة بَنَـــت دولـــة قوية، وتركت مجدا مؤثلا، لا تزال شواهده شاخصة في جبال الهقار وكهوف "أبالسا" بشمال الجزائر حاليا.

وعلى عكس أغلبية الشعوب الشرقية يعتز الطوارق بالانتـــساب لأمهـــاتهم، حيث يصبح الثدي في نظرهم هو موئل البطولة والسؤدد، لا ما يورثه الأب لابنه.

تعود القصة إلى عشرينيات القرن الماضي عند ما تمكنت بعثة فرنسية أمريكية مشتركة من تحقيق كشف أثري هام خلال العام 1925م، بعد حفريات أثرية أجرتها في واحة "أبالسا" بمنطقة الهقار التي تبعد: 100كلم^2 غرب مدينة "تمنراست"[1] لتضع بذلك الكشف الهام حدا نهائيا لسيل جارف من التخمينات والتكهنات حول حقيقة ما اعتبره البعض وحتى حينه مجرد أسطورة أمازيغية أقرب إلى "الميثيا" منها إلى الحقيقة

1) مدينة جزائرية: هي عاصمة الهقار، تقع على مسافة 1900 كلم جنوب الجزائر العاصمة، وعلى ارتفاع يصل إلى 1380م عن مستوى سطح البحر، يبلغ عدد سكانها حوالي 80 ألف نسمة، وهي عاصمة ولاية تمنراست كذلك، توجد بها أعلى قمة جبلية بالجزائر، واسمها: (اتاهات اتاكور)، وهي أكبر ولايات الجزائر من حيث المساحة، تقع على الحدود المالية – النيجيرية، وهي إحدى معاقل الطوارق الرئيسية بالجزائر.

التاريخية أو الانتروبولوجية الثابتة؛ تمثل ذلك الكشف في العثور على موقع دفن الملكة "تنهينان أوتي - تون - حنات" بحسب مصادر أخرى، حيث ترقد مومياؤها محاطة بحليها الذهبية والفضية ولباسها الجلدي المميز، وقد مكنت التحاليل المخبرية التي أجريت عليها لاحقا من قبل الباحثة الفرنسية "ماري كلار شاملا"[1] من الوقوف على عديد الأسرار الخاصة بتلك الملكة الأسطورية، لعل من أهمها عرجها، وهو ما يؤكد الخبر الذي ساقه ابن خلدون قبل قرون من ذلك الكشف في "ديوان العبر" عند حديثه عن تاريخ البربر وممالكهم، ووجود امرأة عرجاء قوية الشكيمة هي سلف لكل الرجال الملثمين (يعني الطوارق)، كما أكدت الاختبارات الخاصة بعنصر النتروجين أن هيكلها العظمي يعود إلى القرن الخامس الميلادي"[2]، وهي الفترة ذاتها التي يؤكد مؤرخو الصحراء وصول "تنهينان" رفقة خادمتها أو أختها (حسب بعض قبائل الطوارق من الحلفاء) "تاكاما" أو "تاكامات" إلى واحة "أبالسا" قادمتين من "تافيلالت" جنوب المغرب الأقصى[3]، وقصة هذا المجيء وما أعقبه من أحداث شكلت علامة فارقة في تاريخ ذلك الشعب حين تحولت تلك الملكة إلى رمز أسطوري أشبه بالأيقونة جسد وحدة الطوارق، بل والأمازيغ بصورة عامة، ومدى قدرتهم على صناعة التاريخ، وديمومة التجدد الحضاري، وبعث الأمجاد الغابرة، يقول عنها الكاتب والباحث الجزائري مراد الطرابلسي[4]: "تنهينان هي ملكة قبائل الطوارق، وقد حكمت في القرن الخامس الميلادي، وإليها يستند الطوارق في تنظيمهم الاجتماعي

---

1) همام هاشم الألوسي، ص 39، مصدر سبق ذكره.

2) هناك من يرى أن حكمها أقدم من ذلك بكثير، حيث ربط علماء الآثار الذين عثروا على مومياء (تنهينان)، تلك الحفريات بعصر (الأطلنتيديين) الذي يعود إلى حوالي: 8000 – 9000 سنة قبل الميلاد.

3) تافيلالت عرفت في القديم بسجلماسة، وقد ازدهرت منذ قدوم الشرفاء العلويين إليها في أواخر القرن 7هـ، فكانت مهدا لدولتهم التي أمدت المغرب بذخيرة فريدة من العلماء والسلاطين الصالحين إلى ذلك كانت نقطة وصل تجاري هام، وهي في عمق الصحراء بين أوروبا وإفريقيا.

تقوم اليوم شامخة على مقربة من أطلال سجلماسة وخرائبها، وتشتهر بإنتاج أجاويد التمور المغربية.

4) مجلة البيان، العدد 179 إبريل 2007، مصدر سبق ذكره.

الذي يستمد السلطة حتى الآن من حكم المرأة، وتقول الروايات التاريخية بأن اسم "تنهينان" مركب من جزئين (تين – هينان)، وهي لفظ من لهجة "التماهاك" القديمة، وتعني بالعربية (ناصبة الخيام)، لذلك رجح المؤرخون أن تكون كثيرة السفر والترحال، وهي حسب تلك الروايات سيدة ممشوقة القد، كانت حكيمة وقائدة بارزة، ولها قدرة سحرية على التأثير فيمن تخاطبه، قدمت ذات زمن من منطقة "تافيلالت" الواقعة بجنوب المغرب الأقصى حاليا برفقة خادمتها "تاكامات" وعدد من العبيد لتستقر بقافلتها الصغيرة في منطقة الأهقار[1] الجبلية على نحو 2000 كلم جنوب العاصمة الجزائرية بعد رحلة متعبة وشاقة، مليئة بالمخاطر[2].

والأهقار كان يسكنها قوم "الاسباتن" المعروفون بخشونة طبعهم، وخصوصية لبساهم المشكل من جلود الحيوانات، وبعبادتهم للأوثان، كما عرفوا بالتحدث بلغة جد قديمة، وتكتب بحروف تسمى "التيفناغ" تعبر عن أصولهم المنحدرة من "سيرونيك" بليبيا، وتمكنت بحكمتها وخبرتها، وأيضا بأخلاقها النبيلة من كسب ود هؤلاء السكان حتى اعتمدوا نهجها في الحياة، واعتمدت هي تقاليدهم، فحدث العناق بين عبقرية المرأة وشجاعة أهل البلد، وشيدت مملكة كبيرة مزدهرة، وكانت مناطق واسعة من الصحراء أراضي خصبة تتخللها جداول وأودية يتدفق منها الماء على مدار السنة، وتمتد بها مساحات كبيرة من المروج دائمة الخضرة ترعى فيها الحيوانات

---

1) أورد ابن خلدون في ديوان العبر بأن هقار هو ابن الملكة تنهينان، وقد أطلق اسمه على تلك المنطقة، وأنه كان أول من غطي وجهه من الطوارق، فتبعه قومه اقتداء به، وظلوا على ذلك الحال إلى اليوم، وسنعود لموضوع اللثام عند الطوارق بتفصيل أكبر.

2) يعتقد الكثير من الطوارق أن ملكتهم رائعة الجمال، حيث وظفته – كما يزعم البعض – إلى جانب جاذبية شخصيتها لتسيطر سياسيا على منطقة نفوذ واسعة، مما بوأها المكانة الخاصة التي احتلتها في قلوب شعب الأهقار، وهو ما يفسر أيضا جزءا كبيرا من التقاليد المتعلقة بانتقال صفات النبل عن طريق النساء في المجتمع الطارقي إلى حد أن الأطفال في العائلات النبيلة ينسبون لأمهاتهم، وليس لآبائهم كما هو الشأن في المجتمعات الإنسانية الأخرى، وهي خصوصية يكاد ينفرد بها شعب الطوارق كمجتمع أميسي على عكس المجتمعات الأبوية الذكورية السائدة حول العالم.

المختلفة، وتدل على ذلك النقوش الموجودة على الصخور وداخل الكهوف، وينسب أبناؤها إلى السلف الأميسي، أي قبائل الطوارق النبيلة.

لا تورد المصادر التاريخية أخبارا موثوقة عن نسب تلك الملكة أو أصولها العرقية عدا حكمها وانصهارها في قبال "الأمزاد" التي تؤكد عديد المراجع انحدار جميع فروع قبائل الطوارق منها على اختلاف تشكيلاتها الموزعة حاليا بين مالي والنيجر وليبيا وموريتانيا.

المبحث الخامس

التاريخ السياسي للطوارق: إرادة العيش المشترك

ليست (تنهينان) ومملكتها العظيمة ونفوذها الطاغي هي كل ما يفخر به الطوارق من مجد تاريخي، وإنما يعتزون كذلك بانتمائهم القومي للإمبراطورية الأمازيغية (آكلي نومازيغ)[1] التي أقامتها قبيلة (إثْ أزْرو)[2]، ويصادف يوم تأسيس تلك الإمبراطورية بحسب التقويم الأمازيغي 13 يناير من كل عام، وهو أيضا تاريخ انتصار القائد الأمازيغي الشهير "شِشناق" على الفراعنة.

ثم انتشر الإسلام بالشمال الإفريقي، فتصدر الطوارق في حمله إلى جانب جيرانهم من أبناء المنطقة، وتجلى ذلك بقوة إبان قيام الدولة المرابطية التي كانت لهم المكانة المرموقة في صفوف قيادتها العليا بمستوياتها المختلفة الروحية والسياسية...

وعدا ذلك لم يعرفوا قيام كيان سياسي موحد يرقى إلى مستوى الدولة المستقلة التي تتمتع بمقومات البقاء والاستمرارية وسط محيط سياسي يموج بالتقلبات والتغيرات، وإن تمتعت بعض الحواضر الطارقية والكيانات القبلية المسماة "بالسلطنات" بحكم ذاتي مستقل تخللته صراعات وحروب مع أبناء الجيران من ممالك السودان التي ظلت لها اليد الطولى بالمنطقة حتى مجيء الاستعمار الفرنسي الغاشم.

وفيما يلي سنستعرض التاريخ السياسي لأهم تلك الحواضر والسلطنات:

---

1) "آكلي نومازيغ": وتعني الرجال الأحرار.

2) "اث ازرو": تعني أهل الصخر.

أولا: حاضرة (تاد مكة) والمجد الغابر:

تعني "تاد" في لغة الطوارق (هذه)، أي (هذه مكة)، كما عرفت لاحقا بمدينة السوق، وفي أصل تسميتها بمكة يقول الحميري[1]: "وتاد مكه أشبه بلاد الدنيا بمكة، وهي مدينة كبيرة بين جبال وشعاب، وهي أحسن بناء من مدينة غانه ومدينة كَاو...".

وقد تأسست تاد مكه في مطلع القرن الأول الهجري[2]، وبقيت مركز إشعاع علمي ونفوذ سياسي وتجاري لما ينيف على ألف عام، وقد وصفها ابن عذاري[3] بقوله: "من أهم الممالك في غربي إفريقيا خلال القرن الثامن إلى العاشر".

وقد اشتهرت كمركز حضاري وعلمي واقتصادي، ذلك أنها كانت ملتقى للحضارات القادمة من شواطئ البحر الأبيض المتوسط ومن سواحل غرب إفريقيا، وشكلت همزة وصل بين الشمال الإفريقي وجنوب الصحراء يؤكد ذلك حقيقة كون جميع المؤثرات العلمية والدينية والتجارية تأتي من الشمال إلى الجنوب"[4].

وقد تعاظم نفوذها السياسي حتى ضارعت الممالك المجاورة، وظلت ممتنعة على غزوات الأعداء بفضل تماسك نظامها القبلي الذي تقوده قبيلة "كل سوك" الطارقية، أو "كل السوق" إضافة إلى استحكاماتها العسكرية القوية بفضل السلسلتين الجبليتين المحيطتين بها مما يمكن من مراقبة القادمين إلى المدينة من مسافة تتجاوز الكيلوميترات.

---

1) ذكره محمد بن عبد المنعم الحميري (ت: 900هـ) في كتابه: "الروض المعطار في خبر الأقطار"، نقلا عن عبد الله بن عبد العزيز الأندلسي المعروف بأبي عبيد البكري في كتابه: "المسالك والممالك".

2) تقع أطلال تادمكه حاليا على بعد حوالي ثمانين كيلو مترا من مدينة كيدال الطارقية.

3) أبو عبد الله أحمد بن محمد المراكشي المشهور بابن عذاري (ت: 695هـ)، ذكر ذلك في مؤلفه: "البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب".

4) الألوسي: ص 110، مرجع سبق ذكره.

وهو النفوذ الذي يؤكده العمري بقوله[1]: "المملكة الخامسة من بلاد المغرب جبال البربر في جنوب الغرب بين مملكة بر العدوة وبين بلاد مالي وما معها من بـــلاد السودان ثلاثة ملوك من البربر بيض مسلمون، وهم سلطان آيير وســـلطان دموســـة وسلطان تاد مكة، كل واحد منهم ملك مستقل بنفسه لا يحكم أحد منـــهم علـــى الآخر.." ثم ذكر أن ما بأيدي الثلاثة تقدير نصف ما لملك مالي أو أرجح بقليل.

وقد قامت علاقة ودية للغاية بين الحركة المرابطية بقيادة ابن ياسين وبين مملكة تادْمَكه، حيث أشار ابن عذاري إلى أن أهل تاد مكه كانوا ممن أعان عبـــد الله بـــن ياسين على نشر السنة وإخماد البدعة في أوطانهم.

ويذهب المؤرخ الطارقي موسى الإدريسي إلى أبعد من ذلك عندما يقول[2]: "ويتواتر في الروايات التاريخية الأهلية أن حركة الإصلاح التوحيدية المرابطية كانت قد تأسست بهذه المنطقة تحت رعاية الأمير إبراهيم آق يحيى الكيدالي والزعامة الروحيـــة للعلامة عبد الله وانين الجزولي، ومنذ الفتح الإسلامي كانت المنطقة تحت سلطة الأمراء الوراثيين والمنتخبين من الاتحاد القبلي المحليين أو ضمن الممالك أو الدول التي كانـــت تتحالف معها محافظة مع ذلك على استقلالها الذاتي، ومن هؤلاء الأمراء كان يتوجب أن يختار المنتخب أو المعني من ضمن المؤهلين علميا وفكريا وحنكة عسكرية وسياسية حسب تقاليد نظام التولية المعروف في الدولة المرابطية، وهو تقليد ما زال ســـاريا إلى اليوم".

وبعد مرحلة النمو والازدهار لأزيد من ألف عام أخذت أحوال تاد مكـــه في التدلي والتدهور، كما يقول ابن عذاري: "وبعدها تضاءل صداها، وأخذت في مرحلة الشيخوخة والبلى ليختفي شخصها، ويبقى اسمها ساطعا وشائعا في نخب أهل العلم".

وجاء خراب المدينة في القرن العاشر الهجري الموافق للقرن الـــسادس عـــشر الميلادي جراء عوامل طبيعية واقتصادية بحتة، منها: توالي سنوات الجفاف والجـــدب

---

1) أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري (ت: 749هـ)، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ص 81، طبعة مركز زايد للتراث.

2) حكاه عنه الألوسي، ص 112، مرجع سابق.

ونضوب معدن الذهب الذي كان يعتبر الغلة الرئيسية للقوافل التجارية، يقول مؤرخ المنطقة الشيخ سعد الدين السوقي في موسوعة له حول المملكة: "والأقرب إلى الصحة أن المدينة ما خربها أحد، وأن مغادرة الناس لها إنما كانت لجفاف موضعها من الصحراء وكثرة جدبه، وانقطاع التجار وجميع المرافق عنها، وقلة الذهب عندهم الذي يؤتى إليهم لأجله"[1].

ثانيا: تينبكتو، جوهرة الصحراء المنسية:

نشأت كما يقول عبد الرحمن السعدي "على أيدي توارق مَقَشْرنْ في أواخر القرن الخامس من الهجرة"[2] حوالي 1080م.

ولتلك النشأة قصة تتواتر المراجع التاريخية على سردها، وهي أن الطوارق كانوا ينتشرون منتجعين في صحرائهم الواسعة في مواسم الأمطار والخصب، ثم يعودون في فترات الجفاف إلى المناطق الخصبة حول عقفة نهر النيجر، حيث اختاروا موقع المدينة لمناسبته لتخزين مؤنهم واحتياطاتهم الغذائية، وتعود التسمية إلى عجوز كانت تسكن ذلك الموقع من قبيلة مقشرن الطارقية اسمها "بكتو"، وبها سمي المكان، حيث تعني كلمة "تين" الطارقية "مكان" بالعربية ومع مرور الوقت أخذ الناس كما يقول السعدي "يسكنون فيه، ويزداد بقدرة الله تعالى وإرادته في العمارة، ويأتيه الناس من كل جهة ومكان حتى صار سوقا للتجارة، وأكثر الناس إليه ورودا للتوسق أهل وغد[3]، ثم أهل تلك الجهة كلها وكان التسوق قبل في بلد بير"[4]، ووصل ذلك أوجه في بداية القرن الرابع عشر الميلادي، حيث انتزعت تينبكتو وبكل جدارة مكانة

---

1) الألوسي (مرجع سابق)، ويذكر البعض أن خراب المدينة كان على يد أحد سلاطين السونغاي (سوني البسير) الذي خرب المدينة، فجلى عنها أهلها، غير أن الأرجح هو ما حكاه السوقي آنفا.

2) تاريخ السودان: ص 127، مرجع سبق ذكره.

3) وغد: عاصمة مملكة غانا، وتقع في الشمال الغربي المالي.

4) بيرُ: وهو اسم ولاته بلغة الزنوج.

مدن كبيرة في ذلك العصر مثل ولاتة في موريتانيا و"برنو" في غانه اللتين كانتا من أهم أسواق التجارة في الغرب الإفريقي آنذاك.

"وقد بدأت تينبكتو بلفت الأنظار إليها كمركز إشعاع علمي بعد رجـــوع (ملك المندينكـــا) (منسا موسى) من رحلة حجه الشهيرة التي قام بها عام 1325م، ووزع في طريقه إلى الحج كميات هائلة من سبائك الذهب، خاصة في القاهرة، ممـــا تسبب في هبوط أسعار الذهب، وقد أمر السلطان الشاعر الغرناطي الملقب بالسهيلي بتصميم جامعها الكبير.. كانت أكثر البضائع الرائجة بتينبكتو في ذلك العـــصر مـــن أفخر بضائع الدنيا، فكان التجار يقايضون فيها الحرير والتوابـــل والنحـــاس الأحمـــر ببضائع مملكة مالي الفاخرة التي اشتهر سلاطينها بملوك الذهب، حيث كانت تينبكتو من أكثر مدن إفريقيا التي تصدر الألماس والذهب والعاج وريش النعام، إضافة إلى ملح صحراء أزواد الذي اشتهرت قوافله واستمرت حتى عصرنا هـــذا، وكانـــت مثـــار إعجاب الأوروبيين الذين أخرجوا تصويرا عن رحلة (أزلاي) شمال تينبكتـــو أجمـــل الأفلام، وهي من أعجب الرحلات، حيث كان تجار الملح ينطلقون من تينبكتـــو في قوافل تضم عادة أكثر من 300 جمل أصيل، يقطعون مـــسافة شـــهر في الـــذهاب والإياب في صحراء أزواد الملتهبة التي لا ماء ولا عشب ولا ظل فيها، عائدين بألواح الملح الصخري البلوري من تاودني"[1].

وممن زار تينبكتو ابن بطوطة الذي وصف سكانها بأنهم "من صنهاجة الملثمين، وأن مسوفة سيدة القبائل فيها". كما زارها حسن الوزان (ليون الإفريقـــي) في أوج ازدهارها في أوائل القرن السادس عشر، وقال عنها: "إنها هي المنطقة التي تفجرت فيها صبابته، حيث أعرس بها، وكانت له بها منادمات لم ينسه إياها بلاط بابا روما -الذي أصبح أحد أفراد حاشيته- ولا رحلاته إلى الأستانة أو القاهرة، فكمـــا يقـــول: إن الوصول إلى تينبكتو هو سر أسرارها، فقد كانت ملتقى القوافل الذي يـــربط أهـــل

[1] د/ احماه الله ولد السالم، تاريخ السودان، ص 124 وما بعدها.

إفريقيا غربا وشرقا، وكان الوصول بحد ذاته يعني نوعا من المغامرة، حيث لا يربطها بأي من عواصم التجارة المشهورة أية محطات لمن يؤمها".

وأول من حكم المدينة سياسيا هي مملكة مالي، ودام حكمها للمدينة لما يناهز المائة عام ابتداء من 737هـ، ثم خلفهم طوارق (مغشرنْ) في الفترة ما بين: 837هـ إلى: 876هـ، الموافق: 1471م لمدة أربعين عاما، وكان أول ملوكهم (أوسنب) بن محمد بن اليم بن أكلنقي.

ثم احتلتها إمبراطورية السونغاي ومنحها السلطان أسكيا محمد حكما ذاتيا قبل أن تتعرض للاحتلال مجددا على يد السعديين في 30 مايو 1591م، حيث نكل بعلمائها قتلا وأسرا، وكان من جملة الأسرى العلامة أحمد بابا التينبكتي ليعود إليها الحكم الذاتي مجددا مرة أخرى في 1737م، قبل أن تسقط مجددا تحت سيطرة ماسينا 1826م، ثم احتلها الحاج عمر تال 1865م حتى دخول الفرنسيين واحتلالهم لها على يد القائد "جوفر" 1894م.

ثالثا: السلطنات[1]

وهي كيانات جغرافية وبشرية مستقلة، حيث جرى تقطيعها وفق أسس ومعايير قبلية إلى جانب مراعاة العامل الجغرافي والطبيعي، وكثيرا ما تغلب على بعضها عناصر قبلية بعينها من المكونات العرقية المنتشرة بالإقليم من الطوارق وغيرهم . وهذه السلطنات هي:

1. **سلطنة (واللّميدنْ كل اطرام)**: وكلمة "واللميدن" الطارقية تعني (أهل الغرب): تحتل هذه السلطنة منطقة أزواد الغربي ومنحنى نهر النيجر، ومن أهم قبائلها: كلَ إهارًا كل اترام، كل انتصر، إداو إسحاق.
2. **سلطنة (كَل إقرس)**: وتحتل المنطقة المعروفة بـ(آضر) الواقعة جنوب أزواد الأوسط، وهي منطقة جبلية تشعبت منها مجموعة من الوديان الصغيرة، ومركز

---

1) اعتمدنا في هذا المحور على ما كتبه بخصوص الموضوع كل من هاشم الألوسي في كتابه الطوارق، والدكتور الهادي المبروك في كتابه عن الطوارق أيضا، وكذلك ما كتبه "بول مارتي" عنهم في "لبرابيش بنو حسان".

هذه السلطنة في (ارزا روري) شمال مدينة (ماداوا)، ومن أهم قبائلها: كل اقلال وكل إمنير، وإتيسمان.

3. **سلطنة تمزقدا:** وتحتل منطقة أزواد الشرقي التي تسمى "دمرقو"، ومركزها مدينة تاركا النيجرية، وكانت هذه السلطنة من أقوى السلطنات الطارقية، إذ أنها تقع ضمن منطقة أراضي خصبة تترل بها الأمطار، كما أنها تتحكم في طرق القوافل القادمة من وإلى ليبيا وبلاد الهوسا، وكذلك مصر، ومن أهم قبائلها: الشريفن، افوغاس، وايكزكزن..
4. **سلطنة تقريقريت والليمدن أهل الشرق:** وتقريقريت بالطارقية تعني الوسطى، وتتوسط هذه السلطنة بلاد الطوارق، ومركزها مدينة طاوة شمال جمهورية النيجر، وتنتشر بها عشرات القبائل، ومن قبائلها: كل نان (قبيلة السلطان) وكل أغلال وآيت أواري وإزوايتن...
5. **سلطنة آيير أو (أير):** وسميت بهذا الاسم نسبة إلى جبالِ آيير التي تقع فيها السلطنة، والمكونة من سكان مدينة "أقدز" من قبائلها: أباركوريان، ايتيزيان كل زيريس، كل إغاروس...
6. **سلطنة أزقر:** وتقع في سهول ووديان وواحات جبال تاسيلي، وتعتبر مدينة غات في الجنوب الغربي الليبي مركزا لها، ومن أهم قبائلها: أوراغن، منغاستن، إمنان...
7. **سلطنة الهقار:** تقع هذه السلطنة غرب سلطنة أزقر في مناطق جبال الهقار على الحدود الجزائرية مع دولتي مالي والنيجر، ومركز هذه السلطنة هو مدينة "تمنراست" في الجنوب الشرقي الجزائري، ومن أهم قبائلها: كل اغلاه كل اغرب، تيطوق.
8. **سلطنة أضغاغ[1]:** ومن أهم قبائلها: شمناس، افوغاس..

---

1) كثيرا ما يقتصر المؤرخون على ذكر السلطنات السبع الأول فيما انفرد د/ الهادي المبروك بذكر تلك السلطنة الثامنة "اضغاغ" وتعني: "آدرار".

وعدا هذه السلطنات الكبرى التي تعم النطاق الجغرافي لانتشار الطوارق في أغلب بلدان الساحل ذكر "بول مارتي" سبع سلطنات أخرى خاصة بـإقليم أزواد، أورد أسماءها على النحو الآتي:

1) سلطنة افوغاس.
2) سلطنة الليمدن.
3) سلطنة كل انتصر.
4) سلطنة لبرابيش.
5) منطقة كنته.
6) سلطنة الفولان.
7) مملكة السونغاي.

وكانت تلك السلطات تضم هي الأخرى عشرات القبائل المنضوية تحت لواء القومية أو القبيلة الأم الحاملة لاسم السلطنة.

وقد فشلت تلك الكيانات طوال تاريخها السياسي في التوحد خلف راية جامعة، بل على العكس من ذلك، كثيرا ما تندلع بينها الحروب والنزاعات على مواقع النفوذ السياسي والمنافع التجارية – الاقتصادية (خفارة القوافل، الموارد المائية، المراعي، المناجم) مثل حرب "فطرون" الشهيرة التي نشبت بين بعض تلك السلطنات، إضافة لحروب أخرى، وبقي الأمر على تلك الحال من التشرذم والاحتراب بين أبناء الأرومة الواحدة حتى مجيء الاحتلال الفرنسي إلى المنطقة أواخر القرن 19م.

النظام السياسي للسلطنة:

أما النظام السياسي لإدارة السلطنة فيقوم على مراتبية تتدرج من أعلى إلى أسفل، إذ يتربع على أعلى هرمها السلطان أو "الامنوكال"، متبوعا بـشيخ القبيلة "إمغار" أو (أمغر)، ثم الإمام، وأخيرا تنتهي بما يعرف بـ"المجلس العام".

1. **السلطان "الامنوكال"**[1]: وهو الشخص الأول في السلطنة الذي تتجمع بين يديه السلطتان التنفيذية والقانونية "التشريعية"، ولا يحق لأي كان الاعتراض على قراراته، وغالبا ما يكون شيخ أقوى القبائل في السلطنة، وهذا اللقب من أشهر وأهم ألقاب الحكم عند الطوارق.

وجرت عادة الطوارق في القديم كما هي عند بعض ممالك السودان أن يتولى ابن أخت الملك أو السلطان خلافته في حالة الوفاة، غير أن ما استقر عليه تقليد الحكم عندهم في العصور المتأخرة هو توريث أحد أبناء السلطان أو إخوته أو أبناء عمومته، حيث يتولى "المجلس العام" أو المجلس الاتحادي تسمية خليفة السلطان خلال اجتماع موسع يحضره مجلس الأوصياء ومجلس القضاء والأمراء وقادة الجند من أهل السلطنة وجيرانهم، ومن أهم الشروط اللازم توافرها في السلطان: الحكمة والشجاعة وحسن السيرة والفقه بالدين..

2. **شيخ القبيلة**: ويعرف في الطارقية بـ"أمغار" أو "أمقار": ويتولى تدبير شؤون قبيلته وفض النزاعات التي قد تنشب بين أفرادها، والدفاع عن حقوقها في مواجهة الخصوم، وتمثيلها في الاجتماعات العامة، إضافة إلى المهام الأخرى المتعلقة بمساعدة السلطان في تدبير شؤون السلطنة التي تنتمي إليها مجموعته القبلية.

3. **الإمام**: ومن المميزات التي حافظ عليها الطوارق هي تبجيل العلماء وتوقيرهم، واحتضان جهودهم العلمية ورعايتها، فكانت لطبقة العلماء والفقهاء كلمتهم النافذة في بلاط الملوك والأمراء والسلاطين من صنهاجة بمن فيهم الطوارق إلى الكثير من ملوك الممالك السودانية، وقد تقلص هذا المنصب في السلطنات الطارقية بفعل تراجع النشاط العلمي الذي عرفته المنطقة قبيل وأثناء وبعد

---

1) معنى الأمينوكال أو الآمنوكال: غير مجمع عليه، حيث يرى البعض أنها مكونة من لفظتين: أمين + كال التي تعني حقل أو أرض، وعليه يكون معنى "أمينو كال" هو: أمين الأرض، أو مالك الأرض، وهناك رأي ثان يقول أن معنى "أمنوكال" هو الزعيم غير الخاضع لزعيم أو رئيس آخر.

دخول الاستعمار الفرنسي الذي كان الغزو الثقافي أحد أبرز أسلحته الناعمـــة في الفتك بعقول وقلوب الشعوب المستعمرة، سيما من البلدان الإسلامية.

4. **المجلس العام أو المجلس الاتحادي:** ويتشكل من شيوخ القبائل المكونة للسلطنة، وينعقد إذا دعاه السلطان لتدارس كبريات الأمور، واتخاذ القرارات الأساســية من حرب وسلم وعلاقات متبادلة، إضافة إلى اختيار السلطان الجديد أو عزل القديم لدواع مبررة.

المبحث السادس
الحركة الثقافية والعلمية عند الطـوارق

ثمة حقيقة تاريخية يعتز بها الطوارق الأزواديون، ويعترف لهم بها الكثير من الدارسين لتاريخ الوجود والانتشار الإسلامي في الشمال والغرب الإفريقيين، وهي أن منطقتهم ظلت منذ فجر الإسلام حاضنة أمينة للثقافة الإسلامية، ورافعة قوية لها، حملتها إلى مجاهل القارة، واستمرت مركز إشعاع، ونبع صفاء يتزود منه مئات العلماء وآلاف الطلبة من دون أن تكدر صفوه عاديات الزمن من كوارث وأزمات ومحن حاقت بالمنطقة، وذلك لقرون عديدة خلت حتى حازت عروس أزواد "تينبكتو" لقب "جوهرة الصحراء" ومدينة "333" وليا وعالما، وغطت لفترات على ذكر مدن علمية أخرى شهيرة بالمنطقة مثل "ولاتة" و"برنو"[1].

وقد وصلت الحياة الثقافية بالمنطقة أوج ازدهارها خلال القرن 8هـ الرابع عشر الميلادي عندما قيض الله لها ملك "المندينـكا" المالي العادل "منـسا موسـى" صاحب رحلة الحج المشهورة إلى مكة 1325م؛ حيث قام هذا الملك الصالح برعاية تلك الحركة، فجدد لهذا الغرض بناء جامع تينبكتو الكبير ووسعه ليصبح إلى جانب جوامع أخرى النواة والمنطلق لنهضة علمية رائعة تحدت قساوة الصحراء وعدم مواتاتها طبيعيا للاستقرار والتمدن إلى جانب الطابع البدوي الغالب على أهلها، حيث الترحال طلبا للنجعة، أو تحرفا عن عدو ديدنهم[2].

---

1) برنو: مدينة نيجيرية ذات شهرة تاريخية، حملت اسمها امبراطورية برنو الإسلامية في عهد الملك إدريس الوما (1571 – 1603).

2) اضطلعت جوامع تينبكتو بالدور الأبرز في تلك النهضة العلمية، وهذه الجوامع هي:

- جامع تينبكتو الكبير: هو أقدم الجوامع بالمدينة وأكبرها، وبحسب بعض المصادر يعود بناؤه إلى القرن السادس الهجري، وجدد بناءه السلطان "منسا موسى" بعد عودته من الحج، حيث أوعز بتلك المهمة إلى المهندس والشاعر الأندلسي أبو إسحاق إبراهيم السهيلي، فأنشأ له صومعة، ثم شهد توسعة أخرى على يد

لقد كانت مدينة "تادْمَكه" قبل تينبكتو الأسبق في هذا المحال، فقد ذكر القاضي عياض في معرض حديثه عن مختصر الإمام محمد بن إبراهيم بن المواز المعروف بالموازية، والمتوفى 269هـ، أن ممن أخذوا عنه ذلك المختصر بتمامه جماعة من أهل "تاد مكة"، حيث كان ذلك في القرن الثالث الهجري، وهو ما يدلل على طول الباع العلمي وعلو الهمة لدى أهل تلك المملكة، وهو الاهتمام الذي امتد ليشمل حتى المتفرغين لتدبير الشأن العام بدليل ما ذكره ابن حوقل[1] من أن ملوكها "بنو تتماك" فيهم رياسة وعلم وفقه وسياسة ودراية بالسير، واطلاع بالأثر والخبر".

سرعان ما ازدهر العلم في ربوع أزواد بعد تقاطر شيوخ العلم وطلابه من شمال القارة وجنوبها، وانتشرت في كنف جوامعه المدارس العلمية المعروفة بالمحاضر حتى ناهزت المائة والثمانين، وربا عدد طلبتها على الخمسة والعشرين ألفا. فكانت المساجد تزاوج في أدوارها بين المعاهد العلمية والمراكز الثقافية والتربوية، ولم يكن منهج التلقي يقل شأوا في مستواه عما هو عليه الحال في جوامع ومعاهد عريقة من عيار الأزهر بمصر، والأموي بدمشق، والزيتونة بتونس، والقرويين بالمغرب، وقرطبة بفاس، وجوامع شنقيط وولاتة، وهو ما شهد به حتى الغربيون من أمثال "شاربون"،

الفقيه والقاضي العاقب بن القاضي محمود من أسرة "آل أقيت" العلمية المشهورة، وذلك برعاية السلطان أسكيا داود أحد سلاطين السونغاي.

- جامع سيد يحيى التادلسي: ويرجح أن يكون بناؤه قد تم في منتصف القرن التاسع الهجري – الخامس عشر الميلادي، وتم تشييده على يد محمد تقي من قبيلة آجر الصنهاجية، وبمعونة حاكم تينبكتو التابع لسلطان الطوارق آنذاك "السلطان آكل"، وخضع الجامع بعد ذلك لترميمات من حين لآخر.
- جامع سنكوري أو "سانكوريه": ويعود تشييده إلى القرن العاشر الهجري على يد الحاكم الطارقي محمد نض، ويعود هذا الاسم إلى حي من أحياء تينبكتو، وهو الذي أُسِّسَ به الجامع، ومعنى "سانكوريه" في لهجة السونغاي الأبيض، وقد جدد بعد ذلك على يد القاضي العاقب – المذكور سلفا – وغيرها كثير كثير من الجوامع.

1) ابن حوقل: هو محمد أبو القاسم بن حوقل (ت: 367هـ/977م)، ولد بنصيبين شمال شرقي الجزيرة الفراتية، كاتب وجغرافي ومؤرخ ورحالة، جاب عديد الأقطار، ووصف أحوالها ومظاهر السطح بها وصفا دقيقا، من أشهر أعماله: "صورة الأرض" الذي ألف سنة 977م.

ولم يتردد الكثير من الباحثين في إطلاق صفة (جامعات) على تلك الجوامع وما تزاوله من نشاط علمي دؤوب حين تجمع بين فكرة التخصص الدقيق من جهة في فروع العلم المختلفة إلى جانب فكرة الثقافة العامة؛ وفي هذا الصدد يقول الدكتور محمد الغربي[1] في كتابه: "بداية الحكم المغربي في السودان": "وحظيت تينبكتو وجامعتها بسمعة مدوية في العالم الإسلامي مثل السمعة التي حظيت بها القاهرة وتونس وفاس، وقد رأينا الطلبة يتوافدون لطلب العلم في تينبكتو من مراكش والجهات البعيدة، وعندما زار ليون الإفريقي (حسن الوزان) هذه المدينة ووقف على أحوال العلم بها أطلق على مدرسي مساجدها لقب الدكاترة".

مناهج التلقي العلمي في المحاظر الأزوادية:

وكما سبق وأوضحنا لم يقل المستوى العلمي في محاظر أزواد ومعاهده العلمية عن نظرائه في دول الجوار والجوامع الإسلامية الشهيرة، وفيما يلي نورد باختصار أهم أمهات الكتب في مختلف التخصصات الشرعية التي تشكل قوام منهج التلقي لدى تلك الصروح العلمية.

- **في الأصول:** مختصر ابن الحاجب الأصلي في الأصول، الكوكب الساطع في نجم جمع الجوامع، والكوكب الوقاد في الاعتقاد، جمع الجوامع للإمام السبكي.
- **في الحديث:** الصحيحين، موطأ الإمام مالك، ألفية السيوطي في علم الحديث، ألفية العراقي.
- **في التفسير:** تفسير الجلالين.
- **في الفقه:** موطأ الإمام مالك، مدونة سحنون، مختصر خليل، مختصر ابن الحاجب، المعيار المُعْرِب والجامع المغرب لأحمد بن يحيى الونشريسي.
- **في السيرة:** سيرة ابن هشام وابن إسحاق، الشفا في حقوق المصطفى للقاضي عياض، الشمائل المحمدية للإمام محمد بن عيسى الترمذي.
- **في النحو:** ألفية ابن مالك، الأجرومية..

---

1) الموسوعة العلمية الشاملة.

- **في الأدب**: ديوان الشعراء الستة الجاهليين للأعلم الشنتميري، أشعار ابن دريد، مقامات الحريري.
- **في المنطق**: "منح الوهاب" المعروف برجز الإمام المغيلي في المنطق.

أهم الصروح العلمية بالمنطقة[1]:

- محظرة أو معهد سنكوري الملحق بهذا الجامع، وتزامن قيامها مع تأسيسه.
- محظرة (مدرسة) محمود عمر قاضي تينبكتو (ت: 955)، وقد تخرج فيها جمهرة من مشاهير علماء الإقليم.
- محظرة "كسلخ"، أي منبع العلم، وهي كائنة وسط تينبكتو.
- محظرة الفقيه أبي بكر أحمد أقيت (ت: 991هـ)، وقد تخصصت في علوم الآلة، ومن أشهر خريجيها الفقيه أحمد بابه التمبكتي.
- محظرة القاضي مودبو محمد الكابري، وكانت تستقطب الطلبة من داخل الإقليم ومن خارجه، ومن أشهر خريجيها الفقه عمر بن محمد آقيت، وسيد يحيى التادلسي.
- محظرة ألفغ محمود بن الحاج المتوكل، وكان لها تخصص في علم السير والتاريخ، ومن أشهر خريجيها مؤلف مصنف الفتاش محمود كعت التينبكتي.
- محظرة أبي زيد عبد الرحمن بن محمود، واشتهرت بازدحام طلبة العلم على بابها.

وإلى جانب هذه الصروح العلمية الكبيرة انتشرت مئات الكتاتيب التي كانت تنهض بمهمة التهيئة الأولية لصغار الطلبة بتعليمهم الأبجدية، ثم تحفيظهم القرآن، وصقل قرائحهم تمهيدا للمراحل التعليمية التي تلي ذلك.

---

1) أوردنا هذه الأسماء مع بعض التصرف اعتمادا على مقال: مظاهر الثقافة الإسلامية العربية في تينبكتو وغاو وجني المنشور على موقع "قراءات إفريقية" بتاريخ: 2012/01/02.

كما درج بعض السلاطين من السونغاي وغيرهم على إقامة مجالس علمية أشبه بجلسات المجامع العلمية يستدعى لها أهل العلم والفقه من داخل السلطنة ومن خارجها، وأول من استن تلك السنة الحسنة هو السلطان "أسكيا محمد الكبير"، وسار على نهجه فيها أبناؤه أيضا من أمثال أسكيا داود.

ومن المظاهر الصحية للحركة الثقافية بأزواد انتشار المكتبات وقت ذاك على نطاق واسع والحافلة بآلاف المصنفات في مختلف فروع العلوم النقلية على وجه الخصوص مع وجود اهتمام بالعلوم الكونية، ولكنه لا يمكن أن يوازي بحال شدة الاحتفاء لدى الأزواديين من طوارق وغيرهم بالعلوم النقلية الشرعية.

ومن أشهر تلك المكتبات:

- مكتبة العلامة أحمد بابا التمبكتي، وضمت ما يناهز الألف والستمائة مجلد، وكان هو نفسه يقول عنها: "إنها تضم أقل ما يملكه عالم في تينبكتو".
- مكتبة عمر أُقيت، وضمت سبعمائة مجلد.
- مكتبة أسكيا داود أحد سلاطين السونغاي.
- مكتبة أسكيا محمد الأول.
- مكتبة أسكيا محمد بان بن أسكيا.
- مركز أحمد بابا التينبكتي، وهو عبارة عن مكتبة ضخمة نشأت برعاية رسمية، وتضم آلاف المخطوطات[1].

وقد تخرج في تلك الصروح العلمية المهيبة مئات العلماء وآلاف الطلبة ممن حملوا مشعل الهداية إلى مختلف أصقاع القارة، بل وأرجاء العالم الإسلامي كله، فوالد أحمد بابا التمبكتي نفسه وهو أحمد بن أحمد بن عمر آقيت بهر بعلمه علماء المشرق عند ما زار مصر والتقى بجهابذة علمائها، من أضراب اللقاني والأرميوني والتاجوري

---

1) تأسس المركز المذكور بمبادرة من اليونسكو ورعاية الحكومة المالي في العام 1970م، ويمتد على مساحة تصل 4800 مترا، وضم أكثر من ثلاثين ألف مخطوط من أصل ما يربو على مليون مخطوط يعتقد الباحثون أنها منتشرة بيد الأهالي والأسر العلمية بالإقليم، وقد تعرض هذا المركز لحريق أثناء انسحاب الجماعات الجهادية من تينبكتو في وجه التدخل الفرنسي بالشمال المالي.

والأجهوري، كما زار الحجاز والتقى بعلمائها أيضا كالسخاوي والفاكهاني والميموني، وأجاز بعضهم.

وقد سجل لنا التاريخ أسماء قامات علمية كبيرة أضاءت دياجير الجهل في زوايا الصحراء المعتمة انطلاقا من تينبكتو، فإضافة إلى أحمد بابا ووالده المذكورين سابقا نذكر استطرادا لا حصرا العلامة محمد بغيغو شيخ أحمد بابا، العلامة والمحدث أحمد بن الحاج أحمد من أسرة آل آقيت، العالم سيدي يحيى التادلسي، العالم عبد الله اندغمحمد بن محمد بن عثمان، العالم مخلوف بن علي البلبالي، العالم والقاضي العاقب بن محمود... وغيرهم كثير ممن ترجم لهم العلامة أحمد بابا التينبكتي في مصنفه: "نيل الابتهاج بتطريز الديباج"، وذكرهم كذلك عبد الرحمن السعدي في كتابه: "تاريخ السودان".

ولعل السمة الأبرز للحياة الثقافية عند طوارق أزواد هو بقاء "لغة القرآن"، حتى الاحتلال الفرنسي للمنطقة، هي لغة التدوين والثقافة العالمة بلا منازع رغم كونها لم تكن اللغة الأم لأغلب الطوارق ممن يتحدثون "الطارقية" والتي تعتبر لدى الكثيرين[1] لهجة من لهجات اللغة الأمازيغية الكثيرة العدد، بل وأنقاها، وأهم تلك اللهجات المتفرعة والتي تعود كلها إلى الطارقية:

- الايموهاغية: ويتحدثها سكان آجر والهقار.
- التماشك أو الأماشيغية: ويتحدثها معظم طوارق النيجر.
- التاماشقية أو الأضاغية: ويتحدثها سكان آدرار واوضة.
- التاترمت: ويتحدثها المقيمون من السكان غربي تينبكتو.
- الدوسحاقية: وهي قليلة الاستعمال وتتحدثها قبيلة "ادوسحاق".
- شن – سرت: يتحدثها أبناء قبيلة (آيت أوراي) الطارقية بالنيجر.

وتسمى أبجدية هذه اللغة "التيفناغ"، وهي أبجدية قديمة تعود لأزيد من 1000 سنة قبل الميلاد على الأقل، ويعتقد بعض الباحثين أن حروفها مستعارة من

---

1) هاشم الألوسي: الطوارق، ص 135، مرجع سبق ذكره.

الفينيقيين (ولذلك نسبت "التيفناق" لهم)، وهم شعب سام نزح من الشام إلى شمال إفريقيا في حقب تاريخية متقدمة، وتتكون حروفها الأبجدية من ثلاثة وعشرين حرفا، ليس من بينها حروف: "ث، ح، ذ، ض، غ" العربية.

و لم يحفظ التاريخ أثرا علميا مدونا بهذه الأبجدية، اللهم إلا ما حفر على جدران بعض الكهوف والصفائح الحجرية التي ناهزت المائة نقش – بحسب بعض المصادر – حيث توجد بالمغرب نماذج من تلك النقوش بمناطق "ياكور" بالأطلس الكبير ونقوش على صفيحة "تامودا" المحفوظة بمتحف تطاوين المغربية وصفيحة سيدي اسليمان بمتحف الرباط كما تنتشر تلك النقوش في كل من الجزائر وتونس.

المبحث السابع
الحياة الاجتماعية عند الطوارق

قد لا يكون من قبيل المبالغة القول إن المجتمع الطارقي هو مجتمع قبلي قلبا وقالبا، حيث تُشكل القبيلة -لا الدولة - الآصرة الأقوى التي تنحل فيها كل ولاءات الأفراد ومظاهر التبعية والانقياد لديهم، فيُظهرون حبهم الشديد لها، واستعدادهم الفطري للتضحية في سبيلها بكل غال ورخيص، وهذا الولاء للقبيلة والعشيرة وتقديمها على ما سواها قد يفسر جانبا من الصعوبات التي تعترض الجهود التي تدعي بعض الأطراف بذلها في سبيل اندماج الطوارق الطوعي في النسيج المجتمعي للبلدان التي ينتمون إليها وتغلب عليها في أكثر الأحيان مكونات عرقية قد لا تقاسمهم بالضرورة الانتماء لذات الأرومة والمنظومة الهوياتية.

هذا التحامي بالقبيلة والإعلاء من وشيجتها لم يولَد لدى الطوارق من فراغ بطبيعة الحال، وإنما كان نتاج تضافر مجموعة مختلفة من الظروف والعوامل الطبيعية والسوسيوثقافية، والتي جعلت منه مجتمعة عقيدة اجتماعية راسخة تتوارثها أجيال الطوارق كابرا عن كابر.

ولِأن الأسرة هي النواة والمكون الرئيس لمؤسسة القبيلة التي نهضت بالكثير من الأدوار المنوطة بالدولة الحديثة في الحياة الاجتماعية، فقد جعل المجتمع من رعايتها والمحافظة على انسجامها، وتماسك أفرادها أحد الأهداف الأساسية لمؤسسة القبيلة، وغالبا ما يتوزع أفرادها الأدوار كل حسب ما يحسن، وخصوصا الأبوين، حيث ينهمك الرجال في المجتمع الطارقي التقليدي في الأعمال التكسبية لأجل إعالة أسرهم، ونظرا لقسوة ظروف العيش في الصحراء قد يضطرون للغياب عن أسرهم تلك لشهور، بل وربما أعوام لجلب ميرة القوافل التجارية أو خفارتها في الفضاء الصحراوي الواسع الممتد من شمال مالي إلى الجزائر إلى النيجر وليبيا وحتى السودان، مما ألقى بتبعات أكبر على المرأة الطارقية التي كانت على مستوى المسؤولية والتحدي حين حظيت بمكانة مرموقة في مجتمعها الذي يعتبر من المجتمعات الأميسية (الأمومية) القليلة

التي ينتسب فيها الرجل إلى أمه بدل أبيه، وحيث يرضع من ثديي أمه المجد والسؤدد، فلا يكون جديرا به وبهما سوى الانتساب إلى "اللبان" الذي منحه بفضل الله الحياة والقوة. وعن ذلك يقول المؤرخ المصري النويري: "إن جميع الملثمين ينقادون إلى نسائهم، ولا يسمون الرجل إلا بأمه، فيقولون ابن فلانة، ولا يقولون ابن فلان(1).

وقد هيمنت المرأة الطارقية على الشؤون كلها، حتى امتلكت حق تطليق الزوج في بعض الحقب من تاريخ المجتمع الطارقي، كما أتاح لها العرف المجتمعي كذلك حق اختيار شريك حياتها، ورفض من يتقدم لخطبتها دون ضغوط أو إكراهات من الأهل.

ويعتبر احترام الطارقي لزوجته من أقدس الواجبات الاجتماعية، وأول ما يتجلى فيه ذلك الشعور النبيل هو مراسم الزواج، حيث يتعين على الزوج التعامل مع زوجه وفق قانون ليالي التراحم الثلاث الأُول من الزواج، ففي أول ليلة عليه اعتبارها كأمه، وفي الثانية كأخته، وفي الثالثة كزوجته، فإن فسدت علاقته بها كزوجة عاملها كأخت، وإن فسدت علاقة الأخوة عاملها كأم، حيث لا يفترض أن تسوء علاقة الابن بأمه أبدا بموجب أحكام الشرع الإسلامي الذي يفترض أن يتقيد به المسلمون جميعا، ومنهم الطوارق.

طبقات الطوارق الاجتماعية:

لا يكاد الدارس المتابع لأحوال هذا المجتمع وطبيعة صراع الأجيال فيه وحراكه القيمي يقف على أي من مظاهر الطبقية الفجة التي رأيناها أو قرأنا عنها لدى مجتمعات أخرى مبتلاة بتلك اللوثة البغيضة، وما ذاك إلا لشدة تماسك اللحمة القبلية الداخلية، وقوة التكافل الاجتماعي لدى هذا الشعب الصلب، وللطوارق في ذلك قاعدة أو ناموس اجتماعي يسيرون عليه، وهو أن: "كل ما يملكه الفرد ويعده للمعيشة والاستهلاك يوجب عليه أخلاقيا دعوة ذويه وأقاربه لمشاركته الانتفاع بنتاجه"(2).

ويورد بعض الباحثين أسماء تلك الطبقات على النحو الآتي:

---

1) محمد وارجو: الطوارق، الشعب الأمازيغي المنسي، جريدة تامازيغت، العدد 4.

2) الألوسي، الطوارق، ص 180، مرجع سبق ذكره.

- الايموهار: وهي أعلى الطبقات في السلم الاجتماعي، وتحظى بأفضل الامتيازات، وإليها ينتسب زعيم القبيلة، وتسمى في بعض مناطق الطوارق الأخرى: "كماجيهان".
- طبقة العلماء والفقهاء.
- طبقة "ايها كارن" أو الأحرار.
- طبقة الاينغاد أو الأتباع.
- طبقة الايكلان: وهم عادة من الزنوج المنحدرين من قبائل أخرى، ويسمون في مناطق أخرى: "نمظادن".
- طبقة "الاينهاضن": وهي من أرباب الحرف.

وهناك تقسيم آخر لهذه الطبقات أورده الدكتور الهادي المبروك[1].

ومن التقاليد الاجتماعية المميزة للطوارق أزيائهم وطريقة ارتدائها التي تحولت مع الوقت إلى تعبيرات اجتماعية ووجدانية ذات دلالات معنوية عميقة، فقد عبروا عن عشقهم للحرية، وتشوفهم لها في لباسهم الأزرق المميز كزرقة السماء، كما هو أيضا رمز السلام والنماء لديهم، حتى أصبح علما عليهم، فلقبوا من جيرانهم: "بالرجال الزرق".

ولعل أبرز ما يميز "الايموهاك" أو الرجل الطارقي هو ذاك اللثام الذي قد يتجاوز طوله أحيانا اثنا عشر مترا من القماش، يلف به رأسه ورقبته ووجهه كلّه ما عدا العينين.

وقد اختلفت الروايات وتضاربت حول أصل أو أولية ارتداء الطوارق له، ونكتفي في هذا المقام بما أورده الحافظ عز الدين بن الأثير في تاريخه الكبير حول ذلك، والرواية بلفظه: "وقيل أن سبب اللثام لهم أن طائفة من لمتونة خرجوا مغيرين على عدو لهم، فخالفهم العدو إلى بيوتهم، ولم يكن بها إلا المشاييخ والصبيان والنساء، فلما تحقق المشايخ أنه العدو أمروا النساء أن تلبس ثياب الرجال ويتلثمن، ويضيقنه حتى لا

[1] - أورد الدكتور الهادي المبروك في كتابه: "قبائل الطوارق" أسماء تلك الطبقات على النحو الآتي: مقارن، أمغاد، أواغويلي، انظن، الحمران.

يعرفن، ويلبسن السلاح، ففعلن ذلك، وتقدم المشايخ والصبيان أمامهن، واستدارت النساء بالبيوت، فلما أشرف العدو رأى جمعا عظيما فظنه رجالا فقالوا: هؤلاء عند حريمهم يقاتلون عنهن قتال الموت، والرأي أن نسوق النعم ونمضي، فإن اتبعونا قاتلناهم خارجا عن حريمهم فبينما هم في جمع النعم من المراعي إذ أقبل رجال الحي فبقي العدو بينهم وبين النساء، فقتلوا من العدو، وأكثروا، وكان من قبل النساء أكثر، فمن ذلك الوقت جعلوا اللثام سنة يلازمونه (أي الرجال)، فلا يعرف الشيخ من الشاب، ولا يزيلونه ليلا ولا نهارا".

أما النساء فيتميزن بالسباطة فيما يلبسن، وزيهن الأساسي هو الملحفة التي يبدو منها الرأس والجيد مع اليدين في حالة سفور، وربما غطت الطارقية رأسها بوشاح، وتلبس تحت الملحفة إزارا، ومنهن من تلبس درعا واسعا يمتد من الرأس إلى أسفل الركبتين وتحته إزار كذلك.

ويتقلد الطارقي سيفا طويلا بغمده في جراب جلدي مزركش ومطرز بألوان زاهية، أما نعاله فمن جلد البقر والجمال مطرزة ومزينة بالصبغ الأخضر.

وللطوارق إلى جانب ذلك عادات في القتال ومنازلة الأعداء، يقول عنها صاحب الحلل الموشاة: "لم يسجل التاريخ البتة أن هؤلاء القوم ولوا الأدبار مرة واحدة"[1].

ويقول عنها أيضا محمد صالح منصور[2]: "إلا أن لأبناء الطوارق في القديم خصوصية لا تجهل، فاحتساء كأس المنون ألذ وأهون لديهم من الرضوخ لحظة لخطة الخسف والهوان".

وهذه القيم الأخلاقية النبيلة امتدت لتشمل حتى التعامل مع الأعداء وفق ما تمليه تقاليد الفروسية عند الطوارق، يقول المستكشف الأوروبي (دي فريبه) عنهم: "وهم لا يطعنون عدوهم من خلف، ولا يسممون سهامهم ورماحهم، بل يربؤون بشجاعتهم أن تنحدر إلى هذا الدرك".

---

1) مؤلف لكاتب مجهول عاش في القرن الثامن الهجري.

2) محمد صالح منصور: العلاقات بين المرابطين وملوك الطوائف، الجغرافيا، ج1، ص 21.

الفصـــل الثاني:
القضية الأزوادية: الجذور والتداعيات

- استكشاف المجال الصحراوي من قبل الأوربيين
- الطوارق في مواجهة الاحتلال الفرنسي
- الاستقلال وإرهاصات ميلاد القضية الأزوادية
- انتفاضة الطوارق الثانية وأطرافها الفاعلة
- انتفاضة الطوارق الثالثة والحركات الصاعدة
- القضية الأزوادية في أجندة النظام الرسمي العربي
- انعكاسات القضية الأزوادية على المحيطين الإقليمي والدولي

المبحث الأول:
استكشاف المجال الصحراوي من قبل الأوربيين

منذ منتصف القرن الخامس عشر وأنظار الأوربيين بمن فيهم الفرنسيون مشدودة إلى منطقة الصحراء الكبرى ودول الساحل المحيطة بها، فقد بهرتهم كتابات ليون الإفريقي (حسن الوزان) عن عوالمها الساحرة، لاسيما جوهرتها العجيبة (تينبكتو) وما وصلت إليه من ازدهار علمي واقتصادي بلغ أَوَجَه خلال القرن السادس عشر الميلادي عند ما ناهز عددُ طلبة العلم بمحاظرها وزواياها الخمسة والعشرين ألفا، وشكلت إلى جانب ذلك محورا هاما من طريق توات/تينبكتو التجاري الصحراوي.

وقد عرفت الفترة الممتدة من القرن الخامس عشر وحتى الثامن عشر الميلاديين استكشاف القوى الأوروبية لسواحل المنطقة ومناطق أحواض الأنهار (النيل، النيجر، الكونغو، السينغال)، وبدايات لمراسي تجارية مع سكان الدواخل[1]، فظهرت مراسي: آركين واكادير دوم (نسبة إلى الملك "دوم" ملك قبائل انيرزيك) وبّورتانديك (أو ميناء تاندغه)، وهي جميعها موريتانية.

وقد حظي مرسى (آركين) منها على وجه الخصوص بصراع محتدم بين القوى الأوروبية المستكشفة، والتي شملت البرتغاليين والهولنديين والإنكليز والفرنسيين، حيث استتبت للأخيرين السيطرة عليه ابتداء من 1763.

وكان خلف التنافس الأوروبي ذاك على السواحل محاولة جذب تجارة القوافل الصحراوية إلى السواحل الأطلسية، حيث السيطرة للأوروبيين، وهو ما تحقق لهم على حساب طريق توات/تينبكتو الشهير.

وقد عرفت الفترة اللاحقة على نهاية الحروب النابليونية لفرنسا اهتماما متزايدا بالمنطقة ودراسة أوضاعها على مختلف الصعد، وهي المهمة التي أوكلت إلى كتائب

---

1) د/ احماه الله ولد السالم: تاريخ موريتانيا، منشورات (الزمن)، 2007، ص: 94

منظمة من المستكشفين[1] والرحالة والـــضباط والإداريـــين والعلمـــاء والجمعيـــات الجغرافية، وأنتجت عـــددا هـــائلا مـــن الدراســـات والبحـــوث الـــسوسيولوجية والانتروبولوجية والأنتولوجية مهدت للاستعمار، ورافقته عبر محطاته المختلفة.

وقد حظي ما يعرف في الأدبيات الإدارية الاستعمارية "بأرض البيظان" الممتدة من شواطئ الأطلسي جنوبا وحتى تخوم عقفة نهر النيجر على طول الـــشمال المـــالي بنصيب واف من تلك الدراسات الاستقصائية.

وكان الوالي الفرنسي على السينغال البارون (روجي) من أوائل من قـــاموا باستكشاف المجال الموريتاني حين أرسل كلا من: رينيه كايي (ولد كَيْجَ النـــصراني)، (وليو بولد باني) إلى المنطقة لتعلم اللغة العربية والتقاليد المحلية، وقد حاول هذا الـــوالي من موقعه الجيد كرئيس للجنة الجزائر والمستعمرات بالبرلمان الفرنسي إقناع ســـلطات بلاده بالجدوى السياسية والتجارية لمثل تلك الاستكشافات عند ما خاطب في رسالة له موجهة إلى وزير البحرية الفرنسي قائلا: "إن القيام برحلة استكشافية بغية معرفـــة وسائط الربط بريا بين الجزائر والسينغال ستكون له أهمية بالغة للتجـــارة والعلـــوم والسياسة معا". وهو الربط الميكانيكي الذي يتطلب عمليا احتلال كل من موريتانيـــا أو مالي أو هما معا، حيث تفصلان الأراضي الجزائرية عن السينغالية.

وقد عرفت تلك الأنشطة الاستكشافية ذات الخلفيـــة الاســـتعمارية لمنطقـــة الصحراء حركة محمومة مع تولي الحاكم الفرنسي الجنرال (فيـــدرب) إدارة المنطقـــة ابتداء من 1850، حين شرع في ملاحظة المنطقة، ومحاولةِ رسم خريطة لقوى ومواقعِ مختلف الأطراف والمجموعات القبلية والإثنية المؤثرة في المجال الـــصحراوي (بمـــا فيـــه منطقتي موريتانيا وأزواد)، فأرسل هذا الوالي نقيبَ الأركان العامة (هنري فنـــصان) رفقة المختار بن المقداد (الأب)[2] عام 1860م في رحلة طويلة من (سان لويس) إلى آدرار، قَطَعا خلالها مسافة 900 كيلومتر على ظهر الجمال.

---

1) الدكتور محمدُّو محمدن أمين: المعرفة الاستعمارية، الأدوات والعراقيل – مقال.

2) كثيرا ما يقع الخلط بين المختار بن المقداد الأب (ت: 1882) الذي كان يعمل مترجما بالإدارة الاستعمارية، ومحمد ولد ابن المقداد (أوْدُودُسك) (1867 – 1943) الابن الذي عمل هو الآخر مترجما بنفس الإدارة، وقام

غير أن الرحلة الاستطلاعية للقائد الفرنسي (اكزافيي كبـولاني) إلى المنطقـة كانت الأهمَّ على الإطلاق، حيث انطلق في العام 1898 في جولة استكشافية، قادته إلى أزواد والحوض بتكليف من حاكم السودان الفرنسي، حيث نجـح في اسـتمالة العديد من زعماء المجموعات القبلية وبعضِ الزعامات الروحية لصالح قبول الحمايـة الفرنسية، وقد أعدّ كبولاني في نهاية هذه الجولة الاستطلاعية مشروعَه الاسـتعماري المسمى "المخطط الإجمالي لتنظيم القبائل البيضانية" الذي وضـع التـصور النظـري للسياسة التي يترتب على فرنسا اتباعُها لإحكام سيطرتها على الأقـاليم الـصحراوية الممتدة من وادي درعة إلى نهر السينغال، ومن الأطلسي إلى الخط الواصل بين خـاي وتينبكتو، وتحويلِها إلى محمية فرنسية تُدعى "موريتانيا الغربية"، وقد أقرته الـسلطات الفرنسية بعد إدخال بعض التعديلات الترابية عليه.

وكان لافتا في خضم تلك الأحداث والتطورات النشاط التبشيري الملحـوظ للكنيسة الكاتوليكية في شمال وغرب القارة، لاسيما مناطق انتشار الطوارق، لأهداف مفهومة ليس أقلها التنصير، وهكذا أرسل البابـا (رأس الكنيـسة الكاتوليكيـة) إلى الصحراء الكبرى وبلاد السودان مبعوثه الشخصي الكاردينال الألماني (شارل مارسيال لا فيجيري)، والذي أصبح مطرانا كنسيا للجزائر فيما بعد، حيث كان يعمل بالتعاون الوثيق مع عالم الجغرافيا الأب (شارل دوفوكو) الذي منحتـه الجمعيـة الجغرافيـة الفرنسية جائزة هامة عن كتابه الذي ألفه عن المغرب 1883[1] ، وقد لعـب هـذا الراهب المتدثر بثوب العلمية دورا فاعلا في تمهيد الطريق أمـام القـوات الفرنـسية لاحتلال الأراضي المغربية عام 1912، وقد لقي مصرعه لاحقا على يد الطوارق بعد ما تكشفت لهم نياته الاستعمارية الدفينة وذلك في العام 1916.

برحلة استكشافية إلى آدرار رفقة الجاسوس الفرنسي (بول ابلانشي) خلال العام 1900م لصالح الإدارة الاستعمارية.

1) همام الألوسي: الطوارق، مرجع سبق ذكره.

المبحث الثاني
الطوارق في مواجهة الاحتلال الفرنسي

شكل الطوارق رأس الحربة في أعمال المقاومة العسكرية التي قادها أبناء المنطقة في وجه الغزو الفرنسي الذي يُرجح أن يكون قد تم ابتداء من 1893 تاريخ وصول قوافل المرتزقة التابعة للفرنسيين إلى نواحي تينبكتو، ومع استكمال اجتياحها للمدينة 1894 على يد القائد (جوفر) جوبهت تلك العملية بمقاومة شعبية مستميتة من طرف الطوارق، تكبدت خلالها القوات الفرنسية أعدادا كبيرة من القتلى لا تزال قبورهم في المدينة شاهدة على بسالة المقاومة التي تعرضوا لها[1].

وكان من أوائل من تصدروا المقاومة في وجه المحتل الفرنسي المجاهد (شبون أك فندكمو) الذي واجه الفرنسيين في واقعة "تاكوبا" 1895 بالقرب من تينبكتو، وتمكن رفقة إخوانه من المقاومين من الإيقاع بالفرنسيين واغتيال قائدهم الذي احتل المدينة العقيد "جوفر". كما كان المجاهد محمد علي انكونا قد قاد أعمال المقاومة قبل ذلك التاريخ بسنة، أي في 1894م، حيث أحصى له أعداؤه الفرنسيون سبع معارك خاضها ضدهم دون أن ينهزم في أي منها، قبل أن يتمكنوا من محاصرته في "تمنراست" الجزائرية وأسرِه ثم قتله لاحقا على مشارف تينبكتو.

وقد انتقم الفرنسيون لمقتل قائدهم في معركة "تيت" التي أجهزوا خلالها على مائة من المقاومين. ولم يتأخر رد المقاومة كثيرا، إذ سرعان ما استعادت زمام المبادرة مجددا، خصوصا بعد انضمام كتيبة من الطوارق الليبيين وغيرهم بقيادة المجاهد الطارقي الكبير "محمد كاوصن"، حيث التقى الطرفان ببئر العلالي سنة 1902، ودارت معركة طاحنة، تكبدت خلالها القوات الفرنسية خسائر فادحة في الأرواح قبل أن تجبر المقاومين على تنفيذ انسحاب تكتيكي.

---

1) المرجع السابق.

ومع نهاية العام 1903 استكمل الفرنسيون توغلهم داخل منطقة (آدرار إفوقاس)، أكبر وأهم المكونات التضاريسية لإقليم أزواد، لتُحكم بعد ذلك سيطرتها على كامل الإقليم، و لم ينعم الفرنسيون بالاستقرار جراء ذلك، بل إن أعمال المقاومة استمرت في سائر ارجاء الإقليم، ومن مختلف مكوناته العرقية القبلية، ولا يزال الأزواديون يذكرون بفخر الأعمال البطولية لمقاومين أشاوس، حبَّروا بدمائهم الزكية سفر العزة والكرامة، وغدوا رمزا للحرية والتضحية، لا لبني جلدتهم وحسب، وإنما لكل الأحرار في كل مكان[1]، ولعل الثائر الشهيد محمد كاوصن من أبرز من قاد حرب عصابات شرسة أرهقت الفرنسيين وامتدت من ليبيا إلى مالي، مرورا بالنيجر، إذ قاد رجاله من بلدة "واو" بالجنوب الليبي متجها إلى مدينة "أقدز" في النيجر، حيث تفاجأ الفرنسيون بقوة هذه الحملة، وحاولوا الاحتماء منها بالتمترس خلف حصونهم في المدينة، إلا أن كارصن حاصرهم حصارا شديدا، مكنه بعد ذلك من اقتحامها، وقد ساعده نجاحه ذاك في البطش بالفرنسيين وأعوانهم عبر المناطق المحيطة "بأقدز"، وبسبب انتشار أخبار انتصاراته على المحتلين الفرنسيين قام العديد من شيوخ وزعماء الطوارق بالانضمام إليه، أو التعاون معه، وقد هادنه الفرنسيون لبعض الوقت، قبل أن يعدوا عدتهم، ويقوموا بإعادة تجميع قواتهم رفقة حلفائهم من زعامات قبلية موالية لهم، وبعد معارك ضارية مع قوات "كاوصن" تمكن الفرنسيون من دخول المدينة، وارتكبوا مذابح فظيعة ضد أبنائها العزل، كان من ضمنهم علماء وفقهاء، تم التمثيل بجثث بعضهم من قبل الفرنسيين، غير أن كاوصن تمكن من الانسحاب رفقة من تبقى من رجاله، وبمساندة حلفائه القبليين، واستطاع تكبيد الفرنسيين العديد من الخسائر في الأرواح والأعتدة قبل أن يتمكن بعض عملائهم من أسره ثم قتله في "واحة أم النعام". وباستشهاده طويت صفحة من حياة أبرز مقاومي الطوارق، مما فتح الباب

---

1) نذكر من هؤلاء: سلطان قبائل (والليمدن كل أطرم): عبد الرحمن تاقامه الذي اغتاله الفرنسيون سنة 1920 في زندر، وكذلك السلطان (آمود)، والشيخ عابدين بن سيد محمد الكنتي، وابنه سيد حيبَّلْ، والمختار كودوكو، (والامنوكال فهرون) الأنصاري الذي اغتاله الفرنسيون 1916م، والشيخ محمد عالي الأنصاري، والمجاهد "علا أك البشير" الذي قاد المقاومة خمسة عشر عاما ضد الفرنسيين، والمجاهد الخوريد بن المرقي.

واسعا أمام الفرنسيين لتوطيد سلطتهم في الإقليم، وممارسة جرائم بشعة في حق أبنائه، شملت إعدامات بالجملة للمئات، وتشريد آلاف الأسر، والزج بعشرات المقاومين في سجون سلطات الاحتلال الفرنسي.

ومع حلول ثلاثينات القرن الماضي 1932 كان الفرنسيون قد تمكنوا من اغتيال أو أسر معظم القيادات العسكرية، والزعامات السياسية والقبلية المناوئة لسيطرتهم على المنطقة، فاستثمروا أجواء الهدوء النسبي التي عرفتها مختلف جبهات المقاومة على امتداد أراضي الإقليم في إبرام تفاهمات مع الزعامات العشائرية المهادنة لهم، حيث نصت أهم بنودها على:

- احترام فرنسا حق الطوارق في تسيير أمورهم الداخلية بأنفسهم، وعدم تدخل قوات الأمن الفرنسية (أو العدالة كما تسميها فرنسا) لتسوية أية مشكلة في المنطقة.
- احترام ثقافتهم، وتطبيق قوانينهم المحلية في التراعات البينية.
- احتفاظ الفرنسيين بحق إدارة المدن.
- إعفاء أبناء الطوارق من التجنيد والقتال في الجبهات.
- عدم إجبار أطفال الطوارق على الدراسة في المدارس الحكومية الفرنسية حفاظا على الدين والتقاليد.

أوضاع الإقليم تحت الاحتلال الفرنسي:

تردت أوضاع الإقليم تحت الاحتلال الفرنسي على مختلف الصعد، الاجتماعية واقتصادية وسياسية ودينية وثقافية.. وعكست المعاملة السيئة التي لقيها أبناء الطوارق على أيدي الفرنسيين طبيعة العقلية الاستعمارية، ونظرتها الإقصائية الاستعلائية إلى الطوارق وغيرهم من الشعوب المستعمرة والمقهورة عندما لخصها الحاكم الفرنسي

للإقليم (كلوزيل) بقوله: "يجب أن لا يخرج الطوارق من إطار يختلف عـن حديقـة الحيوان"[1].

وهكذا تمثلت أولى خطوات هذا المخطط الاستعماري المخاتل، والساعي إلى ترويض الطوارق وتحويلهم إلى حيوانات داجنة، في العمل الحثيث على تفتيت البنيـة الاجتماعية المستحكمة للمجتمع الأهلي للطوارق، والتي راكَمَت كمّاً هائلا من القيم والتقاليد والثقافة المتوارثة من مئات القرون؛ فكان من أوائل الإجراءات التي انتهجها المستعمر في هذا الصدد: محاولة الحد من نفوذ وسلطان شيخ القبيلة أو "الآمينوكـال" بتنحية الزعامات القبلية المناوئة له، واستبدالها بصنائع تابعة، تأتمر بأمر المستعمر، بهدف القضاء على تقاليد الولاء للقبيلة التي يترجمها شخص "الآمينوكال"، وقد تم بـالموازاة مع ذلك تهجير أعداد كبيرة من العشائر والعوائل في مسعى لتغيير وإعادة رسم الخارطة الجيو ديمغرافية لساكنة الإقليم وفق ذلك المخطط الذي اتسع نطاقه الجغرافي ليـشمل المثلث الطوارقي الكائن ما بين بلدان انتشار الطوارق الست: (مالي، الجزائر، النيجر، ليبيا، تشاد، بوركينا فاسو)، حيث وَضعت الإدارة الاسـتعمارية قيـودا وسَـنّت تشريعات حدت إلى حد كبير من حرية الطوارق في الحركة والتنقـل، إلى جانـب التواصل الاجتماعي الطبيعي بين مختلف التشكيلات العشائرية المكونـة للـسلطنات التقليدية السبع للطوارق المنتشرة في مختلف أضلاع المثلث الجغرافي السابق.

وهي إجراءات قسرية لم يألفها هؤلاء من قبل، فشكلت صدمة نفسية قاسية لهم، إلى جانب انعكاساتها الاقتصادية السلبية على مقومات حياتهم المعيـشية، فقـد اعتمد اقتصاد الإقليم - وهو بالأساس اقتصاد ريعي موروث عـن حقبـة القـرون الوسطى - في دورته الطبيعية، على مدخلات الحياة الرعوية بصفة رئيسية، حيث اعتاد الطوارق على الانتجاع في الصحراء الواسعة طلبا للكلأ والمياه دون الاكتراث بـأي حواجز أو حدود من أي نوع كان، فمن "أقادز" في النيجر إلى "آدرار" في مالي، ومن

---

1) الماريشال كلوزيل تم تعيينه حاكما عاما على الجزائر في العام 1835، أي ثلاث سنوات بعد اندلاع المقاومة الجزائرية للفرنسيين بقيادة الأمير عبد القادر الجزائري، حيث تمكن خلال نفس العام من احتلال قاعدة المقاومة مدينة "معسكر".

"الهكّار" في الجزائر إلى سهول "فزان" في ليبيا، ظلت عشائر الطوارق تجوس خلف سوائمها مترجمة عمليا المثل الطارقي: "أنا لا أتناهى مثل الصحراء"، حتى طالعهم الفرنسيون بمثل تلك الإجراءات التعسفية التي ضربتهم في صميم حياتهم المعيشية، وحولت مجالهم الجغرافي المفتوح إلى ما يشبه "الكانتونات" العسكرية المعزولة، وهو ما يدخل ضمن المخطط الاستعماري الممنهج لتفتيت الكيان الطارقي وتقطيع أوصاله حتى يسهل احتواؤه ودمجه لاحقا ضمن الكيانات المصطنعة التي خلفتها الحقبة الاستعمارية عبر جغرافيا متداخلة الحدود والإحداثيات، ستؤسس لاحقا لأغلب الحروب والتراعات الإقليمية على الحدود ومنابع المياه ومصادر الثروة.

وإلى جانب تكسير الروابط الاجتماعية وقطع العلاقات التجارية للطوارق عبر ضرب طوق أمني خانق على منطقة انتشارهم الرئيسية في أزواد، سعى الفرنسيون إلى طمس أهم مكونات الهوية عندهم (مجسَّدا في الثقافة الإسلامية) ووعائها الحامل (اللغة العربية)، حيث وصلت أول بعثة تنصيرية كبيرة أشهرا قليلة بعد احتلال تينبكتو بقيادة القس "دبوي" المعروف بـ(راهب تينبكتو)، وكان قد سبقه سنوات إلى المنطقة الراهب الفرنسي الأب (شارل دي فوكو) الذي استطاع كسب ثقة العديد من زعامات المنطقة، لاسيما "موسى أكّامستن" قائد الهكّار وأبرز زعماء الطوارق.

ولعب هذا الراهب كما أشرنا سابقا أدوارا حاسمة في تمهيد السبيل أمام الفرنسيين للتغلغل العسكري والثقافي في المنطقة، إلى جانب النشاط التبشيري الذي تولى هو إلى جانب طلائع استكشافية من أضرابه كِبر النهوض بمسؤوليته.

وهكذا ما إن هدأت الجبهات العسكرية نسبيا حتى شرع الفرنسيون في تنفيذ الأجزاء المتعلقة بمسخ الهوية الثقافية للطوارق من مخططهم الاستعماري الشامل، ففرضوا ما يشبه "الحصار الثقافي" على المدارس والمعاهد الأهلية لتدريس العلوم الشرعية (الكتاتيب، المحاظر، الزوايا العلمية الملحقة بالمساجد والزوايا الصوفية..)، وكان التركيز على لغة القرآن شديدا، فحاولوا إحلال اللغة الفرنسية مكانها عبر فرض التعليم النظامي الحديث وفق المناهج الدراسية الفرنسية على أبناء الطوارق، فسنوا تشريعا إداريا في العام 1926 يقضي بوجوب إرسال الأطفال الذين يصلون سن

التمدرس إلى المدارس الفرنسية بدل الكتاتيب الأهلية التي تعتمد اللغة العربية في التحصيل العلمي. وقد اتضح لاحقا أن تجهيل الطوارق - لا تعليمهم - وبترَ انتمائهم أو أي صلة لهم بتاريخهم وامتدادهم الجيواستيراتيجي بمحيطهم البشري هو الهدف الحقيقي لتلك الإجراءات ا لظالمة، فالصغار الذين أرسلوا لتلك المدارس لم يسمح لهم في أحسن الأحوال بتجاوز المرحلة الأساسية في دراستهم، وهذا ما عبرت عنه في وضوح مذكرة قادة الحركة الأزوادية الشهيرة بالقول: "إن الإدارة الاستعمارية لم تساهم في تنمية المنطقة على المستوى السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي، وتفادت تغيير نمط حياة السكان كي يبقوا جهلة وأسرى لتقاليدهم، وبالفعل فإن أية مدرسة جديرة بهذا الاسم لم تؤسس، وذلك يفسر أن إرسال الأطفال إلى المدارس الذي قرر سنة 1926 لم يبدأ إلا سنة 1947، وكان مستوى الدراسة المسموح به هو الشهادة الابتدائية"[1].

لقد فعلت الإجراءات الأمنية، إضافة إلى نطاق العزلة الخانق الذي ضربه الفرنسيون حول مدن الإقليم الرئيسية فعلها، فقد تراجع إلى حد كبير الدور العلمي والثقافي الهام للحواضر الطارقية التي ظلت لقرون مَوْئل الآلاف من طلبة العلم، إضافة إلى مئات العلماء والفقهاء من مختلف مناطق الصحراء الواسعة، فمن أصل 180 محظرة أو معهد علمي يتوزعها الطلاب بمعدل 100 طالب لكل محظرة إلى جانب ما يناهز 330 عالما وفقيها ضليعا كانوا يمثلون جوهرة تينبكتو في أوج ازدهارها؛ من كل هذا لم يبق إلا نزر قليل، فيما كتب المستعمر بحروف من نار ودماء شهادة وفاة أغلبها، لتنكفئ تلك المدن العتيقة على نفسها، تضمد في صمت وإباء جراح الذاكرة المثخنة بأوجاع الحاضر القلق والمستقبل المجهول، والحسرة على الماضي السعيد..

ومما أثار حفيظة الفرنسيين في هذا المجال أيضا رفضُ الطوارق مساندتهم في الحرب العالمية الثانية، حيث أفتى علماء الإقليم عربا وطوارق بكفر كل من ألمانيا وفرنسا، وعدم وجود مصالح للمسلمين في انتصار أي منهما.

---

1) مذكرة قادة الحركة الأزوادية الصادرة 1990م إبان المفاوضات مع الحكومة المالية لإبرام معاهدة سلام.

لم يكتف الفرنسيون بمحاولة تفتيت الكيان الاجتماعي للطوارق ومسخ هويتهم الثقافية وطمس معالم تراثهم الحضاري وحسب، وإنما امتدت أياديهم للأرض نهبا للثروات وإضرارا بالبيئة والمجال الحيوي حين اتخذت فرنسا من منطقة الحدود الجزائرية المالية (حيث المجال الحيوي لانتشار طوارق الجزائر ومالي) مسرحا لتجاربها الذرية التي وصلت إلى حدود السبعين تفجيرا، وكان من أشهرها تجارب (رقان) 1957، التي تطلب التحضير لها جيشا من العلماء والتقنيين إضافة إلى جنود حماية، حيث كان قوامهم 6500 فرد إلى جانب 3500 من العمال اليدويين. وكانت تلك التجارب بمثابة الاختبارات التحضيرية الممهدة لتفجير القنبلة الذرية الفرنسية 1952، وقد تسببت تلك التجارب -التي كان الطوارق يطلقون عليها "عام الموت"- في مقتل المئات، ونفوق آلاف الرؤوس من الماشية المملوكة للطوارق جراء التلوث البيئي الشديد، إضافة إلى التشوهات الجينية التي استمرت لفترات طويلة جراء انتشار الإشعاع الذري عبر مساحات واسعة من الأراضي الجزائرية المالية، مما خلف استياء إقليميا ودوليا واسعا تسبب في حرج أخلاقي ودبلوماسي بالغ للفرنسيين، انضاف إلى إخفاقاتهم العسكرية على الجبهة الجزائرية، تطلبت محاولة محو آثاره تقديم تنازلات غير مسبوقة، سعى الفرنسيون من خلالها إلى إعادة خلط أوراق اللعبة في المنطقة مجددا على أمل استعادة زمام المبادرة السياسية التي أفلتت منهم بفعل تصرفاتهم الأنانية.

وهي التنازلات التي قدموها ضمن ما عرف وقتها بمشروع "المنظمة المشتركة للمناطق الصحراوية"، أو "جمهورية الطوارق"، فما هي طبيعة هذا العرض إذن؟ وما طبيعة التنازلات المقدمة للطوارق؟ وعلى حساب من؟ وما هي ردة فعل الطوارق تجاهه؟

المنظمة المشتركة للمناطق الصحراوية (O.C.R.S) أو (جمهورية الطوارق):

تسببت الحرب العالمية الثانية وما ترتب عليها من نتائج في إضعاف موقف فرنسا دوليا، وهو ما انعكس إيجابيا على سلوكها السياسي، وتعاملِها مع مستعمراتها

الإفريقية من خلال إجراء إصلاحات واسعة شملت مَنح المزيد من الحريات والانفتاح السياسي، وهكذا انطلق مسار التنازلات الفرنسية من مؤتمر ابرازافيل 1944 مرورا بالإطار القانوني المعروف بالاتحاد الفرنسي، والذي أُنشيء العام 1946 تجسيدا لمقررات المؤتمر السابق، حيث أصبحت المستعمرات الفرنسية في إفريقيا تُعرف بـ"أراضي ما وراء البحار"، ومُنحت بموجب ذلك حقَ التمثيل البرلماني وتشكيل الأحزاب السياسية التي تَصدّر فيها المثقفون من خريجي المدارس الفرنسية من أمثال (ليوبولد سدار سنغور) زعيم الكتلة الديمقراطية السينغالي، و(هوفيت بونيه) مؤسس حزب التجمع الديمقراطي الإفريقي بساحل العاج، والزعيم الراحل: المختار ولد داداه، وسيدي المختار ولد يحي انجاي، وأحمد ولد حرمه..

وجاء القانون الإطاري للعام 1956 مدفوعا بهزيمة فرنسا في الهند الصينية ومؤتمر "باندونغ" التحرري، إضافة إلى اندلاع حرب التحرير الجزائرية لتكريس المزيد من الإصلاحات والتنازلات السياسية لصالح المستعمرات.

وفي هذا المناخ المنفتح وما تلاه من تطورات انعكست على المشهد الفرنسي الداخلي انعكاسا بالغا (كان من تداعياته قيام الجمهورية الفرنسية الخامسة) جاء ميلاد فكرة أو مشروع "المنظمة المشتركة للمناطق الصحراوية" (O.C.R.S)، والذي يضم، بحسب التقطيع الإداري الذي أقره البرلمان الفرنسي 1957: الصحراءَ الكبرى الغربية والصحراء الشرقية والصحراء الشمالية، وقد شملت حدودُ الدولة المقترحة وفق ذلك التوزيع اقتطاعَ أراض من ست دول، على النحو التالي:

- أجزاء كبيرة من موريتانيا انطلاقا من مناطقها الشرقية
- غالبية الصحراء الجزائرية بمدنها الكبرى
- شمال النيجر المأهول بالطوارق والعرب (مناطق طاوه وأزواك)
- الجنوب الغربي من ليبيا
- الشمال الغربي من تشاد، حيث التبو والقرعان (إقليم بلتيم، ومثلث (بوركو - أَنّدي - تيبستي)
- إضافة إلى شمال مالي (إقليم أزواد).

وعيّن الفرنسيون للكيان الجديد إدارة تنفيذية يرأسها موظف برتبة وزير للصحراء، ومجلسا استشاريا مثّل موريتانيا فيه الأمير محمد فال ولد عمير.

وسعيا لتوطين مشروعها هذا وتسويقه لدى شعوب المنطقة، خصوصا إثنيات الطوارق والتبو، استدعت السلطات الفرنسية بالتزامن مع احتفالاتها بعيد فرنسا الوطني في 14 يوليو 1952 وفدا مختلطا من أبناء أزواد واقترحت عليهم تأسيس كيان خاص بهم تحت مسمى "جمهورية الصحراء" مع إبداء استعداد فرنسا الكامل لتوفير الوسائل الكفيلة بإنجاح المقترح بمجرد إعلان الرغبة من الأطراف المعنية على أن يبقى الكيان المزمع خاضعا للحماية الفرنسية لمدة 30 عاما لتهيئة أهلها للاستقلال التام.

غير أن الوفد المذكور كان يفتقر إلى الانسجام والتنسيق الكافي، كما لم يكن فيما يبدو مخولا بشكل كامل للحسم في مثل تلك القضايا الكبيرة، وهي الأجواء التي عكستها بعض الردود المتضاربة والمتناقضة أحيانا المقدمة من أعضاء الوفد الزائر، والتي تراوحت بين الرفض المطلق للفكرة من حيث المبدأ إلى التفهم والموافقة.

وبعد عدة جولات من الحوار والنقاش والأخذ والرد بين مختلف الأطراف الفاعلة على الساحة الأزوادية حسم زعماء الإقليم المتوجسين من نيات الفرنسيين موقفهم النهائي من ذلك المشروع في اتجاه الرفض المطلق له، وذلك خلال الاجتماع الحاسم الذي عقده ممثلو الإدارة الاستعمارية مع القادة المحليين لمنطقتي كاو (الولاية السابعة) وكيدال (الولاية الثامنة) سنة 1959[1] لاستمزاج آرائهم بخصوص الأمر بعد الاجتماع الذي عقد في باريس قبل هذا اللقاء بعام، وكان فاشلا، فالتقى الوفد الفرنسي المحاور بكل من انتالا بن الطاهر ممثلا عن كيدال (معقل قبيلة إيفوقاس)، وتيلجات ممثلا عن "منكه"، وأيوبا وإيفانفان ممثلا عن "انسونغو"، وكيو ممثلا عن "غار"، وكلا من بادي وعثمان عن "بورام"، فرفضوا العرض الفرنسي بالإجماع، مثلما رفضه أمير الطوارق (بتينبكتو) محمد علي أك الطاهر الأنصاري.

---

1) علي الأنصاري: الطوارق، الساحل المخيف، ص61.س

وتأكد موقف الطوارق الرافض للانفصال والمتشبث بالوحدة مع بقية مكونات النسيج البشري المشكل للشعب المالي ذلك خلال اجتماع هام عقد في أكتوبر من نفس العام بكيدال بين الزعماء السبعة للقبائل مع وفد يمثل حكومة الجمهورية السودانية برئاسة "ماد يرا كايتا". وخلال هذا اللقاء طُرح السؤال التالي بكل ما فيه من وضوح ودقة: "السودان يتجه إلى الاستقلال، فهل يرغب آدرار إفقاس (أزواد) أن يكون طرفا في هذا الاستقلال أم يُفضل أن يبقى مع فرنسا"؟ وبمثل الوضوح الذي كان عليه السؤال جاءت الإجابة على لسان المتكلم باسم زعماء القبائل (الطاهر أك إيلي): "لقد قاتلنا فرنسا ونحن جماعة، وهزمتنا ونحن جماعة، واستعمرتنا ونحن جماعة، وهي تواصل استعمارنا جماعة، أوْ تعيد لنا حريتنا جماعة، إنّ تفرقنا أمر لا سبيل إليه"[1].

أما ردود فعل دول الجوار الإقليمي والمتأثرة في أغلبها بهذا المشروع (مشروع الدولة الطوارقية) بشكل مباشر أو غير مباشر، فقد جاءت متباينة بحسب المصالح ودرجة الارتباط أو الخضوع للنفوذ الفرنسي؛ فالثوار الجزائريون عارضوه ورفضوا أي مساس بأراضيهم[2]، أما المختار ولد داداه فقد تجاهله رغم عَرْض الفرنسيين السابق، فصرح في مذكراته قائلا: ".. وبدأ الجنرال (ديكول) بزيارتي فبدأنا مقابلتنا في منزلي، وتابعنا محادثاتنا في مقر إقامته عند ما قمت بزيارته، وقد استعرضنا علاقاتنا الثنائية بسرعة، ولم يكن هناك من جديد يستحق الذكر حول علاقاتنا الممتازة، ثم عَرَض علي الجنرال من جديد وبإلحاح الانضمام إلى المنظمة المشتركة للأقاليم الصحراوية قائلا: (ستحصل موريتانيا على الكثير من الامتيازات بانضمامها إلى هذه المنظمة، وستحصل على قروض مهمة لتنميتها الاقتصادية والاجتماعية، كما أن فرنسا ترى من ناحيتها أن انضمام موريتانيا إلى هذه المنظمة يمنحها مصداقية دولية تفتقدها حتى الآن، خاصة لدى الدول العربية في شمال إفريقيا والمشرق، ذلك أن موريتانيا بلد سكانه مسلمون كلهم، وغالبيتهم من العرب، وهي مركز مهم للثقافة العربية والإسلامية في

---

1) علي الأنصاري: الطوارق، الساحل المخيف، ص: 61 و62، دار الطباعة مجهولة.

2) محمد محمود بن ودادي: أوراق من أزواد (مرجع سابق).

الإقليم..). وأجبته بأنه على الرغم من رغبتي الصادقة في تحقيق ما يطلبه خاصة وهو الآن ضيفي، لا يمكنني الاستجابة إلى هذا المطلب للأسباب التي سبق أن شرحتها له، وخاصة ما يتعلق منها بحرب الجزائر. فرد قائلا: (إنها لخسارة بالنسبة للمنظمة وبالنسبة لبلدينا وخاصة بالنسبة لبلدكم الذي سيحرم من الكثير مما كان سيحصل عليه)، وكان على ما يبدو منزعجا من موقفي"[1].

وكان موقف "موديبو كيتا" رئيس مالي محاكيا لموقف نظيره الموريتاني لكونه سيُقتطع منه إقليمُ أزواد، أما رئيسا كل من النيجر وتشاد على التوالي: (هامني جوري) و(فرانسوا تنبلباي)، فقد انحنيا حتى تمر العاصفة لأنهما لا يريدان إغضاب الجنرال (ديكول)[2]، أما المغرب وتونس فقد أبدتا تأييدهما للمشروع إلى جانب دول إفريقية أخرى، خصوصا في غرب القارة.

وبعد مضي السنتين على قيام "الجمهورية الفرنسية الخامسة"، وفي أوَج انفراط العقد الاستعماري واستقلال المستعمرات، تجددت المحاولات الفرنسية الرامية إلى بعث الحياة في هذا المشروع الميت وعلى أرفع المستويات السياسية، حين تولى الرئيس (ديغول) بنفسه تسيير الملف ابتداء من عام 1960، واستكمال المساعي التي بذلها منذ تسلمه زمام القيادة في عام 1958 بعد قيام الجمهورية الخامسة؛ فقد اتصل بالقادة المحليين للطوارق مجدَّدا، بما في ذلك سلطان الهقار (باي أخاموخ) زعيم طوارق الجزائر يومها وحاول استمالته بقوله: "إذا خرجت فرنسا سيستعمركم العرب الجزائريون، وسيسيطرون عليكم، لذا نخيركم بين قبولكم البقاء مع فرنسا التي ستعاضدكم في تأسيس دولة خاصة بكم، مؤكدين لكم تعهدنا الكامل بالبقاء إلى جانبكم دوما".

وهكذا فقد تحطمت آمال فرنسا وطموحاتها الاستعمارية في تفتيت ذلك الجزء من القارة وبلقنته مبكرا، على صخرة الرفض الطارقي العتيد المنطلق من وعي سياسي عميق ومسؤول بأبعاد ومرامي المخطط الفرنسي المخاتل في سعيه إلى تطويق الثورة الجزائرية وطعنها في الخاصرة عبر العزف المحترف على وتر الورقة الإثنية

---

[1] مذكرات المختار ولد داداه.

[2] محمد محمود بن ودادي : "أوراق من أزواد" (مرجع سابق).

الحساس في الوقت الخطأ بالنسبة للثوار، فالطوارق الذين احتضنوا الثـورة الجزائريـة ودعموها معنويا وماديا يرفضون اليوم طعن الثورة من الخلف، والتآمر على مستقبلها مع المحتل الغاصب في الوقت الذي يسعى فيه رجالها لطرده وتخليص البلاد من سطوته صونا لكرامة الأمة الجزائرية، وحفاظا على وحدة وسلامة أراضيها[1].

لقد وجد الفرنسيون أنفسهم أمام الأمر الواقع، فلم يجدوا بدا مـن تـصفية المشروع بأيديهم، حيث اجتمعت الجمعية الوطنية الفرنسية في جلسة علنية لتقرر نهائيا مصير المنظمة المشتركة للمناطق الصحراوية، وكان من غريـب الـصدف أن ممثـل الحكومة الفرنسية في الاجتماع كان وزير الدولة "هوفوت بوني" (صار بعـد ذلـك رئيسا لساحل العاج)، وهو مع ذلك ممثل مستعمرات السافانا الإفريقية التي تعـارض انفصال المناطق الصحراوية، فاتخذت تلك الجمعية وبتشجيع من ممثل الحكومة، قـرارا نهائيا بتصفية المشروع في 26 مايو 1963[2].

ولعل المفارقة التاريخية التي تدعو للتأمل في هذا المقام هي أن جـل سـاكنة الإقليم اليوم منْ طوارقَ وعرب تطالب بإلحاح ببعض ما كان الفرنسيون قد عرضوه عليهم قبل 56 عاما، فيما تسعى فرنسا جاهدة رفقه تحالفهـا الإقليمـي والـدولي للوقوف بحزم في وجه تلك الرغبة الجامحة في الانفصال، فهل أخطأ زعماء الإقلـيم في تقدير الموقف الصحيح عند ما رفضوا العرض الفرنسي بتكوين دولة "المنظمة المشتركة للمناطق الصحراوية"، والتي كان من المفترض أن تضم إلى جانبهم أقوامـا يجمعهـم معهم الكثير من مشتركات التاريخ ومقدرات الجغرافيا في الصحراء الكبرى الغربيـة والشمالية والشرقية، حيث بنُو جلدتهم من طوارق "الهكار" و"آزواك"، إلى جانـب إخوانهم الموريتانيين.. وفضلوا البقاء ضمن فيدرالية جمهورية الـسودان (بـين مـالي والسينغال)؟؟

---

1) لا يزال كبار السن من أهل "كيدال" و"منكا" يتذكرون استقبالهم للرئيس الجزائري الحالي (بوتفليقة) في مخيماتهم بالزغاريد وهو شاب لم يتجاوز عقده العشرين، حيث جمعوا له من التبرعات الكثير، حتى من حلي النساء، وأمدوا الثورة الجزائرية في أقل التقديرات بألفي مقاتل من أهل أزواد.

2) محمد يحظيه ولد ابريد الليل: موريتانيا وأزواد، سلسلة مقالات.

الجواب على هذا السؤال يحتاج لمزيد من التعمـــق في في القـــضية وأبعادهـــا التاريخية ولوقتية، غير أنه تجب الإشارة إلى أن هذا الموقف لم يمنع مـــا ينـــاهز 357 شخصية أزوادية -كما تقول بعض المصادر تضم شيوخ قبائل وعلماء دين وأعيان من بينهم قاضي (تينبكتو) محمد محمود ولد شيخ طلبتن - من توجيه رســـالة قويـــة إلى السلطات الفرنسية تطالبهم بتسليم السيادة في أزواد لأهله كما كانت لهم قبلا، وعدم إلحاقه بأية جهة..

وقد وعدهم الفرنسيون بأنهم سيظلون أحرارا في بواديهم كما كانوا، ولـــن تكون لأحد بعد الفرنسيين سيطرة عليهم (إشارة إلى الحكام مـــن الزنـــوج)، إلا أن تسارع المسيرة إلى الاستقلال والتمهيد لها بالحكم الذاتي بدأ يرسخ الأمر الواقع، وهو كون أزواد فضاء مكملا لمستعمرة السودان الواقع ثقلها في الغرب حول أعالي نهـــر النيجر والسينغال بحواضره التاريخية ذات الكثافة السكانية والموارد الزراعية والمائيـــة، والتي حظي سكانها بالتمدرس والخدمات، وأصبحوا السادة الجـــدد، بيـــدهم الإدارة والجيش والثروة، بينما أهملت فرنسا - طوال احتلالهـــا- الإقلـــيمَ، رغـــم موقعـــه الاستيراتيجي، وثرواتِه المعدنية والنفطية والغازية، وتميزه الثقافي بلغاته ونمط عيشه، مما يؤهله ليتمتع بحكم إداري يضمن تسييرا ذاتيا ضمن مستعمرة السودان[1].

---

[1]) محمد محمود بن ودادي: "أوراق من أزواد" (مرجع سابق).

المبحث الثالث:
الاستقلال وإرهاصات ميلاد القضية الأزوادية

في العام 1960 حصلت مالي -حيث يقيم العدد الأكبر من الطوارق- على استقلالها، وتوقع الطوارق -كمكوّن وطني هام قَدّم آلاف الشهداء والضحايا إلى جانب إخوتهم من فئات الشعب المالي الأخرى في انتزاع ذلك الاستقلال - أن يحظون بالمكانة اللائقة بهم ضمن الكيان الوطني الناشئ، وكمْ كانت مفاجأتهم كبيرة حين قَلَب نظام الرئيس (موديبو كيتا) لهم ظهر المجن، ونكث الوعود التي أطلقها لهم مع غيره من الوطنيين الماليين قبيل الاستقلال، وبدأ يتصرف وكأنه رئيس لشريحة أو فئة اجتماعية بعينها، يسعى لحمايتها، ورعاية مصالحها، في ما يهمل أو يتجاهل حقوق ومصالح باقي المجموعات الإثنية الأخرى وعلى رأسها الطوارق؛ وتباعا تكشفت نزعته الطائفية المشبوبة بمشاعر "الزنوجة" المتطرفة المعادية للطوارق، والتي تُشبههم بالرجل الأبيض (المستعمر الفرنسي)، وبدا أن ما أُشيع عن ميول الرجل اليسارية التقدمية العابرة للقوميات لم يكن أكثر من قِناع صفيق لإخفاء نزعته الشوفونية الحقيقية المتعطشة لسفك الدماء، والتسلي بعذابات أبناء القوميات الأخرى.

وكانت أحداث (كيدال) 1963 أول اختبار حقيقي يمتحن مدى صلابة العقد الاجتماعي الهش للدولة المالية الوليدة، وقد فشلت في دمج مواطنيها في هوية مجتمعية موحدة، أساسها المواطنة الجامعة كقاعدة لفرز الحقوق والواجبات تتجاوز حدود الانتماءات الإثنية والعرقية المفرِّقة؛ فشرعت في لفظ أحشائها الداخلية في مشهد دراماتيكي متكرر يعيد إلى الأذهان صورة الثورة عند ما يرتد سقط زندها إلى الداخل، فتشرع في أكل أبناءها الواحد تلو الآخر.

وجاءت التشريعات الضريبية المجحفة التي سنها نظام (موديبو كيتا) بمثابة القطرة التي أفاضت الكأس الطارقية المترعة خيبةً واحتقاناً؛ تشريعات كانت خزائن الدولة المالية الفارغة في مسيس الحاجة إليها، فيما اعتَبَر الطوارقُ أنفسَهم أولَ المستهدَفين في قطعان ماشيتهم التي هي أخص وأغلى ما يملكون، وخصوصا الإبل،

حيث تحملت الوعاء الضريبي الأكبر؛ وكان أكثر شيء أثار غضبهم هـــو الطريقـــة الاستفزازية التي نفذ بها الجنود الماليون ذلك القرار، والقسوة والفظاظة التي عاملوا بها الأهالي المحليين، حين أرغموهم على دفع ضرائب مجحفة عن مواشـــيهم، وأخـــذوا ينتزعون مؤنهم وأغراضَهم من مقتنيات الأهالي وأثاث خـــيمهم. ولم يتـــأخر الـــرد الطارقي كثيرا عما اعتبروه مساسا مباشرا بكرامتهم، وتجاوزا لكل الخطوط الحمر في حياتهم لا يقل في مداه وقسوته عما ألفوا على أيام المستعمر، فما كان منـــهم إلا أن شرعوا في مهاجمة الجنود الماليين، ومحاولةِ طردهم من مدنهم وقراهم. وتخوفـــا مـــن انتفاضة غير محسوبة دفعت الحكومة المالية بتعزيزات أمنية كبيرة إلى أزواد، وخصوصا (كيدال) موطن بعض القبائل ذات البأس والشوكة، كقبيلة (إفوقاس)، فنجحـــت في قمع الانتفاضة بعنف ودموية، إعداما للرجال والأطفال، واغتصابا للنساء، إلى جانب إحراق المساكن والأراضي الزراعية، وإتلاف الممتلكات..

وقد لجأ أغلب قادة الانتفاضة المذكورة - وكانوا في حدود الـــثلاثين - إلى كل من المغرب والجزائر طلبا للأمان واحتماء من بطش وانتقام الأجهزة الأمنية لموديبو كيتا، غير أن هذا الأخير استطاع استثمار جهود وساطته الناجحة بين الجزائر والمغرب فيما عُرف بحرب الرمال (التي اندلعت بين البلدين الجارين حول شـــريط "تنـــدوف" الحدودي 1963) في المطالبة بتسليم الثوار، وهو ما تم له، فسلمته الجزائر العناصـــر التي التجأت إليها وعلى رأسها الزعيمان الشهيران: زيد أكْ الطاهر و(الادو)، فيمـــا استلم من المغرب الأمير محمد اعلي الطاهر الأنصاري.

وقد نزلت خطة التسليم تلك خصوصا من الطرف الجزائري، كالصاعقة على الطوارق، فهي آخر ما كانوا يتوقعونه من أبناء الثورة الجزائرية التي آزروها بالرجـــال والأموال، وحموا ظهرها في أحلك لحظاتها؛ يقول علي الأنصاري واصـــفا مـــشاعر الطوارق تجاه تلك الخطوة: "وقد قدّمت مصر عبد الناصر وجزائر بن بله دعما كبيرا جدا لدكتاتور مالي (موديبو كيتا)، مكونين معه المثلث الماركسي لقمع أزواد، وكان هذا الدعم سياسيا وعسكريا، وكانت الجريمة الكبرى أن استدعى الرئيس الجزائـــري (بن بله) زعماء الحركة آنذاك عارضا الوساطة، وبمجرد وصولهم للأراضي الجزائريـــة

تم استقبالهم بالسلاسل، وسُلموا إلى (باماكو)، وكانت هذه فاجعة كبيرة على أبناء أزواد عامة، وخصوصا كبار السن، حيث أدت إلى إعاقة بعضهم إعاقة تامة حين فقد البعض بصره بمجرد سماع الخبر، وأصيب البعض بشلل أعاقه عن الحركة"[1].

إن ذلك التصرف المستهجن من طرف (بن بله) لا يمكن فهمه إلا في إطار الإيديولوجيا القومية الضيقة التي كان يعتنقها، ودفعته لوصف الطوارق بأنهم: "كذابون، وخارجون على القانون، ومتمردون على دولهم"[2].

وقد تراوحت مصائر القادة المسلّمين في تلك الأحداث ما بين الإعدام الفوري من دون محاكمات، إلى الاعتقال التحكمي لفترات طويلة وفي ظروف مزرية للغاية. وقد لخصت المذكرة الشهيرة الصادرة عن الزعامات الطارقية خلال مفاوضاتها مع السلطات المالية في التسعينيات ما حَاقَ بأبناء جلدتهم في تلك الفترة بالقول: "إن النزاع المسلح الذي هز مالي في نهاية سنة 1963 سيبقى إلى آخر الزمن على عاتق مسؤولية السلطات المالية، أيُّ جيش وطني هذا الذي يتشكل من (كّوميات) (قوات مساعدة) ما زالت راسخة في عقولهم الطرق القمعية للمستعمر، بل ويطبقونها بكل اللامبالاة وفي هدوء على من يجرؤن بتسمية انفسهم بـ(مواطنين)، إن سكانا أبرياء قتلوا جماعيا، وأحرقوا أحياء، وعلى مشهد من الناس، ودفنوا في مقابر جماعية تحت تصفيق عائلاتهم التي أجبرت على ذلك، إضافة إلى حضور أبنائهم وأقربائهم لهذا المشهد الفظيع؛ إن هذه المجزرة الَجديرة بإمبراطور مملكة السوسو (سوما وري كانتي) لم تترك حتى للمواشي التي اكتشفت بدورها القدرات الحربية للأبطال أبناء وأحفاد ساموري توري وبامبا تورى والحاج عمر تال. إن عملية إبادة البدو قد عمت كل الأماكن التي توجد بها المواشي بكثرة بأن تمت إبادتها بالبنادق الرشاشة، كما أحرقت كل المراعي، أليس إتلاف وسيلة العيش أيضا نوعا من إبادة من يعيش عليها؟ كذلك تم تسميم آبار المياه، أما المواشي التي نجت من هذه الإبادة فقد تمت مصادرتها، وذلك كي يستفيد من لحومها الأبطال المنتصرون، والذين ساعدهم الحظ ونجوا من الميول

---

1) علي الأنصاري: الطوارق، الساحل المخيف، مرجع سبق ذكره، ص 100.

2) الألوسي – الطوارق، مرجع سبق ذكره، ص 280.

الدموية للجنود الماليين بعد إكمال الغزو سرعان ما خانهم هذا الحظ، إذ وضعوا وكدسوا في سجون "كيدال" و"كاو"، حيث ماتوا جراء المعاملة القاسية. إن الوضع الجديد للجنود الماليين الذين أصبحوا سادة بلا منازع في الأمور السياسية والاقتصادية والمصير الإداري والاجتماعي والثقافي، قد استغل إلى الحد الأقصى من طرف السلطات المالية في الإسراع في عملية استبدال البيض بالسود. إن سلوك المنتصرين في الأرض المغلوبة كان:

- فرصة لتحقيق حلم الامتزاج الجنسي
- الغزو اللغوي والثقافي
- التطوير العلمي للفساد
- السيادة القصوى للسود على البيض، أو بمعنى آخر إنتاج سياسة عنصرية تبرر شعار مالي: "شعب واحد، هدف واحد، عقيدة واحدة".

- شعب واحد: شعب البمبارَا.
- هدف واحد: القضاء على ذوي البشرة البيضاء.
- عقيدة واحدة: استرجاع إمبراطورية "الماندنغ".

إننا بتحليلنا سلوك السطات المالية ما بين 1960 و1965 نكتشف المعنى غير المعلن لهذا الشعار"[1].

لقد شكلت تلك الأحداث الخطيرة الخَميرةَ الملائمة لنمو وإنضاج البذرة الجنينية لدولة الطوارق الانفصالية، التي تخلقت في رحم الحقبة الاستعمارية الفرنسية تحت مسمى: "المنظمة المشتركة للمناطق الصحراوية"، ورفضها الطوارق للوهلة الأولى من منطلق الشعور بالمسؤولية السياسية والأخلاقية في الحرص على وحدة وسلامة الأراضي المالية، ومستقبل التعايش بين مختلف مكونات الشعب.

لقد ولّدت تلك التطورات وما تلاها من تفاعلات قناعات راسخة لدى القاعدة العريضة من أبناء الإقليم باستحالة التعايش والاندماج الطبيعي بينهم من جهة، وبين باقي

---

1) مذكرة قادة الحركات الأزوادية.

ساكنة البلاد من السكان المتمدنين كما تنعتهم دائما الوثائق الرسمية للدولة المالية، وهم الذين نجح المستعمر شيئا فشيئا في سلخهم من هويتهم الثقافية - التي كان الإسلام ولغة القرآن إلى جانب الانتماء الإفريقي أهمَّ مكوناها - لصالح ثقافة (فرانكفونية) إلحاقية، أقصت لغة القرآنَ من المناهج، وحاصرت التعليم الأهلي (من محاظر وكتاتيب..)، وعمَّقت الهوة الثقافية بين شمال تغلب عليه الثقافة العربية الإسلامية رغم تلونها بمؤثرات محلية، وجنوبٍ تشرَّب بالثقافة الفرانكفونية على حساب إرثه الحضاري، ويقوم نظام الحكم فيه على العلمانية عقيدةً سياسية، تزاوج بين الإيديولوجيا القومية والفكر اليساري الذي أرسى نهجَه حزب "الاتحاد السوداني" (حزب الرئيس موديبو كيتا)، حيث اعتمد الاشتراكية نهجا سياسيا[1]، فهيمنت الدولة عبر شركاها العمومية على كل الأنشطة الاقتصادية من زراعة وتجارة وتنمية حيوانية، وشرعت في تطبيق ذلك على البدو الرحل (من أهل أزواد)، وعبّأت موظفي الإدارة المحلية وشبابَ الحزب لجمع مخيمات الطوارق في أماكن قريبة من المراكز الحضرية لتُسجِّل في دواوينها المواشي وملاكَها بعد ما كان الأمر في العهد الفرنسي مقتصرا على إقرار المالك بجزء يسير من مواشيه يدفع عنه العشر؛ وهو الاستهداف الاقتصادي الذي شكل عائقا إضافيا فاقم من حدة الاحتقان والإحباط السياسي القائم لدى سكان الإقليم أصلا، وأشعرهم بالاستهداف المباشر لوجودهم.

وقد التقى (موديبو كيتا) في الخطوط العريضة لمخططه الإلحاقي ذاك بالمشروع الثقافي الاستعماري للإدارة الفرنسية الرامي في بعده الثقافي إلى القضاء على لغة القرآن وحرفِها العربي الذي كان سائدا في القارة السمراء بأسرها، وعلى الخصوص في الغرب الإفريقي، "تكتب به أكثر من 30 لغة منها اللغات الرئيسية كالفلانية والمانديكية والهوساتية الزرماتية والسواحيلية واليوروباوية، لتكون العربية رابطا بين الناطقين بهذه اللغات، وبينهم والمسلمين كافة، فكانت تلك أولى التحديات التي جاء الاستعمار لرفعها، ولم يغادر إلا بعد أن أنتصر فيها وغرَّق الناس في بحر من التنافر، أذكى الصراعات الإثنية بين القوميات والأجناس التي وحدها على مدى التاريخ الإسلام، والعربية لغةً عالمة لعلوم الشرع

---

1) يراجع محمد محمود بن ودادي: أوراق من أزواد، مرجع سابق.

والعقل"[1]، وهو ما عززته السلطات الرسمية بإلغاء اسم أزواد من الأدبيات الإدارية والسياسية، حيث وزعت الإقليم إلى ولايتين، ثم ثلاث، أسماؤُها أرقام متسلسلة في مسعى ظاهر لهدم كل مقومات الهوية الثقافية والخصوصية المجتمعية لساكنة الإقليم، بل ومحاولة محو ذاكرته الجمعية من كل ما يمكن أن يشده إلى ماضيه وتاريخه المتوسط أو البعيد بشخوصه ورموزه ومعالمه الأثرية والجغرافية، وحتى مسميات المكان. وهي الخطوات التي توجتها هذه السلطات بإقامة سد "مركالا" كجدار فصل عنصري لحجز مياه نهر النيجر الذي يخترق أراضي الإقليم، مما تسبب في جفاف الأراضي، واجتياح الأوبئة للسوائم المحلية، ونفوق آلاف الرؤوس منها جراء ذلك، والهدف غير خاف، وهو تفريغ الإقليم من أهله، ودفعهم للهجرة خارجه.

وُلِدت إذن القضية الأزوادية من رحم الإقصاء والتهميش والحرمان، وأسست لها أخطاء ومظالم سياسية ومجتمعية متراكمة ضاربة الجذور منذ الحقبة الاستعمارية، و لم تنجح الدولة الوطنية الوليدة في تجاوزها من خلال صياغة عقد اجتماعي جامع تنحل فيه الولاءات الفردية للقبيلة والإثنية لصالح الولاء للدولة الأم. فعلى عكس ذلك انخرطت هذه الأخيرة في تعاطي مفردات الشأن الطائفي، تنهل منها مشروعيتَها المجتمعية بعد ما تآكلت شرعيتُها التاريخية السياسية، ضاربةً عرض الحائط بتاريخ مشرق من التعايش السلمي والتعاون الجماعي على أرضية مشتركة من التبادل الاجتماعي والتلاقح الثقافي أخذا وعطاء تحت ظلال خيمة الإسلام الوارفة. الإسلامُ الذي مثل عقيدة عابرة للقوميات والعصبيات، استطاعت صهر كل تلك القوميات والأعراق في بوتقة واحدة، وقدمت نماذج رائعة لتجارب حكم عرفت كيف تترجِم تلك المعاني السامية على أرض الواقع إخاء ومودة وتسامحا بين مختلف القوميات والأعراق.. كما هو الحال في تجربة السلطان الصالح (منسا موسى بن أبي بكر) الذي اتخذ من تينبكتو عاصمة لملكه، وحج عام 724هـ الموافق 1324م، وكذلك السلطان (أسكيا الحاج محمد بن أبي بكر)؛ وهي تجارب جديرة بالدرس وأخذ العبر لأمة تسعى للملمة شعثها، ومحاولة الوقوف على قدميها مجددا.

---

1) محمد محمود بن ودادي ، مرجع سابق.

المبحث الرابع

انتفاضة الطوارق الثانية وأطرافها الفاعلة

سرعان ما ذَكَت جذوةُ الحرب مجددا عند أول نفخة في رماد أزواد وجمره المتلمظ على يد مقاتلين وأصحاب قضية عَجَموا الحروب وعجمتهم، فأعادوها جذعة كما يقال؛ إنها انتفاضة (مناكا) الأولى عام 1990[1]، والتي أطلقت شرارةَ تمرد جديد في إقليم أزواد بعيد عقود طويلة من الاسترخاء الأمني لم تكن أكثر من استراحة محاربين. فبعد أحداث كيدال 63 وجفاف السبعينيات الماحق، تنادى الرفاق إلى السلاح ثانية، ونظموا صفوفهم عبر شن حرب عصابات تميزت بالاحتراف[2]؛ حيث صَبّحت كتائبُهم الجيش المالي في العديد من القواعد العسكرية التي استولوا عليها دون خسائر تذكر، وفقدت القوات الحكومية سيطرتها بسرعة على تسعين بالمائة من مناطق الإقليم، وانفجرت الاحتجاجات في الجنوب، وتأثر الشارع المالي بشعارات الثوار الطوارق، حتى إن شعار: "كلنا طوارق" تردد كثيرا في العاصمة والمدن الجنوبية الكبرى من البلاد أثناء الاحتجاجات الشعبية والطلابية المطالبة بسقوط نظام موسى اتراورى.

وقد شاركت في تلك الانتفاضة القوية حركات مسلحة عدة ضمت أجنحة عسكرية لأول مرة بعد ما ظل العمل السياسي السلمي الواجهة الأبرز لمعظم تلك الحركات التي انضوت في البداية تحت لافتة "مجلس قيادة حركات أزواد الموحدة" والمعروفة اختصارا بـ(M.F.U.A)، وهو إطار تنسيقي لصهر العمل المشترك ومنعِ الاحتكاكات بين إخوة القضية ورفاق السلاح.

---

1) ميناكا: مدينة مالية بالقرب من الحدود النيجرية، تقع بها ثكنة عسكرية هاجمها الثوار الطوارق في الثلاثين من يونيو 1990.

2) الحافظ ولد الغابد: "حرب الطوارق بين طموح الاستقلال وسيناريوهات التوظيف الدولي"، (مقال).

ومن أبرز الحركات التي شاركت في تلك الأحداث وممـــن.تمثـــل ثقـــلا عـــسكريا وجماهيريا:

1. **الحركة الشعبية لتحرير أزواد (M.P.A)**: وهي بمثابة الحركة الأم لبـــاقي التنظيمات الأخرى، ويعود تأسيسها للعام 1987، ومن أبرز القادة المؤسسين الأوائل: حَمَّ بن عمر، وإياد غالي، هذا الأخير الذي تزعمها لاحقا، واتسمت بتوجهات قومية، وقد لعبت الدور الأبرز في تمرد 1990، وخاضت حـــرب عصابات شرسة انطلاقا من معقلها في جبل (تاغازغان) الواقع بـــين كيـــدال وتمنراست بالجزائر.
2. **الحركة الإسلامية العربية لتحرير ازواد (F.I.A.A)**: وتأسست في العـــام 1978، ومن أبرز قادتها رئيسها أحمد ولد سيدي محمد، وهـــو دبلوماســـي مخضرم، عمل في موريتانيا منذ عهد الرئيس المختار ولد داداه، وقد حصل على الجنسية الموريتانية، وهو معروف بميوله الإسلامية، إضافة إلى الذهبي ولد أميـــا الذي يقود الجناح الليبرالي في الحركة، وقد قاد انشقاقا ضدها، إضافة إليهمـــا هناك القائد العسكري أبو بكر الصديق ولد محمود دحمان.
3. **الجبهة الشعبية لتحرير أزواد (F.P.L.A)**: ويقع مقرها في منطقة منكـــا وتايكريت شرقي گاو، ويقودها عيسى أگ سيدي محمد، فيما يتزعم جناحهـــا المدني العسكري سيدي محمد المعروف بـــ"جيمي الثائر"، ولم توقع هذه الجبهة التي تعتبر الأكثر راديكالية بين الجبهات اتفاقيات السلام مع الحكومة المالية، مما أكسب زعيمها ألقا جماهيريا في حينه.
4. **الجيش الثوري لتحرير أزواد (A.R.L.A)**: ويرأسه الدبلوماســـي عبـــد الرحمن كلا، وهو الأقل شهرة بين الفصائل وحديث التأسيس نسبيا.

وقد جاءت ردة فعل الجيش المالي عنيفة وانتقامية علـــى تلـــك النجاحـــات العسكرية الإعلامية التي أحرزها الطوارق المنتفضون، وكان المدنيون قبل المـــسلحين الخاسر الأكبر والضحية المباشرة لعمليات الجيش المالي العسكرية والمليـــشيا الأهليـــة التابعة له، والمعروفة بـــ(غند غواي)، والتي تتشكل أساسا من عرقية الصونغاي، وقد

نزح مئات آلاف من مدنهم وقراهم إلى دول الجوار المالي: الجزائـــر ومـــالي وليبيـــا وبوركينا فاسو، أوصلت بعض التقدير أعدادهم إلى السبعمائة ألف.

وقد حاول قادة الحركات المسلحة في الإقليم استثمار النجاحات التي حققوها في محادثات (تمنراست) التي جرت خلال العام 1991 بوساطة من الحكومة الجزائرية، وهو ما تم بالفعل، حيث انتزعوا اعترافا ثمينا من الرئيس المالي الأسبق (موسى تراوري) بقضيتهم، ووقعوا معه اتفاقية سلام تنص على منحهم حكما ذاتيا، على أن يتم البت لاحقا في آلياته، غير أن معارضة الجيش إضافة إلى قطاع عريض من الطبقة السياسية المالية للاتفاقية أجهضها قبل أن ترى النور على أرض الواقع، وهو ما ترجم في انقلاب 1992 الذي قاده الجيش المالي ضد الرئيس تراوري، وألغى على أثره الاتفاقية مغلبـــا الخيار العسكري من جديد، مما شكل انتكاسة قوية لجهود استتباب السلام في الإقليم، وزعزع ثقة الطوارق في مصداقية الوعود التي يطلقها الساسة الماليون، وهو ما عكسته جليا طبيعة التعاطي مع اتفاقيـــات الـــسلام اللاحقـــة الـــتي أبرمهـــا الطرفـــان في سنوات:(1996 و 2006 و 2009)، حين لم تساو قيمة الحبر الذي كتبت بـــه، فيما تبادل الطرفان المالي والطارقي الاتهامات بشأن خرق بنودها، حـــتى إذا لاحـــت بارقة أمل ركب الرجال الزرق أسنة رماحهم، ملبين نداء الحرية والكرامة، فكانـــت ميناكا الثانية) نقطة الصفر لبداية الانتفاضة الثالثة الحالية، وكأنها دمشق في بيت نزار:

كتـــب الله أن تكـــوني دمـــشق   بـــك يبـــدأ وينتـــهي التكـــوين

المبحث الخامس
انتفاضة الطوارق الثالثة والحركات الصاعدة

جرت مياه كثيرة من تحت الجسر منذ أحداث ميناكا سنة 1990، وتغيرت أسماء ومسميات، وظهر لاعبون جدد وغاب آخرون، وتبادل العديد من رفاق السلاح المواقع والأدوار، ودار الزمان دورته بعمر جيلين، وظلت القضية الأزوادية حية في وجدان أهلها برغم مساعي النسيان والتغييب التي تلاقت عندها إرادة ومصالح أكثر من طرف إقليمي ودولي تزعجه رؤية كيان مستقل باسم الطوارق، سرعان ما يتحول في نظره إلى "بيضة قبّان" يسعى الكل إلى احتضانها والتأثير في دورة حياتها حتى لا تشكل من جديد الحاضنة الملائمة لتفريخ المزيد من الكتاكيت في غابة اعتاد كبار الديكة جعلها محمية خاصة بهم، غير أن رياح الربيع العربي العاتية جرت هذه المرة بما لم يكن في حسبان ملاك الحدائق الداجنة بدول الساحل الإفريقي، وممن طبقوا نصيحة سيدهم الفرنسي (كلوزيل)، ومقتضاها أنه: "لا بد أن لا يخرج الطوارق من إطار يختلف عن حديقة حيوانات"، حين حطم الطوارق أسوار الحديقة، وتنسموا عبق الحرية في فضاء الصحراء الطلق، وقد أنعش تهاوي صروح عتيدة من حولهم الآمال في بعث حلم الاستقلال، فكانت (ميناكا الثانية) التي خططت لها ونفذتها بنجاح (الحركة الوطنية لتحرير أزواد) فجر الثلاثاء 17 يناير 2011؛ وهي العملية التي كسرت حاجز الخوف النفسي، وشجعت لاعبين جدد على الدخول على خط المواجهة مع وحدات الجيش المالي، فتوالى سقوط مدن وبلدات الإقليم الواحدة تلو الأخرى مثل تهاوي قطع الدومينو عند ما تفقد انتظامها بانهيار القطعة الأولى منها، ليستيقظ أهل أزواد على فجر جديد مختلف تماما في الطعم والمذاق عن تلك الصباحات الرتيبة المتثاقلة في مرورها كغيوم الشتاء العبوسة الكالحة.

تغيرت الخارطة الجيوسياسية للمنطقة إذن وسط فرز إيديولوجي وعرقي حاد، واصطفاف إقليمي ودولي لافت، وتم خلط أوراق اللعبة مجددا وبشكل غير مسبوق، حيث غابت أطراف إقليمية مؤثرة كانت تمسك بـ70% من أوراقها، وتراجع دور

أخرى، ودخلت على ا لخط قوى جديدة، وبدا أن التحكم في سفينة الإقليم الجانحة أصبح من الصعوبة بمكان، مما يتطلب تضافر جهود أكثر من طرف إقليمي ودولي، خصوصا إذا ما أخذنا في الحسبان أن القوى والحركات التي أفرزها الحراك الحالي هي في معظمها قوى صاعدة غير تقليدية، ويصعب بمكان التكهن بردات فعلها أو طبيعة ما تعتزم القيام به في المستقبل في مواجهة الهجمة الشرسة من فرنسا وتحالفها الدولي والإقليمي، فمَا يبدو للعيان قد لا يكون أكثر من رأس جبل الجليد فقط، ودروس التاريخ القريبة تعلمنا أن الضربات الجوية الخاطفة والعمليات الجراحية السريعة لا تحسم المواقف الحربية في مواجهة مثل تلك الجماعات العقائدية المنظمة التي تملك القدرة والإرادة لخوض حروب عصابات طويلة النفس، وبتكتيكات عادة ما تربك الخصم المتلهف للحسم السريع تماما مثل الفرنسيين، الذين سرعان ما نفضوا أيديهم من العملية وسلموا المناطق التي ادعوا تحريرها لقوات أممية قوامها اثنا عشر ألف جندي، فيما تراجعت الحركات الجهادية المسلحة إلى خطوطها الخلفية في عمق الصحراء الكبرى وأعالي الجبال.

وغداة الغزو الفرنسي للمنطقة كانت خارطة المشهد السياسي والعسكري لمختلف القوى المنتشرة في الشمال المالي من الحركات المسلحة على النحو الآتي[1]:

1) حركة أنصار الدين:

وهي كبرى الجماعات المسلحة، وأهمها في الشمال المالي، وهي ذات مرجعية فكرية سلفية تسعى إلى تطبيق الشريعة الإسلامية على كامل التراب المالي، اتسم موقفها من الانفصال بالغموض المتعمد في البداية، ويشكل أبناء الطوارق معظم مقاتليها، وقد تمددت عسكريا في الإقليم قبيل الغزو الفرنسي على حساب الحركة

[1] - من ضمن ما اعتمدنا عليه في تحرير هذا المحور دراسةهامة أعدها الباحث والمتخصص في شؤون الجماعات الإسلامية علي عبد العال بعنوان: "الجماعات الإسلامية في مالي، خريطة معلوماتية"، منشور على الموقع الألكتروني للمعني، إضافة إلى مصادر متعددة أخرى.

الوطنية لتحرير أزواد التي كانت الأسبق، قبل أن تتمكن رفقة شقيقتها "التوحيد والجهاد" من دحر قوات الحركة والدفع بها بعيدا خارج المدن الكبيرة.

مؤسس الحركة هو إياد غالي المنتمي إلى قبيلة (إيفوقاس) إحدى أبرز قبائل الطوارق، وإياد غالي شخصية مثيرة للجدل، وهو أحد أهم أمراء الحرب بالإقليم، بل يكاد يكون الثابت الوحيد في المعادلة الأزوادية وسط الأحداث المتسارعة والمتغيرة من حولها. كان أول ظهور عسكري بارز له في جنوب لبنان عند ما أرسله الزعيم الليبي الراحل القذافي رفقة العشرات من مقاتلي الطوارق إلى لبنان لمساندة الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين (القيادة العامة) التي يرأسها أحمد جبريل ودعمه في التصدي للغزو الإسرائيلي 1982، ثم عاد إلى ليبيا مجددا ليشكل رفقة بعض زملائه أول خلية لحشد الدعم لصالح الشعب الأزوادي، سرعان ما تبلورت في ثوب "الجبهة الشعبية لتحرير أزواد" التي تولى هو قيادتها بنفسه فيما عرفت انشقاقات لاحقة عملت على إضعافها.

بدأ إياد غالي سيرته قوميا معتدلا، وانتهى جهاديا متشددا، حارب بشراسة في التسعينيات ضد الجيش المالي، قبل أن يميل إلى موادعة الدولة المالية التي عينته قنصلا لها بجدة 1992م، حيث تأثر في السعودية بالفكر السلفي، وأصبح من حملة المشروع الإسلامي، وعاد إلى مالي، ليعمل على توظيف رصيده الجماهيري والقبلي إلى ألقه النضالي في بناء حركة قوية، سرعان ما كسبت ثقة الجماعات المسلحة، لاسيما تنظيم القاعدة في بلاد المغرب الإسلامي.

وقد تلقت الحركة ضربة قوية على يد القوات الفرنسية التي أحكمت سيطرتها على الإقليم بعد غارات جوية وهجمات برية منسقة رفقة حلفائهم من الأفارقة.

2) حركة التوحيد والجهاد:

انشقت عن تنظيم القاعدة بعد رفضه طلب أفرادها تأسيس كتيبة خاصة بالمقاتلين من أبناء القبائل العربية في أزواد أسوة "بسرية الأنصار" في تنظيم القاعدة التي تضم المقاتلين الطوارق.

وتهيمن على قيادة الحركة عناصر من قبيلة (الأمهار) العربية الأزوادية، يرأس هذه الحركة أحمد ولد عامر، ويقود جناحها العسكري المدعو سلطان ولد بادي،

إضافة إلى مفتيها الموريتاني حماد ولد محمد خيرو والمكنى بأبي القعقاع، وقد أحـــرزت نجاحات عسكرية خاطفة بعد سيطرتها على مدينة "كَاو" التي طردت منـــها الحركـــة الوطنية لتحرير أزواد.

وقفت الحركة وراء عملية اختطاف دبلوماسيين وأجانب من بينهم جزائريين في منطقة "غاو" إبريل من العام 2011، ونفذت الإعدام بحق أحدهم.

وقد اعتبر زعيمها ولد عامر في أول ظهور إعلامي له أن: "التهديد الـــدولي قدر كوني، مؤكدا أنه لا بد من مواجهته ودفعه بالقتال والجهاد، وتحريض المـــسلمين على كسر شوكته"

3) القاعدة في بلاد المغرب الإسلامي:

يقيم هذا التنظيم قواعد خلفية له في مناطق الصحراء الكبرى، ومـــن بينـــها الشمال المالي منذ سنوات، وينطلق منها لشن عملياته، ولذلك يعتبر التنظيم المـــسلح الأقدم في المنطقة والأكثر خبرة.

يتزعم أبو مصعب عبد الودود أو (عبد الملك دروكدال) هذا التنظيم، ويرتبط بعلاقات متشابكة مع سكان الإقليم من طوارق وغيرهم.

ويسود اعتقاد لدى المتابعين للموضوع بالمنطقة أن القاعدة هي حلقة الـــربط الأساسية بين مختلف التنظيمات الجهادية، وأن معظم العناصـــر المنخرطـــة في هـــذه التنظيمات إنما خرجت من عباءة القاعدة باعتبارها الحركة الأم، وصـــاحبة قـــصب السبق في إدخال المشروع الجهادي إلى المنطقة، حيث تنظر إلى نفسها كوصي روحي على الفصائل الجهادية الأخرى التي تقر له بالأوَّلية في الساحة الجهادية والدعوية، وإلى منظريه والمتصدرين للفتيا فيه تلجأ تلك الجماعات لحل القضايا الفقهيـــة والعلميـــة الشائكة[1].

ويقول تنظيم القاعدة أنه يسعى لتحرير المغرب الإسلامي من الوجود الغـــربي الفرنسي الأمريكي تحديدا والموالين له من الأنظمة المرتدة -بحسب تعـــبير التنظـــيم-

---

1) محمد محمود ولد أبو المعالي – إمارة أزواد الإسلامية، مقال منشور على موقع الجزيرة نت.

وحماية المنطقة من الأطماع الخارجية، وإقامة دولة كبرى تحكم وفق الشريعة الإسلامية.

وتعمل عناصر القاعدة في شمال مالي ضمن إطار إمارة الصحراء، وتسمى أيضا منطقة الجنوب، ويتولى إمارتها حاليا القائد السابق لكتيبة الفرقان يحيى أبو الهمام، أما الناطق الرسمي باسمها فهو عبد الله الشنقيطي.

وكان يتبع لأمير الصحراء المذكور أربع مجموعات عسكرية وكتيبتان وسريتان، فالكتيبتان هما: كتيبة طارق بن زياد، وأميرها عبد الحميد أبو زيد، الذي شاع خبر استشهاده في مواجهة قوات التحالف بقيادة الفرنسيين، وكتيبة الملثمين وأميرها مختار بلمختار (بلعور)، أما السريتان فهما: سرية الأنصار، وأميرها عبد الكريم التاركي، وسرية الفرقان التي كان يتولى قيادتها يحيى أبو الهمام.

غير أن التنظيم عزل بلعور من قيادة السرية السابقة "الملثمين"، وهو الأمر الذي يبدو أنه لم يرق له فانفصل عن القاعدة تنظيميا على الأقل، ليكوّن جماعته الخاصة.

وقد أصدر التنظيم في الآونة الأخيرة شريط فيديو مصور تحت عنوان: (وأعدوا لهم) تضمن كلمة لقائد التنظيم أبو مصعب عبد الودود" قال فيها: "إن القاعدة ستعمل على إطالة أمد الحرب الحالية من أجل تعميق الجراح، وتكبيد البلدان المشاركة فيها أكبر خسارة، متعهدا بجعل الصحراء مقبرة لجنود التحالف الغربي".

وأكد أن القاعدة "ستحرص على أن تطال شظايا الحرب كل البيوت الزجاجية الهشة المشاركة في العدوان"، مذكرا بما تحقق من هزيمة للأمريكان في العراق وأفغانستان".

4) كتيبة أنصار الشريعة:

وقد تأسست في الآونة الأخيرة على يد عمار ولد حماها، الذي تلقبه وسائل الإعلام الغربية "بصاحب اللحية الحمراء"، وهو ينحدر من قبيلة (البرابيش) العربية المنتشرة بإقليم أزواد، وكان قد طاف على كل الجماعات الجهادية بالإقليم قبل تشكيل الكتيبة التي أرادها أن تكون قطبا جديدا يحتضن أبناء قبائل البرابيش والعرب

الذين تقاعسوا عن الجهاد حسب ما قال، وقد استطاعت الكتيبة استقطاب بعض الأفراد إلى صفها، خصوصا من أبناء قبيلته وغيرهم من عرب أزواد، وفي محاولة منه لإبعاد أي صبغة قبلية أو عرقية عن جماعته، قال ولد حماها: "إن الباب مفتوح لكل المسلمين من عرب وعجم وسونغاي، وأن الدعوة ليست مقصورة على أبناء تينبكتو، وأكد أن بعض أبناء قبائل السونغاي الموجودة على ضفاف نهر النيجر قد قررت التطوع والانضمام إلى صفوف الجماعة.

أما عن التاريخ الحركي لعمار ولد حماها فقد ابتدأ نشاطه الإسلامي من جماعة الدعوة والتبليغ لينتقل بعدها من المرحلة التربوية إلى ما وصفه بمرحلة السيف مع تنظيم القاعدة ببلاد المغرب الإسلامي ناشطا ضمن "كتيبة الملثمين"، لينتقل منها إلى "الجهاد والتوحيد"، فحركة "أنصار الدين". رحلةٌ مثيرة!، قال الرجل إنها لم تكن بسبب "سُخط" جعله ينسحب من هذه الجماعات، والتي يعتقد أنها تجتمع على ذات الهدف الواحد، وهو "العقيدة السليمة، ورفع راية الجهاد".

5) كتيبة الموقعين بالدماء:

وقد شكلها الجزائري خالد أبو العباس أو مختار بلمختار بعد عزله مباشرة من قيادة "كتيبة الملثمين"، وقد نشرت عدة مواقع تصريحات له، قال فيها إن كتيبته ستحترم أي خيار تتفق عليه حركتا "أنصار الدين" والتوحيد والجهاد، وكذلك القبائل التي دعت لتطبيق الشريعة ما لم يخالف أصلا من أصول الشرع.كما توعد كل من يشارك أو يخطط للحرب في شمال مالي، وهي الحرب التي قال أنها "خطة خبيثة ماكرة وحرب بالوكالة عن الغرب".

ووجه مختار بلمختار دعوة مفتوحة إلى العلماء وطلاب العلم وأبناء الدعوة الإسلامية جميعا في موريتانيا إلى ما قال إنه: "الهجرة لنصرة إخوانهم المسلمين في أزواد"، مشيرا إلى أنهم "يدركون حجم المعاناة، وكذلك الجهل وقلة العلم المنتشرة في هذه الأرض، وكان الأولى أن تكونوا سباقين بالوقوف في نصرة هذا المشروع الإسلامي بحكم القرابة والجوار، وقد سبقكم البعيد"، يقول موجها كلمته للموريتانيين.

وقد اندمجت الكتيبة التي يقودها مختار بلمختار مؤخرا مع "حركة التوحيد والجهاد" تحت مسمى: "المرابطين"، و لم يكشف الطرفان المندمجان اسم قائد التنظيم الجديد، وإن اكتفى بلمختار بالإشارة إلى أن الوقت قد حان لإفساح الطريق أمام الجيل الجديد من القادة لتسلم دفة القيادة، ومن المنتظر أن يعطي الاندماج السابق زخما معنويا وعسكريا للتنظيم الجديد الذي سيزاوج بين حنكة وخبرة "بلعور" إلى الوفرة العددية والإمكانات اللوجستية للتوحيد والجهاد.

6) الحركة الوطنية لتحرير أزواد:

وكانت قد تشكلت من اندماج فصيلين هما: "الحركة الوطنية الأزوادية" و"تحالف الطوارق شمالي شرقي مالي للتغيير" الذي يرأسه الراحل إبراهيم باهنگا، وقد وقع وثيقة الاندماج خلفه حم أك سيد أحمد، وانضم إليهما لاحقا القائد العسكري القادم من ليبيا بالرجال والسلاح "محمد آك ناجم"، وتضم الحركة في تركيبتها توماسيتين (قوميين بلغة الطوارق) وليبراليين ومستقلين وآخرين لا يعرف عنهم انتماء إيديولوجي محدد[1].

وتغلب عليها عناصر قبلية من "ايدنان" رغم نفي الحركة أي صبغة قبلية أو طائفية لها، وقد تأسست في مطلع نوفمبر 2010، حيث يتولى أمانتها العامة حاليا محمد آگ علي، ويعود لهذه الحركة الفضل في إطلاق شرارة الانتفاضة الثالثة الحالية، والتي أحكموا خلالها في هجوم سريع ومباغت سيطرتهم على مدينة (ميناكا) ثالث أكبر مدن الإقليم، وبعدها (تساليت) ثم (تيسيت)، وأعلنت استقلال إقليم أزواد في السادس من إبريل 2012، متخذة من "گاو" عاصمة لها، غير أن الحركة سرعان ما احتكت عسكريا بالجماعات الجهادية الإسلامية بالإقليم، مما اضطرها للانسحاب من معظم المدن التي كانت قد سيطرت عليها بعد أقل من ثلاثة أشهر فقط من دخولها الإقليم ودحرها للقوات المالية، لكنها عادت مجددا إلى الإقليم بعد انسحاب الجماعات الإسلامية، وتراجعها إلى الخطوط الخلفية تحت تأثير الضربات الجوية والبرية للفرنسيين

---

1) محمد محمود ولد أبو المعالي – إمارة أزواد الإسلامية، مقال.

وتحالفهم الدولي، حيث تتمركز قواتها الآن في كيدال ومناطق أخرى، وظلت الحركة ولوقت قريب من أشد المنادين بانفصال إقليم أزواد عن الكيان المالي، إلا أن إجهاض المشروع الذي أعلنته وبقرار دولي أرغمها على تبني طرح سياسي أكثر واقعية، وهـــو ما دفعها للانخراط مجددا في التفاوض مع سلطات "باماكو" بعد أن رفضت ذلـــك في السابق من منطلق القوة حين كانت لها اليد الطولى في الساحة الأزوادية قبل دخـــول الحركات الجهادية على الخط والاجتياح الفرنسي لاحقا للإقليم المنكوب.

7) الحركة الإسلامية العربية لتحرير أزواد:

وتنشط في صفوف الأزواديين العرب، ولها توجهات إسلامية معتدلة، يعـــود تأسيسها إلى الثمانينات، حيث انشقت عن الجبهة الشعبية لتحرير أزواد التي أســـسها إياد غالي حوالي 1985.

ويتزعمها الدبلوماسي أحمد ولد سيد محمد الذي كرس الكثير من وقته لعرض قضية أبناء شعبة على المجتمع الدولي، وَقَبْلَهُ الأشقاء في العالمين العربي والإسلامي، وقد سعى لوضع حد لأعمال العنف التي غالبا ما تنشأ بين حركته والحركة الوطنية لتحرير أزواد عبر توقيع اتفاقية تفاهم بين الجانبين لتنحية خلافاتهما جانبا، وتوحيد الموقـــف على طاولة التفاوض مع الطرف المالي وغيره.

المبحث السادس
القضية الأزوادية في أجندة النظام الرسمي العربي

عاشت القضية الأزوادية لعقود على هوامش النظام الإقليمي العربي، و لم تحظ بأي اهتمام رسمي أو شعبي يذكر من العرب، رغم المساعي الحثيثة المبذولة من بعض الشخصيات الأزوادية للتعريف بالقضية وشرحِ مطالب أهلها للقادة العرب. فقد جاب الأمير محمد أعلي بن الطاهر الأنصاري العديدَ من عواصم المنطقة من الرياض إلى انواكشوط، مرورا بالقاهرة، آملا في كسر جدار التعتيم الإعلامي، ولفت الانتباه إلى حجم المأساة التي يتعرض لها بنو جلدته على يد آلة القمع المنظمة لنظام الرئيس "موديبو كيتا".

لم تكن مواقف عرب المشرق والخليج إزاء النظرة إلى القضية بأحسن حالا من مواقف نظائرهم في المغرب العربي، وإن كان هناك بعض التباين الذي أملته طبيعة التحالفات الإقليمية والدولية لهذا الطرف أو ذاك، أكثر من كونه نتاجا حقيقيا لقناعات أو مواقف مبدئية من كل القضايا الإنسانية العادلة، أحرى إذا كانت لأشقاء تجمع وإياهم العقيدة والتاريخ المشترك.

وهكذا انقسم عرب المشرق في مواجهة القضية خلال الخمسينيات والستينات كما يقول الكاتب الطارقي أبو بكر الأنصاري إلى ثلاث محاور[1]:

المحور القومي بزعامة عبد الناصر، ووقف في وجه المزاعم القائلة بعروبة الطوارق واعتبرهم مجرد أمازيغ أو بربر، و لم يكن يرغب في رؤية أي كيان أمازيغي يفصل بين أبناء القوميتين المتآزرتين العربية والزنجية، كما أنه لم يكن مستعدا للمجازفة بعلاقاته الحميمية مع اثنين من أبرز أعضاء "نادي الثوريين الاشتراكيين"، هما أحمد بن بله وموديبو كيتا، حيث يضم إضافة إليهما كلا من كوامي نكروما رئيس غانا وأحمد

1) أبو بكر الأنصاري: ثورة الطوارق في معادلة العلاقة الأمريكية العربية، مقال منشور على موقع الحوار المتمدن، غير مؤرخ.

شيخو توري رئيس غينيا. فما كان منه إلا أن غض الطرف عن المعاملة القاسية التي لقيها الطوارق على يدي هذين الزعيمين، حيث يقيم ببلديهما العدد الأكبر من الطوارق.

فابن بَلّه نعتهم بأنهم: "كذابون وخارجون على القانون، ومتمردون على دولهم"، وأخضع مناطقهم في الجزائر لإجراءات استثنائية طوال سنوات حكمه، وَسَلَّمَ من التجأ إليه منهم أثناء ثورة كيدال 63 للذبح والسجن القاسي. أما (بوكيتا) فقد قمع انتفاضتهم ضد الظلم بوحشية بالغة، ليستقبل بعد أشهر في القاهرة استقبالَ الأبطال أثناء القمة الإفريقية المنعقدة بها في العام 1964م، وهو الموقف المتخاذل المخجل الذي عَرَّى أصحابه ممثلُ جزر مدغشقر في القمة رئيسها "فيلبير تسيرانانا" عند ما وجه سيلا من النقد اللاذع لمعظم الحاضرين وخاصة الزعماء الثوريين، حيث أعلن منذ الوهلة الأولى أنه لا يشاطر الحاضرين تفاؤلهم بمستقبل القارة في ظل القمع وعدم التسامح، ضاربا المثل برؤساء كل من غينيا وغانا ومالي بأسمائهم، حيث يتشدقون بالثورية والحرية، وهم يقتلون مواطنيهم، ذاكرا بالاسم الزعيمين الماليين المعارضين: سيسكو وديكو اللذين لم تجف دماؤهما بعد، حيث أُعدما قبل أيام قليلة من انعقاد القمة بأمر من "بوكيتا" نفسه، ثم هاجم النفاق السياسي، خاصة في العلاقات الدولية، قائلا: "إن تماديتم في هذا النهج سأبقى في جزيرتي خارجا عن إفريقيا، ولن أكون مثلكم في النفاق"[1].

"وقد ظل الحاضرون (لهذه القمة) -بمن فيهم أعضاء الوفود المدعوون والصحفيون- مشدوهين بين غاضب مستنكر، ولاه مستمتع بهذا الخطاب الطويل، وهو ما انطبق على الرؤساء أنفسهم، خاصة بوكيتا ونكروما اللذين كانا في أشد حالات العبوس، يلوح أعضاء وفديهما خلفهما بأيديهم استنكارا للحديث، أما عبد الناصر وسنغور والحسن الثاني وغالبية الرؤساء فقد تابعوا بإصغاء وكأنهم في مسرح،

1) محمد محمود بن ودادي ، مرجع سبق ذكره.

بينما لم يتحكم المختار ولد داداه وأحمد بن بله وعدد من الوزراء من كبت نوبة الضحك التي أصابتهم".

كان خطاب تسيرانانا ذاك فصلا آخر من "كوميديا سوداء"، يبدو أن عبد الناصر لم يحسب حسابه في استعراض "هوليودي باهر"، حسب أنه أعد خشبته بعناية تليق باحتفالات ذكرى ثورة 23 يوليو التي صادفت انعقاد تلك القمة القوية، واجتهد فيها المزوقون لتبدو القاهرة كما لو كانت الزعيمة الأولى للقارة الإفريقية إلى جانب العالم العربي.

المحور الثاني: محور الملكيات المحافظة، وخاصة الإمارتين الهاشميتين في العراق والأردن، وقد جلى موقفهما السياسي العراقي المخضرم نوري السعيد[1]، وكان عضوا مؤسسا للجامعة العربية إلى جانب رئيس الوزراء المصري الأسبق مصطفى النحاس الذي نافسه على أمانتها العامة.

ورغم أنه كان يوصف بأنه رجل الغرب الأول في المنطقة، وخاصة التاج البريطاني إلى جانب كونه مهندس حلف بغداد 1954، إلا أن التاريخ يسجل له بعض المواقف القومية القوية كمشاركته فيما يعرف "بالثورة العربية" بقيادة الشريف حسين، وكذلك موقفه القوي من عروبة الطوارق، حيث كان من الداعمين لقضيتهم، والوقوف في وجه ما حاق بهم من ظلم وتهميش، وكان يعتبرهم قوة ورصيدا داعما تاريخيا للأمة العربية، غير أن رحيله في وقت مبكر قبل تجذر القضية، إضافة إلى سطوع نجم المحور القومي الرافض للطوارق إثر نجاح ثورة 23 من يوليو في مصر بقيادة عبد الناصر كرس عزلة المحور الهاشمي إقليميا، وقلّص من نفوذ نوري السعيد داخل أروقة الجامعة العربية، ليتلاشى ذاك المحور نهائيا بمقتل نوري السعيد إثر انقلاب 1958 بالعراق على يد عبد الكريم قاسم.

---

1) ولد نوري السعيد 1882، وسقط قتيلا على يد قوات عبد الكريم قاسم 1958م، تولى الوزارة في العراق 14 مرة، وظل الرجل الفاعل في السياسة العراقية حوالي 30 عاما وحتى اغتياله المذكور.

المحور الثالث، وكانت تقوده العربية السعودية إلى جانب اليمن الإمامية يومها، وكان موقفه وسطا بين اندفاع نوري السعيد وإحجام القوميين العرب، كما كان يسترشد بتوجيهات السياسة الخارجية الأمريكية التي كانت تنصح حلفاءها بترك شأن تدبير مستعمرات فرنسا الإفريقية لها، كما كان السعوديون على تنسيق تام في هذا الشأن مع العرش العلوي الذي تربع عليه يومئذ الملك محمد الخامس، وكانت سياسته تقوم بشكل واضح على الدفع بالطوارق نحو القبول بالمواطنة كرعايا للعرش العلوي ضمن مملكة كبرى تضم إلى جانبهم كلا من المغرب وموريتانيا، وكانت مدينة تينبكتو قد انتفضت احتجاجا على عزل الفرنسيين للملك المغربي محمد الخامس لمدة ثلاث سنوات من 1953م وحتى 1956، فألحقوها لفترة بمستعمرة السينغال عقابا لها قبل أن يقرروا إرجاعها مجددا إلى الكيان المالي.

وكما سبق وأسلفنا فقد كان الاهتمام المغاربي -على الأقل- في جانبه الرسمي بالقضية الطارقية هامشيا ومتلونا في أغلب الأحيان بالمصالح والحسابات الخاصة لهذا القطر أو ذاك، حيث انشغلت معظم الأطراف الخارجة لتوها من كنف الاستعمار بحيثيات الأوضاع الخاصة بترتيب بيتها الداخلي، والتهيئة لمرحلة ما بعد الاستقلال، حيث كانت تعتقد أن لديها ما يكفي من التعقيدات الموروثة عن الحقبة الاستعمارية، والتي ليس أقلها مشاكل ترسيم الحدود الموروثة، واقتسام الثروات المائية ومشاكل الإثنيات وغيرها من المعضلات التي تركها المستعمر كألغام متحركة وقابلة للتمدد والانفجار في كل لحظة.

بقي التجاهل السياسي والتعتيم الإعلامي إذن سيدَ الموقف منذ أحداث كيدال الدامية، ومرورا بما جرى في التسعينيات وما تلاها من احتراب بين القوات المالية والحركات المسلحة المنتفضة، وما انجر عن ذلك من مجازر وتشريد في صفوف المدنيين والمقاتلين الأزواديين تَغاضَى عنها المجتمع الدولي ومنه معظم العرب مقابل اصطفاف مالي إلى جانب التحالف الدولي المتشكل غداة غزو العراق للكويت خلال تلك الفترة.

حتى فَرضت القضية نفسها وبقوة على مسرح الأحداث الدولية إثر استكمال الجماعات المسلحة من إسلامية وغيرها السيطرة على الإقليم والشمال المالي عموما في مارس 2012.

المبحث السابع
انعكاسات القضية على المحيطين الإقليمي والدولي

أولا. دول الجوار الإقليمي: مصالح ومخاوف

تمتلك مالي واحدة من أطول الحدود في القارة الإفريقية، حيث تشترك في الحدود مع سبع بلدان هي: موريتانيا، الجزائر، النيجر، بوركينا فاسو، السينغال ، غينيا، ساحل العاج، ويقع إقليم أزواد بين أربعة من هذه الدول هي: موريتانيا، الجزائر، النيجر، بوركينا فسو، وتمثل الثلاثة الأولى من تلك البلدان أبرزَ اللاعبين الإقليميين على المسرح المالي، إضافة إلى بلد خامس هو المغرب، وهي وإن لم تكن تمتلك حدودا مشتركة مع مالي، إلا أن روابطها التاريخية إضافة إلى وجود تجانس عرقي كبير في التركيبة الاجتماعية مع معظم ساكنة الإقليم عربا وطوارق على حد السواء منحَ المغرب دائما حضورا وتأثيرا في المشهد السياسي والثقافي والاجتماعي بالإقليم.

وهو الحضور الذي تتقاسمه، وإن بدرجات متفاوتة، بلدان الجوار الأزوادي السابقة، فقد شكلت على امتداد التاريخ فضاء للحركة المجالية "للرجال الزرق"، بل إن الديناميكية النشطة لحركتهم امتدت لأوسع من ذلك، فمن واحة (سِيوَ) بجنوب مصر إلى سهول "فزان" بليبيا، ومن جبال "الهكّر" بالجزائر إلى "أزْواكْ" بالنيجر، ومن أزواد بمالي إلى الحوض بموريتانيا: رسم الطوارق بشواهد حية من ثقافاقم وتقاليدهم الاجتماعية المتوارثة حدودَ عالمهم الافتراضي الواسع، عالمٍ لم يعرف التصالح مع الجغرافيا إلا في اضيق الحدود.

بقي الطوارق ينظرون دائما إلى الحدود الجغرافية التي رسمها المستعمر بيد مرتعشة وسط مناطق انتشارهم وتحولت لاحقا إلى كيانات منفصلة، حواجزَ نفسية تنكأ الجراح الغائرة، وتذكرهم على الدوام بفداحة الجرم الذي اقترفه المستعمر في حقهم حين مزق سلطناقم المترابطة في ما بينها بعلاقات "سيامية"، بين أكثر من قطر تغلب عليها قوميات وعرقيات قد لا تراعي بالضرورة الحقوق المتعلقة بخصوصياقم

الثقافية والاجتماعية. هذا الترابط وذلك التداخل في النسيج الهوياتي الإثني والثقافي بين تلك البلدان يفسر إلى حد كبير سر هذا التداعي الدراماتيكي والاهتمام اللافت بالشأن الأزوادي فجأة، وكأن "القضية الأزوادية" قد ولدت لتوها، بعد عقود متراكمة من التجاهل والنسيان لمعاناة هذا الشعب المصابر.

إنها معادلة "الفرص والتهديدات" التي لا تعرف التمفصل بين السياسي والاقتصادي، حركت المياه الراكدة من تحت الجسر، ودفعت الجميع لتفقد مواقعهم، وتحسس قبضات أيديهم في ضوء دخول لاعبين جدد إلى الساحة، ومغادرة آخرين، وصعود قوى جديدة غير تقليدية وسط هبوب رياح الربيع العربي العاتية التي تعد بتغيير سياسي جذري يمسح من على الطاولة كل ما بنته الأنظمة الفاسدة بالمنطقة المتحالفة في أغلبها مع القوى الاستعمارية السابقة.

فما هي انعكاسات هذه الأزمة على تلك البلدان؟ وكيف تبدو خريطة المصالح والمخاوف في ضوء ما يحدث، والخاصة بكل طرف على حدة؟ وما هو المتغير الجديد الذي أخل بتوازن القوى التقليدية وأيقظ المارد من سباته العميق؟

1. الجزائر:

لم تكد الجزائر التي تمتلك حدودا طويلة نسبيا مع مالي بمحاذاة أزواد (حوالي 1330 كلم) تغيب عن المشهد السياسي والأمني بالمنطقة، حيث بقيت ولوقت قريب أبرز اللاعبين الإقليميين، وأكثرهم خبرة ودراية بخبايا وتعقيدات الملف الأزوادي، فقد رَعَت الدبلوماسية الجزائرية طوال العقدين الماضيين معظم اتفاقيات السلام بين الحكومة المالية والحركات المسلحة، وحافظت على علاقات ودية مع مختلف الفرقاء، مكنتها من لعب دور الوسيط المقبول لدى مختلف الأطراف.

ظلت الجزائر تنظر دائما إلى الشمال المالي كعمق استراتيجي لها، يمثل باحتها الخلفية، ويرتبط بأمنها القومي ارتباطا جوهريا، ومن ثم فهي غير مستعدة بالمرة للسماح لمن يحاول العبث بها أيا كان لما يمثله ذلك من تهديد حقيقي لأمنها الاستراتيجي، حيث تتركز معظم ثرواتها الطبيعية على الشريط الحدودي الغني

بالجنوب (البترول، الغاز)، وحيث أيضا ينتشر بنو جلدة الأزواديين من طوارق الجزائر.

أكدت الجزائر منذ اندلاع الأزمة على أهمية اعتماد مقاربات دبلوماسية لحلها، ومنح الوقت الكافي لمختلف الأطراف لفعل ذلك بعيدا عن الحلول العسكرية المتعجلة، إذْ من التقاليد والأعراف الراسخة للدبلوماسية الجزائرية وهي أيضا عقيدة عسكرية لدى الجيش الجزائري عدمُ التدخل في الشؤون الداخلية للجيران، ولذلك امتنع الجزائريون عن تأييد إعلان الاستقلال الذي أصدرته الحركة الوطنية لتحرير أزواد، مع تشديدها في المقابل على ضرورة احترام وحدة وسلامة الأراضي المالية، لتبدو الجزائر بموقفها ذاك كمن يكيل بمكيالين، فمن جهة تساند حق الشعب الصحراوي المشروع في تقرير المصير، وتعترف بإعلان جبهة البوليساريو الاستقلال رغم وجود معظم أراضي الصحراء الغربية بيد المغرب، فيما تتجاهل وجود مثل ذلك الحق بالنسبة للأزواديين حين سيطروا على كامل أراضيهم، وكأن الحدود المالية -كما يحتج المغاربة- أكثر قداسة من نظيرتها المغربية؟

ودوافع تحفظ الجزائريين على انفصال أزواد، وسعيهم المستمر لاحتواء القضية الطارقية سياسيا عبر أكثر من وسيلة، مسألة مفهومة، وكذلك حساسية موقفهم وسط تصاعد دعوات من هنا وهناك تحث طوارق الجزائر للتحرك على غرار ما فعله إخوانُهم الأزواديين للانفصال عن الحكومة المركزية في الجزائر استيفاء لالتزامات، ووعود سابقة يزعم البعض أن بعض القادة من ثوار جبهة التحرير قد قطعوها على أنفسهم أثناء مفاوضات "إيفيان" مع الرئيس الفرنسي "ديگول" بخصوص إجراء استفتاء حول تقرير المصير لصالح الطوارق الجزائريين، وهو ما لم يتم أبدا. واستباقا منه لأي تطورات غير محسوبة قد تحصل: أوفد الرئيس الجزائري "بوتفليقة" وعلى عجل وزيره الأول السابق "أحمد أويحيى" إلى "تمنراست" كبرى ولايات الجنوب الجزائري للقاء الزعيم التقليدي للطوارق "أحمد إيدابير" أو (أمين العقال كما يلقب)، والذي تربطه علاقة سياسية وثيقة مع أويحيى، حيث وعد حسب ما أوردته "وكالة الأنباء

الجزائرية" بالتنسيق ومساندتها في الحفاظ على استقرار المنطقة، والنهوض بواقع التنمية فيها.

ولم تكتف السلطات في الجزائر برسائل الطمأنة السياسية التي تلقتها من (أمين العقال) الذي يمتلك نفوذا تقليديا واسعا، ويحظى باحترام كبير في صفوف إثنيته، وإنما دفعت بتعزيزات عسكرية قوامها خمسة آلاف جندي إلى الحدود مع مـالي لمنع أي محاولة للتواصل بين الأخوين على جانبي الحدود، ووضع الحذاء العسكرية قبل اليد على أي تحرك في المهد قد يغير من الترتيبات والأوضاع القائمة منذ استقلال الجزائر.

2. المغـــرب:

منذ القرن السادس عشر وعيون المغاربة مفتوحة على مملكة (السونغاي)، حيث المماح الصحراوية الغنية، والتي كانت موضع اهتمام بالغ من ملوك المغرب السعديين، حيث حاولوا الحصول على نصيب من موارد الضرائب المتأتية منها دون جدوى، مما اضطرهم لتجريد حملة عسكرية قوية قوامها عشرون ألف مقاتل بقيادة (الباشا جودر)، اخترقت المجال الموريتاني حتى وصلت إلى مملكة السونغاي وألحقت الهزيمة بجيشها، ودخلت أهمَّ مدن الإقليم ابتداء من عاصمة المملكة السياسية "غاو"، وعاصمتها الثقافية "تينبكتو" التي دخلتها في الثلاثين من مايو 1591، ونكلت بمن فيها من العلماء، ورحلت المتبقين منهم في قوافل مخجلة إلى مراكش، كانت آخرها تلك التي ضمت العلامة الشهير أحمد باب التينبكتي سنة 1594، وقد شكلت تلك الحملة وما أفرزته لاحقا من تفاعلات سياسية وثقافية الخلفية التاريخية للارتباط المغربي بالإقليم عدا الروابط العرقية والروحية الأعمقَ من ذلك بكثير، ومن ثم فلم يكن من المستغرب الانغماس المغربي في مفردات "الشأن الأزوادي" وكأنه شأن مغربي داخلي، ينضاف إلى تلك العوامل عامل محفز آخر يتعلق بالتنافس التقليدي بين الدبلوماسية المغربية ونظيرتها الجزائرية في المحافل الدولية والإقليمية.

لم تستطع المغرب إخفاء مخاوفها من قيام كيان انفصالي صغير قريبا من حدودها، سرعان ما ينعش آمال من تصفهم بالانفصاليين من أبناء جبهة البوليساريو

في إقامة كيانهم الخاص أيضا، خصوصا وأنها قد اتهمت هذه الأخيرة بتزويد الجبهة الوطنية لتحرير أزواد بشحنة أسلحة هامة، لذلك سارعت ومنذ اللحظة برفض إعلان الاستقلال من طرف الحركة الوطنية لتحرير أزواد، حيث اعتبرته أمرا غير مقبول البتة بالنسبة للملكة المغربية، بالنظر لتداعياته الخطيرة على السلم والأمن والاستقرار في المنطقة برمتها، كما أيد المغرب في بيان رسمي التدخل العسكري الفرنسي، واعتبره سبيلا لاحترام الوحدة الترابية المالية وتلافي انهيار هذه الدولة، معتبرا أن وجود الجماعات الانفصالية والمسلحة مهدِّدة للسلم والأمن الإقليمي والدولي.

ويواجه المغرب -الذي بنى جدارا أمنيا عازلا بطول 2720 كلم لمنع تسلل عناصر البوليساريو وغيرها من الجماعات- تهديدات جديدة من الجماعات الجهادية المقاتلة، وعلى رأسها "قاعدة الجهاد ببلاد المغرب الإسلامي"، وكتيبة "الموقعين بالدماء"، التي توعدت المشاركين في الحرب بالانتقام الشديد، لاسيما وأن المغرب قد لعب دورا كبيرا أثناء ترأسه لمجلس الأمن الدولي في ديسمبر 2012 في التعجيل باستصدار القرار الأممي (2085) الذي يسمح بإرسال قوات دولية إلى مالي، وذهب إلى أبعد من ذلك حين فتح مجاله الجوي لمرور الطائرات الحربية الفرنسية المتجهة إلى مالي، وأعلن بقوة دعمه للتدخل العسكري في الإقليم أثناء اجتماع وزاري عقد بالرباط، ضم إلى جانب وزير داخليته كلا من وزراء داخلية فرنسا، إسبانيا، البرتغال، وقدم خلاله المغرب مبلغ خمسة ملايين دولارا لتمويل البعثة الدولية لمساعدة مالي.

وإلى جانب تلك المخاطر والتهديدات منحت الأزمة المالية المغرب كما يقول الكاتب محمود معروف: "دوراً إفريقيا كان يفتقده أو يَبحث عنه دون أن يضطر للجلوس على مقاعد الاتحاد الإفريقي بجوار الجمهورية العربية الصحراوية التي لا يعترف بها، فمنذ اندلاع الأزمة سجل المغرب حضوره بكثافة في الكواليس الإفريقية عبر مشاركته الرسمية أو غير الرسمية في اجتماعات المجموعة الاقتصادية لدول غرب إفريقيا، أو عبر إرسال موفدين على هوامش القمم الإفريقية دون المشاركة رسميا فيها، وتأتي في هذا السياق مشاركة وزير خارجيته في القمة الإفريقية العشرين بأديس أبابا".

3. النيجـــــر:

هي إحدى دول الساحل المصاقبة للحدود الشمالية الشرقية لمالي، حيث ينتشر طوارق النيجر من ساكنة إقليم "أزواك" بمناطقه الرئيسية "آيير" و"أكاديس"، مشكلين مع أبناء عمومتهم من طوارق مالي نسيجا اجتماعيا متجانـــسا، قبـــل أن يتـــدخل الاستعمار ويمزقه عبر عملية تقطع إداري للحدود ظالمة، تجاهلت في أغلبـــها حقـــائق التاريخ، ووقائع الجغرافيا.

ظلت علاقة التأثير والتأثر بين الإقليمين الطارقيين قائمة على أشـــدها رغـــم محاولات الحكومات المتعاقبة في البلدين الفصل التعسفي بين الأشـــقاء علـــى كـــلا الجانبين، وهو ما لم يحل دون التواصل، بل والتنسيق اللوجيستي أحيانا كما حصل في انتفاضة "1990" المسلحة التي حدثت بتزامن متقارب في كلا البلدين.

ويتساءل البعض عن سر ذلك الاندفاع النيجري الشديد الذي تجـــاوز حـــد تسجيل المواقف الدبلوماسية إلى المشاركة العسكرية بقوات تناهز الخمسمائة جنـــدي في عملية "القط المتوحش" التي أطلقتها فرنسا ضد الجماعات المسلحة بالشمال المالي، مثلما يتساءل عن المصلحة الاستراتيجية للنيجر في تعريض قواهما للخطر مقابل القضاء على تلك الجماعات؟ وهل تشكل بالفعل تهديدا جديا للأمن القومي لتلـــك الدولـــة الصغيرة؟

ولا يمكن فهم الموقف النيجري هذا دون أن نستدعي من الـــذاكرة بعـــض الحقائق والمعطيات:

أولاها: التخوف الكبير لدى النيجريين من وصول كرة اللهب المتدحرجة من الشمال المالي إلى حدودهم الغربية المتاخمة له، حيث حقـــول اليورانيـــوم بمنجمـــي "سومير" و"كوميناك" المستغلّين من قبل شركة "أريفا" الفرنسية، وتعتمد النيجر على عوائدها منهما، وقد سبق لتنظيم القاعدة في بلاد المغرب الإسلامي أن اختطف خمسة من الفنيين الفرنسيين العاملين بالمنطقة، وارتفعت وتيرة المخاوف النيجرية الفرنسية من سقوط المناجم بأيدي الجماعات المسلحة في ضوء تهديدات أطلقتها الجماعة الأقـــوى

محليا وهي جماعة أنصار الدين التي صرحت بأنهما "تريدان تطبيق الشريعة على مالي بالكامل، بل وعلى دول غرب إفريقيا كلها".

وهي التهديدات التي تساوقت معها تصريحات وزير الدفاع الفرنسي حين أوضح أن ما أملى التدخل الفرنسي هو: "منع إقامة دولة إرهابية على أبواب أوروبا وفرنسا".

وثانيها: المخاوف النيجرية المتعلقة بمحاولة مواطنيها من الطوارق النسج على منوال إخوانهم من طوارق مالي في إقامة كيان خاص بهم في إقليم "أزواك" صحبة جيرانهم من العرب والتوبو بعد محاولات فاشلة للانفصال سابقا كان آخرُها في التسعينيات، إذ ما يزال السياسيون النيجريون يذكرون في حنق المحاولة الانقلابية الجريئة لضابط برتبة نقيب يُدعى (سيدي ولد لبات) كان يشغل وظيفة المرافق العسكري للرئيس المدني السابق: (هاماني جوري)، حيث حاول رفقة بعض زملائه الإطاحة بالديكتاتور (سيني كونتشي) عام 1978، فكانت رد فعل النظام قاسية، تجاوزت إعدام الانقلابيين إلى البطش والتنكيل بالقبائل الطارقية والعربية عبر الإعدامات الجماعية، وتسميمِ آبار المياه، وتهجير السكان، وفرض "حالة طوارئ" خانقة على الإقليم إلى أن تفجرت أحداث 1990 الدامية بالإقليم، وامتدت لتشمل أزواد أيضا.

حسمت النيجر موقفها إذن في وقت مبكر نسبيا من الحرب في جنوب مالي، وصرح وزير خارجيتها (محمد بازوم) أن بلاده سترسل (500) جندي للمشاركة في عملية عسكرية دولية في مالي، تقودها المجموعة الاقتصادية لدول غرب إفريقيا "الإيكواس" لكبح تقدم المتمردين الإسلاميين، ورأت في تلك العملية فرصتها المواتية لإبعاد شبح الإرهاب ممثلا في الجماعات الجهادية المسلحة من جهة، وقطع الطريق على أي تطلعات مشروعة للطوارق في الحصول على حقوق المواطنة الكاملة، بعيدا عن سياسات القمع والإقصاء، ومحو الهوية التي ظلت السلوك السياسي والأمني الحاكم لعقلية التعامل مع هذه القومية من قبل الحكومات المتعاقبة في كل من النيجر ومالي.

4. موريتانيا: سنتحدث عن موقف الحكومة الموريتانية في الفصل اللاحق الخاص بـ"موريتانيا وأزواد"

ثانيا. انعكاسات القضية على المحيط الدولي: أزواد ساحة لصراع الكبار

قد يكون مفهوما بالبداهة ما يتيحه الجوار الاقليمي أحيانا من مصالح وفرص أو ما تحتمه أقدار الجغرافيا من مخاطر وتهديدات في أحايين أخرى بالنسبة للبلدان المتشاركة في الحدود أو الموارد كما هي حال دور الجوار المالي، ولكن ما ليس مفهوما هو سر هذا التكالب لدول كبيرة بحجم قارات كأمريكا والصين، أو ذات صيت استعماري مدو كفرنسا، على فريسة صغيرة بحجم مالي، وهي المصنفة بحسب مُدرج البنك الدولي للفقر بالمرتبة 174 من أصل 192؛ فهي دولة صغيرة تتجاوز نسبة الأمية فيها 69%، فيما لا يتجاوز معدل النمو السنوي 2,7%، فيما يطاول معدل البطالة 16%.

هل هو حقا هاجس الحفاظ على وحدة التراب المالي وسلامته، كما هو التبرير الفرنسي الرسمي للتدخل العسكري بمالي أنه "جاء بناء على استجابة لطلب من دولة صديقة، وليس انتقاصا من سيادتها، وكذلك بهدف طرد المجموعات المسلحة الإرهابية" وإذا كان الأمر كذلك؟ فأين كانت هذه الدوافع الأخلاقية النبيلة حين فُرض على السودان أن يشطر نفسه نصفين بمباركة دولية كبيرة؟ رغم ما يمثله ذلك من مخاطر حقيقية على مستقبل الأمن والاستقرار السياسي لدى دول حوض النيل وبلدان القرن الإفريقي بصفة عامة، حيث تنتشر المجموعات الإثنية والعرقية التي تفتقر في أغلب الحالات إلى التجانس والقدرة على احترام قواعد العيش المشترك ومتطلباته، وحيث الصراع الدائر اليوم بين رفاق السلاح في دولة جنوب السودان أكبر الشواهد على ذلك.

إن ظاهر الصراع الدائر الآن في أزواد سياسي، غير أنه في جوهره الحقيقي صراع مصالح ومنافع اقتصادية بالدرجة الأولى، حيث تقف الشركات الغربية والصينية في واجهته الخلفية حفاظا على مصالحها الاستراتيجية بالمنطقة بصفة عامة، والإقليم بصفة خاصة، فقد بات من المؤكد علميا أن الإقليم يسبح فوق بحيرة من الغاز، يقدر

احتياطيها "بترليون" متر مكعب، إلى جانب مخزون ملحي يكفي لخمسين سنة مقبلة، مع مناجم "اليورانيوم" النيجيرية التي تزود المحطات النووية الفرنسية بنصف احتياجاتها منه.

وهي جزء يسير مما يختفي وراء الأَكَمَة في بلاد "الباوباو"، والتي بات الاقتصاد فيها علاوة على الأمن تحت رحمة عدسات دولية وإقليمية لاقطة لا تغادر صغيرة ولا كبيرة، يأتي كل ذلك ضمن خطة غربية محكمة فيما يبدو لوضع اليد على منطقة الساحل ذات الأهمية الاستيراتيجية البالغة بمحورها الممتد من الساحل الأطلسي إلى ساحل البحر الأحمر، أي من السودان إلى موريتانيا، حيث المخزونات الاحتياطية الجديدة من الطاقة والمعادن، وحيث يمر الطريق الغربي الحيوي لضخ النفط إلى أوروبا وأمريكا، وهي جميعها مصالح حيوية باتت محركا قويا لمساعي الغربيين وغيرهم لأن تكون لهم الكلمة الفصل في رسم معالم المستقبل السياسي للمنطقة، بما يكفل استمرار منافعهم الاقتصادية بعيدا عن حسابات القوى الصاعدة وما يمكن أن تحمله من تحديات أو مخاطر في المديين المتوسط والمنظور على مسار ذلك المخطط الاستعماري الرهيب الذي يمثل الموجة الثالثة من الاستعمار الجديد المتوسلة بالقوى الناعمة كجَزَرة إلى جانب العصا الغليظة.

وسط هذا الصراع المحتدم تبدو كافة الأطراف حريصة على تعظيم منافعها، وتدعيم مكتسباتها وفق ما ستُفرزه قواعد التوازنات بعد حسم الموقف عسكريا، فكيف تتراءى خارطة المصالح الاقتصادية للقوى الفاعلة على الساحة المالية؟ وهل ستسمح قواعد اللِّعب للفرنسيين بالاستحواذ على كل الكعكة بالنظر إلى كونهم قد تحملوا العبء الأكبر من تكاليف الحرب بشريا وماديا؟ أم أن اللاعب الفرنسي ما كان لينجح في أداء دوره لولا تكامله مع أدوار باقي القوى الأخرى ضمن سيناريو كولونيالي أكبر يمثل غزو الشمال المالي أولى حلقاته الظاهرة للعيان؟

1. فــرنســا:

هي المستعمر السابق للمنطقة ودَرَكِيُّها بعد ذلك، خرجت من الباب لتعــود للمنطقة عبر أكثر من مَسْرب، بقيت عينها على القارة كمنطقة نفــوذ جيوسياســي واقتصادي، فتدخلت منذ خروجها منها 1960 ما يقارب الخمسين مــرة، لتُطــيح بنظام، أو تمنع آخر من الانهيار، أو تنزع فتيل أزمة، أو تُذكي أوار أخــرى، لتظــل مصالحُها الاستراتيجية الثابتَ الوحيد وسط كل تلك المتغيرات.

كانت فرنسا وما تزال أهمَّ لاعب دولي على المسرح المالي، ولم تكن بعيــدة عما يجري في مطبخه السياسي، فقد سارعت ومنذ اللحظة الأولى لسقوط الــشمال المالي بأيدي الجماعات المسلحة، إلى التحرك دبلوماسيا بالدفع بالقضية إلى النقاش على طاولة مجلس الأمن ثلاث مرات مختلفة، واستصدرت منه ثلاثة قرارات[1]، تحت مظلة البند السابع من ميثاق الأمم المتحدة الذي تنص المادة (41) منه علــى: "جــواز أن يتخذ مجلس الأمن بطريق القوات الجوية أو البحرية أو البرية ما يلزم لحفــظ الــسلم والأمن الدولي، أو لإعادته إلى نصابه"، وهو البند الخطير الذي يبدو أن بــاريس قــد اتخذت منه ذريعة للتدخل العسكري على عجل بعد ما تلقت إشارات قوية عن قرب استكمال الجماعات المسلحة استعداداتها العسكرية واللوجيستية للزحف جنوبا نحــو العاصمة "باماكو"، وقد حددت فرنسا أهداف تدخلها العسكري على لسان رئــيس وزرائها (جان مارك ابرولت) في نقاط ثلاث، هي:

- وقف زحف المجموعات الإرهابية نحو الجنوب.
- الحفاظ على وجود الدولة المالية، واستعادة وحدة أراضيها.
- التحضير لنشر قوة التدخل الإفريقية المرخص لها بموجب قرار مجلس الأمن.

---

1) وهذه القرارات هي: القرار 2056 الصادر في: 2012/8/5. والقرار 2071 الصادر في: 2012/10/12. والقرار الثالث والأخير هو 2085 الصادر بتاريخ: 2012/12/20.

غير أن المحلل التونسي (توفيق المديني) يرى مع آخرين أن لقرار التدخل العسكري الفرنسي دوافع ومحركات حقيقية خلاف ما ذكره رئيس الوزراء الفرنسي أهمها:

1. نوستاليجيا المرحلة الاستعمارية التي لا تزال تتحكم في السلوك السياسي الفرنسي، وتأبى أن تقطع مع المستعمرات السابقة، فتملي عليها التدخل باعتبارها المعنية أكثر من غيرها بالخوض بشؤون البلدان الفرانكفونية، وكأن تلك البلدان ما تزال في نظر الفرنسيين تَدرُج في مرحلة الفطام السياسي، ومن ثم فهي بحاجة دوما لمساعدة الأُم؛ وهو الدور المريب الذي يُتقن الفرنسيون لعبَه بمهارة مع النخب الفرانكفونية الدائرة في فلكهم سياسيا وثقافيا.
2. الخوف المهيمن على باريس من إمكانية تهديد "جماعات الإسلام السياسي" في مالي لفرنسا، لاسيما أن أغلبية هذه الجماعات تمتلك العديد من الصلات والروابط على الأراضي الفرنسية.

ويصف المحلل الفرنسي (لوي فابيان) أبعاد تلك المخاوف بقوله: "القوات الفرنسية تحارب مجموعات عسكرية، قاتلت في ليبيا ضمن صفوف الجيش الليبي بداية، ثم في صفوف معارضيه لاحقا، بمعنى أن رجالها تمرسوا على الحروب التقليدية وعلى حرب العصابات، يضاف إلى هؤلاء مقاتلوا القاعدة المعروفون بتدريبهم العالي، وشراستهم القتالية، كل هذا من دون أن نسقط من الحساب مجموعات من 1600 مقاتل أنفقت الولايات المتحدة الأمريكية حوالي 600 مليون دولارا على تدريبهم وإعدادهم ليحاربوا القاعدة ضمن جيش مالي، ولم يلبثوا أن انضموا إلى القاعدة، وهم الآن في مواجهة القوات الفرنسية مع بقية الفصائل المقاتلة، ومن الطبيعي أن تعاني القوات الفرنسية في مواجهة هؤلاء المدربين جيدا، لاسيما أنهم يعرفون اسرار الاستراتيجية التي تعتمدها القوات الأمريكية والغربية عموما للقتال في المناطق الصحراوية".

3. عجز النظام المالي عن مواجهة الجماعات المسلحة التي باتت على أبواب العاصمة (باماكو) يومها مع سيطرة قادة الانقلاب العسكري المستمرة على

الجيش، وعجزهم عن الوفاء بالعهود التي قطعوها غداة الانقلاب بإلحاق الهزيمة بالقاعدة وحلفائها، وقد فهمت فرنسا طبيعة "لعبة الدومينو" التي تلعبها تلك الجماعة، فإن سقطت مالي بأيديها تسقط دول أخرى، إن عاجلا أو آجلا، وعليه فهي تهدف من وراء تدخلها إلى فرض عملية دومينو معكوسة لضرب الجماعات المسلحة، ودرء خطر أي عدوان مماثل على دول الجوار الهشة والمنكشفة أمنيا، حيث صرح وزير الدفاع الفرنسي بأن: "فرنسا لن تترك جيوبا إسلاموية مقاومة، وستستأصل الإرهاب في الساحل".

4. الحفاظ على المصالح الاقتصادية؛ وهذه المصالح برأي الكثيرين هي المحرك الحقيقي لكل هذا الحراك الدبلوماسي والعسكري الذي سيكبد فرنسا يوميا 400.000 يورو بحسب بعض الخبراء في ما لو حافظت الحرب على زخمها الأول؛ حيث يجزمون أن فرنسا ما كانت لتتكبد كل تلك الخسائر المادية والبشرية لولا وجود مصالح حيوية راجحة يصعب عليها التخلي عنها. ويُدللون على ذلك بوجود ستين شركة فرنسية تنشط في مختلف المجالات الاستثمارية بمالي التي تتوفر على إمكانات اقتصادية غير مستغلة لحد الآن، فقد أثبتت دراسات جدوى أجرتها شركة "توتال" الفرنسية أن إقليم أزواد وحده يحتوي على ما يعادل "ترليون" متر مكعب من الغاز الطبيعي، إلى جانب مخزون ملحي يكفي لخمسين سنة مقبلة، ناهيك عن البترول واليورانيوم الذي تقدر احتياطات الشمال منه بـ100 مليون طن.

كما قدرت شركة (روك غيث) الكندية احتياطيات اليورانيوم بمنطقة "فاليا" المالية بـ12 ألف طن، وهي كمية تضاعف أربع مرات ما تنتجه "أريفا" الفرنسية من مناجم "أرليت" بالنيجر، إلى ذلك فمالي هي ثالث أكبر منتج للذهب في إفريقيا (بعد جنوب إفريقيا وموريتانيا)، كما أثبتت عمليات التنقيب وجود "حجر الماكيت" الثمين بأراضيها.

وعلاوة على الأهمية الاقتصادية لمالي فهناك موقعها الجيو استراتيجي الحساس بالنسبة لفرنسا وغيرها فهي حلقة وصل بين شمال القارة ووسطها، يقول الباحث

الاستراتيجي الفرنسي (انطونان تيسرون) أن مالي تقع على تقاطعات استراتيجية بالغة الأهمية بالنسبة لفرنسا، وتَمَدُّدُ النزاع منها إلى شمال النيجر كان يعني تهديد تموين شركة "أريفا" الفرنسية من اليورانيوم، ومن ثم تهديد أمن توفير الطاقة لفرنسا نفسها، حيث تستخرج الشركة من النيجر نصف إنتاجها من اليورانيوم، وهو ما يشغل ثلث المفاعلات النووية الفرنسية. ومن هذا المنطق تتمتع النيجر بأهمية استراتيجية بالغة بالنسبة للفرنسيين، مما يدفعهم للتحري عن كل ما من شأنه المساس بأمنهم.

وهكذا عملت فرنسا على حماية مصالحها الاقتصادية وتسييجها عبر جدارين: خارجي صلب، قوامه مائة قاعدة عسكرية منتشرة حول القارة كالكماشة، وداخلي ناعم قوامه عشرون دولة تقودها نخب فرانكفونية تشربت الثقافة والقيم الغربية، ولكن بنكهة فرنسية يشوبها الفساد السياسي والأخلاقي.

2. أمريكا:

ظلت الولايات المتحدة الأمريكية وإلى وقت قريب واحدة من دول غربية قليلة لا تمتلك تاريخا استعماريا، إلى جانب أعراف دبلوماسية -ظلت موضع احترام منها لعقود- التزمت بمقتضاها عدم التدخل في مناطق النفوذ التقليدية لحليفاتها الأوروبيات، خصوصا فرنسا وبريطانيا. ولكن ومع تولي الرئيس بوش الابن (2000 – 2008) مقاليد الحكم وما شهدته فترته من تدخل أمريكي صارخ في أكثر من بؤرة ملتهبة حول العالم، تغيرت تلك السياسة كثيرا حين بدأت أمريكا تتطلع للعب دور سياسي واقتصادي مزدوج في إفريقيا عموما ومناطق النفوذ الفرنسي التقليدي خصوصا، حيث وجدت في أحداث 11 سبتمبر وما سمي وقتها بالحرب على الإرهاب ضالتها المنشودة لتمرير مخططاتها التوسعية بالمنطقة، فاستدعت الإدارة الأمريكية، أياما بعد هذه الأحداث (في 2011/9/14) السفراء الأفارقة لتطلب من بلدانهم الدخول معها في تحالف واسع لمحاربة الإرهاب والتعاون مع وكالة الاستخبارات الأمريكية، وكان تفاعل أغلبها إيجابيا مع تلك المطالب. وفي مسعى منها لاختراق المجال الإفريقي دشنت تلك الإدارة سلسلة مبادرات تمثلت أولاها في "مبادرة

الساحل الإفريقي والصحراء" 2002 في اجتماع ضم رؤساء الأركان في كل من موريتانيا والمغرب والجزائر وتونس ومالي والسينغال والنيجر واتشاد ونيجيريا، وذلك بهدف التعاون في مجال مكافحة الإرهاب، ثم أشفعتها بمبادرة ثانية 2003 سمتها "مبادرة الساحل لمكافحة الإرهاب"، وأعقبتها بثالثة أطلقت عليها: "مبادرة مكافحة الإرهاب ما بين الدول المطلة على الصحراء"، وضمت في عضويتها كلا من: المغرب، تونس، الجزائر.

وسعيا منها لتفعيل تلك المبادرات قدمت أمريكا مساعدات مادية لتعزيز قدرات سلاح البر لكل من مالي والنيجر وبوركينا فاسو، كما شارك حوالي ألف جندي أمريكي في عمليات تدريب مكثفة للقوات الإفريقية، إلى جانب إقامة قاعدة عسكرية بجيبوتي قوامها ألفا مقاتل.

إلى جانب ذلك أعلنت الإدارة الأمريكية على لسان الرئيس (بوش الابن) عن ميلاد القيادة العسكرية الأمريكية السادسة بإفريقيا "آفريكوم" في السابع من فبراير 2007، وذكر من ضمن أهدافها: "القيام بعمليات عسكرية حربية عند الاقتضاء في القارة الإفريقية بقرار من الحكومة الأمريكية لضرب قدرة المتطرفين المسلحين على قتل المدنيين الأبرياء"، وقد رصدت لها موازنة سنوية تبلغ تسعين مليون دولار، إضافة إلى حوالي ثلاثمائة واثنين وتسعين مليون دولار لمركز قيادتها.

غير أن الأهداف الحقيقية "لآفريكوم" أكبرُ من مجرد تخضيد قدرات الجماعات الجهادية المسلحة على المبادءة، حيث كشف (فرانشر) عضو المجلس الأمريكي للمحامين جانبا منها بقوله: "إن القيادة العسكرية الأمريكية في إفريقيا (آفريكوم) ليست إلا وسيلة لضمان الموارد النفطية للشركات الأمريكية، وكل من يعارض هذا الهدف أو يحاول عرقلته يصبح إرهابيا، ويضاف اسمه إلى قائمة أهداف الجيش الأمريكي".

وهي المهمة التي حددها قائد القوات العسكرية الأمريكية في أوروبا (شارلز واد) أكثر عند ما قال: "تقع على عاتق قواتنا المسلحة في إفريقيا مهمة أساسية، تتلخص في ضمان السيطرة الكاملة على المناطق النفطية في نيجيريا وما حولها، لأن

25% من حجم الواردات الأمريكية من النفط ستأتي من هناك في المستقبل القريب"، مع العلم أن أمريكا تستورد يوميا من القارة 2,7 مليون برميل، وهو ما يمثل حـــوالي 15% من احتياجاتها النفطية.

وقد عرضت الولايات المتحدة على أكثر من دولة إفريقية استضافة قيادة تلك القاعدة، فاعتذرت كلها بما في ذلك مالي التي كانت من أوائل البلدان التي استهدفها الأمريكيون بإقامة قاعدة القيادة في عام تأسيسها، فما كان من الرئيس المالي المطاح به (آمادو توماني توري) إلا أن رفض، وهو المتهم غربيا بمحاباة النفوذ الصيني الاقتصادي بالمنطقة. وكان تفسير هذا الرفض وكما ورد في خطاب للرئيس (توري) نفسه: "هو اعتبار هذه القاعدة مركزا للأنشطة الاستخباراتية الأمريكية بهدف حمايـــة وتعزيـــز المصالح الأمريكية في إفريقيا، لا لحماية دول القارة من مشكلات الإرهاب، وتـــردي الأوضاع الأمنية".

وفي ضوء ذلك الرفض الإفريقي الجماعي اضطر الأمريكيون لنقل مقر القيادة خارج القارة إلى مدينة "شتوتغارت" بألمانيا، وذلك بصفة مؤقتة.

وقد اضطر الفرنسيون جراء سياسة التوسع الأمريكية تلك، إلى إخلاء بعـــض المقاعد الأمامية لصالح الأمريكان، فاتسمت سياسة ردة الفعل الفرنسية إزاءها بمـــزيج من مواقف دفاعية واستسلام للأمر الواقع، ثم ترقب وانتظار لاقتناص الفرص السانحة، وذلك طيلة فترة الرئيس "بوش الابن"، ومع استلام "أوباما" لمقاليد الحكـــم بالبيـــت الأبيض، حيث عرف الحضور الأمريكي بالقارة بعض التراجع، حين احتل "محور آسيا وأمريكا اللاتينية" الصدارة في اهتمامات واشنطن على حساب محور إفريقيا، مما مكن الفرنسيين من استعادة زمام المبادأة مجددا.

غير أن تفاعلات الأحداث في الشمال المالي دفعت بـــالأمريكيين إلى قلـــب المشهد الإفريقي من جديد، نظرا لما تمثله الجماعات الجهادية التي احتلت المنطقة مـــن خطر على المصالح الأمريكية الاستراتيجية؛ فقد أشارت دراسة أمريكية حديثة أعدها (المعهد الدبلوماسي الأمريكي) المقرب من البنتاغون إلى أن "المد السلفي الجهـــادي في شمال إفريقيا يشكل عنصر تهديد جدي للأمن الأمريكي أكثر بكثير من التهديد الذي

تمثله فروع القاعدة في العراق وأفغانستان واليمن وسوريا"، وحذر مختصون في المعهد من ردات فعل تلك الجماعات على العمليات العسكرية الفرنسية في شمال مالي، والتي قد تشمل دولا غربية عدة منها الولايات المتحدة الأمريكية[1].

وصنفت دراسة أمريكية حديثة كلا من "مختار بلمختار" أمير كتيبة "الملثمين"، و"عبد المالك دروكدال" أمير القاعدة في بلاد المغرب الإسلامي على أنهما من أخطر قادة القاعدة والتيار السلفي الجهادي، وأشارت إلى سعي بلمختار بالتعاون مع متطرفين آخرين لتشكل خلايا نائمة في مدن أمريكية ومناطق عدة في العالم، وصنفت الدراسة أربع منظمات على أنها الأكثر تهديدا للأمن العالمي في شمالي إفريقيا، للمصالح الأمريكية في المنطقة؛ وهذه المنظمات هي: حركة أصار الدين، والتوحيد والجهاد الأزواديتين، وحركة أنصار الشريعة بامتداداتها في مالي وتونس وليبيا، وتنظيم القاعدة في بلاد المغرب الإسلامي.

وقد طالب المعهد المذكور، والذي ينفذ عدة أبحاث لمصالح استخباراتية أمريكية، بضرورة دعم المبادرة الفرنسية لمحاربة القاعدة في مالي.

وبالفعل فقد شرعت الإدارة الأمريكية في التفكير الجدي في سبل تقديم الدعم المناسب للجهود الساعية إلى تطهير الشمال من الجماعات الجهادية المسلحة، والاستجابة لمناشدة رئيس الوزراء المالي الأسبق والمحسوب على أمريكا الشيخ موديبو ديارا[2] في: 2013/9/29 للدول الغربية بالتدخل لتحرير الشمال المالي. وتساوقا مع هذه الدعوة أفاد مصدر أمريكي في تصريح أدلى به في: 2012/10/3 أن مسؤولين في إدارة الرئيس أوباما قد عقدوا سلسلة من الاجتماعات السرية لبحث إمكانية القيام بعمل عسكري منفرد شمال مالي، ونسبت صحيفة "الواشنطن بوست" إلى مسؤولين أمريكيين لم تسمهم القول أن هذه المشاورات نظرت في التهديد الذي يشكله تنظيم

---

1) نقلا عن موقع الحدث الأزوادي.

2) تمت الإطاحة بديارا في دجمبر 2012 الماضي، وقد أدلى رئيس شركة "مايكروسوفت" (بيل جيتس) بتصريحات مؤيدة له، وأعرب عن رغبة أمريكا في تولي أحد رجالها المخلصين رئاسة البلاد. وتجدر الإشار إلى أن (اديارة) هو أحد خبراء وكالة الفضاء الأمريكية (ناسا) وصهر الرئيس المالي الأسبق (موسى تراورى).

القاعدة في بلاد المغرب الإسلامي، وركزت على بحث السبل الكفيلة بمساعدة جيوش المنطقة على مواجهة القاعدة وإمكانية التدخل الأمريكي المباشر في التراع إذا ما استمر الوضع الحالي، ونسبت الصحيفة إلى مسؤول أمريكي كبير في مجال مكافحة الإرهاب شارك في المحادثات القول إن واشنطن تدرس عدة خيارات من بينها نشر طائرات أمريكية بدون طيار في المنطقة للقيام بعمليات عسكرية في مالي شبيهة بتلك التي تقوم بها في اليمن، وعلى الحدود بين أفغانستان وباكستان.

وكان (جوني كارسون) وهو أعلى مسؤول أمريكي في قسم شؤون إفريقيا بوزارة الخارجية الأمريكية قد أعلن عن استعداد أمريكا لدعم تدخل عسكري "معد بشكل جيد"، تقوده دول إفريقية في شمال مالي من أجل القضاء على من يسميهم بالمتمردين الإسلاميين المرتبطين بتنظيم القاعدة.

أما الوجه الآخر للاهتمام الأمريكي بالمنطقة فهو وجه اقتصادي بامتياز، حيث يشكل النفط محور الاهتمام الاستراتيجي الأمريكي بهذا الشأن، ويحتل النفط ومشتقاته حوالي 87% من المبادلات التجارية الأمريكية مع القارة.

وقد زاد الاهتمام الأمريكي بنفط القارة إثر الاكتشافات النفطية الهائلة في غرب القارة للعام 2001، إضافة إلى اكتشافات خليج غينيا الاستوائية 2006، فمن بين 8 مليارات برميل تم اكتشافها عالميا كان نصيب غرب القارة منها هو 7 مليارات برميل، وهي الاكتشافات التي أسالت لعاب الأمريكان، فشرعوا في التخطيط لما يسمى بـ"مشروع خليج غينيا" النفطي الذي تقوم فكرته على مد أنبوب نفط واحد يتم فيه تجميع البترول من دولة جنوب السودان وتشاد والكاميرون والغابون ونيجيريا وخليج غينيا حيث دولة غينيا الاستوائية، ويمتد هذا الأنبوب إلى ساحلها عبر المحيط الأطلسي ليتم تصديره مباشرة إلى أمريكا.

ويَعتبر الأمريكيون أن هذا النفط أرخصُ ثمنا وأكثر أمنا على خطوط نقله من نظيره القادم من منطقة الشرق الأوسط، ويخططون لحمايته عبر بناء قاعدة عسكرية بدولة جنوب السودان، واستحدثوا لذلك القيادة الإفريقية في الجيش الأمريكي. وقد تقاطرت الشركات النفطية الأمريكية العملاقة مثل: شيفرون "وأكسون موبيل" على

المنطقة، إضافة إلى المجموعة الاقتصادية "BHP"، والتي تنشط في أكثر من بلد إفريقي بما فيها مالي.

3. الصين:

منذ عام 2006 أضحت الصين أكبر شريك تجاري لإفريقيا، حيث وصل حجم تبادلها التجاري مع القارة 100 مليار دولار سنويا، وهو ما يزيد عن حجم تبادل كل من الاتحاد الأوروبي والولايات المتحدة مجتمعين مع إفريقيا.

وظلت علاقاتها بمالي وحتى وقت قريب من أوثق العلاقات مع الرفاق في إفريقيا، حتى اعتبرها البعض بمثابة بوابة الصين إلى القارة[1]. وقد حصلت الحكومة المالية بفعل دبلوماسية الرئيس المطاح به "توماني توري" على ملايين الدولارات مساعدات تنموية من الصين، كما وقعت حكومتا البلدين اتفاقيات تعاون مشتركة في مجالات الزراعة والصناعة والصحة والاتصالات والبنى التحتية..

وتذهب ثلث الصادرات المالية إلى الصين التي تستورد منها الذهب والقطن.. فيما تستثمر الشركات الصينية في مجالات البنى التحتية والتنقيب، ويعود لها الفضل في بناء الجسر الكبير الرابط بين باماكو ودولة النيجر، كما حصلت الشركات الصينية على رخصة للتنقيب عن اليورانيوم في الشمال المالي (إقليم أزواد)، وذلك منذ العام 2010، حيث تَعِد الاختبارات بوجود احتياطيات معتبرة تناهز المائة مليون طن.

ويبدو أن التنين الصيني يسير في إفريقيا وفق سياسة "الزحف الناعم على البطن"، وهو ما فاقم من قلق المنافسين الأوروبيين والأمريكان، الذين وقفوا مكتوفي الأيدي أمام اكتظاظ أسواق القارة بالبضاعة الصينية الرخيصة، طاردة نظيرتها الأوروبية والأمريكية، فيما يسعى الصينيون في سباق محموم مع الأمريكيين لوضع اليد على منابع الطاقة المتجددة بالقارة، حيث باتت تستورد ثلث حاجياتها النفطية من القارة في محاولة غير خافية لقطع الطريق على "العم سام"، الذي يحاول استبدال حصانه الأسمر (العرب) بآخر إفريقي أسود للسبق في مضامير لا تبدو سالكة بما فيه

---

1) الموقع الألكتروني لإذاعة روسيا اليوم.

الكفاية لرعاة البقر "الكوبوي" ممن ألفوا المزارع والمحميات المغلقة، التي لا يـــشاركهم فيها غير الأبقار والحيوانات الداجنة.

4. كنــدا:

كندا لاعب غربي آخر على الساحة، وتنتشر شركاتها مثل "كينروس" و"روك غيث" بالقارة، ولاسيما منطقة الغرب الإفريقي، حيث تستثمر الأولى في موريتانيـــا، فيما تستثمر الثانية بمالي، وقد حصلت على رخصة للتنقيب عن اليورانيـــوم بمنطقـــة "فاليا" غرب العاصمة "باماكو"، وتشير المصادر الفنية المختصة إلى عثور الشركة على الفضة والنحاس إلى جانب اليورانيوم الذي تقدر احتياطياته في المناجم المكتشفة بـــ12 ألف طن، وهو ما يساوي أربعة أضعاف ما تنتجه شركة "آريفا" الفرنسية من مناجمها في "أرليت" بالنيجر، وقد أبرمت الشركتان المذكورتان الكندية ونظيرتهمـــا الفرنـــسية اتفاقا ثنائيا للاستغلال المشترك لهذا المنجم بمالي.

يبدو الكيان المالي إذن بموقعه الجغرافي على تقاطعـــات اســـتراتيجية هامـــة، وبتنوعه البشري (البامبارا، الطوارق، العرب، الفولان..)، وبموارده الاقتصادية التي ما يزال أغلبها دون اكتشاف: مهيئا للعب دور محوري في إعادة رسم ملامح الخريطـــة الجو سياسية والأمنية بالمنطقة، واستعادة زمام المبادرة عبر توظيف كل تلك المقدرات بما يضمن وحدة وسلامة الأراضي المالية إلى جانب استعادة سلمها الأهلي وتحقيـــق تنميتها الاقتصادي.

المبحث الثامن
هل إلى مخرج من سبيل؟ (آفاق الحل)

لم يُعمَّر مشروع الدولة الوليدة الذي أعلنه الطوارق بأزواد في السادس من إبريل 2012 لأزيد من ثمانية أشهر، بعد مخاض وولادة عسير دام لعقود حتى سقط وتلاشى "الحلم الوردي" الذي طالما داعب خيال ساكنة الإقليم بعد فشل جيل الاستقلال من السياسيين في تثبيت دعائم "مشروع الدولة الوطنية الجامعة".

وهو الحلم الذي أُجهض برأي كثيرين جراء عدم واقعيته وقابليته للعيش والاستمرارية وسط رفض النظام الإقليمي والدولي، علاوة على الاعتبارات الداخلية المتعلقة بتعطيل الديناميكيات السياسية والاقتصادية الخاصة بالإقليم ذاته.

التقت إذن إرادة أكثر من طرف إقليمي ودولي لإقبار التجربة الوليدة لتوها في أزواد، والتي كانت بمثابة "بالون اختبار" لامتحان مواقف واستحكامات مختلف القوى والأطراف المؤثرة أو المتأثرة بما جرى ويجري على الساحة الأزوادية، والتي جاءت ردة فعلها سريعة وشبه متزامنة على إعلان الاستقلال المنفرد من طرف الحركة الوطنية لتحرير أزواد، والذي أيدته حركة أنصار الدين في بيان مشترك، أصدره الفصيلان، أعربا فيه عن تأييد استقلال أزواد، واعتبار الإسلام ديانة الكيان الناشئ، والقرآن والسنة النبوية مصدرا التشريع.

جاءت أولى مواقف الرفض الدولي من الاتحاد الإفريقي الذي أعلن على لسان رئيس مفوضيته (جان بينغ) أنه يدين بحزم هذا الإعلان الباطل، والذي لا قيمة له حسب تعبير البيان، مذكرا بالمبدأ الأساسي القائم على عدم المساس بالحدود الموروثة عن الحقبة الاستعمارية، كما أكد البيان حرصَ الاتحاد الإفريقي على الوحدة الوطنية ووحدة وسلامة الأراضي المالية المنصوص عليها في ميثاق الاتحاد.

وجاءت مواقف المنظمات الإقليمية متناغمة مع موقف الاتحاد الإفريقي في رفض إعلان الاستقلال، مثل المجموعة الاقتصادية لدول غرب إفريقيا (الإيكواس)، و(مجموعة دول الميدان) التي تضم إلى جانب مالي كلا من موريتانيا والجزائر والنيجر،

حيث ندد بيانها الختامي بإعلان الاستقلال من جانب واحد، وطالب جميع الأطـــراف بالدخول في حوار جاد لحل كل المشاكل.

من جانبه رفض الاتحاد الأروبي إعلان الاستقلال المذكور، واصفا إياه بأنـــه "باطل ولاغ، ولا قيمة له"، مشددا على حرصه على "الوحدة الوطنية وسلامة أراضي مالي".

كما حرصت دول الجوار الإقليمي لمالي على تـــسجيل مواقفهـــا الرافـــضة لاستقلال الإقليم:

فالجزائر الجارة الأكبر لمالي أعلنت على لسان رئيس وزرائها الأسبق أحمد أو يحيى أنها لن تقبل أبدا بالمساس بوحدة وسلامة أراضي مالي موضحا: "نحن مع حل يمر عن طريق الحوار، والجزائر لن تقبل أبدا المساس بوحدة مالي الترابية".

وموريتانيا الدولة الجارة الثانية لمالي، وإحدى دول الميدان الرئيسية: أعلنت في بيان صادر عن وزارة خارجيتها رفضَها البات لإعلان "استقلال أزواد مـــن جانـــب واحد، إلى جانب تمسكها الثابت بسيادة مالي ووحدتها، وسلامة أراضيها".

والنيجر: العضو الثابت في مجموعة دول الميدان، والجار المصاقب شرقا لمـــالي اتسم موقفها بالقوة والصرامة، إذ تجاوز مجرد الشجب والتنديد إلى المطالبة بالتـــدخل العسكري لإعادة الأمور إلى نصابها، إذا رفضت المجموعات المسيطرة علـــى الإقلـــيم الانسحاب كما ورد على لسان وزير خارجيتها "محمد باعزوم".

وبالنسبة للمغرب -الواقعة بين مطرقة جبهة البوليساريو المطالبة هي الأخرى بحق تقرير المصير وسندان المنظمات الحقوقية الأمازيغية المتـــشبثة بالهويـــة الثقافيـــة الأمازيغية- فلم يكن أمامها من خيار سوى معارضة انفصال أزواد؛ حيث أعلنت أن "استقلال أزواد غير مقبول بالنسبة لها، نظرا لتداعياته الخطيرة على الـــسلم والأمـــن والاستقرار في المنطقة برمتها".

وأما المواقف الدولية الشاجبة: فكان أبرزها الموقفان الفرنسي والأمريكـــي، حيث شددت فرنسا -المستعمر السابق لمالي- على لسان وزيـــر خارجيتـــها "آلان جوبيه" بالقول: "لا يمكننا قبول إعلان الاستقلال الصادر عن الحركة الوطنية لتحرير

أزواد"، مؤكدا أن فرنسا "متمسكة بوحدة أراضي مالي، وأن تهديد سيادة البلاد أمر غير وارد".

أما الولايات المتحدة الأمريكية: فقد أعلنت من جانبها رفض إعلان الانفصال من طرف واحد، ودعت إلى الحفاظ على وحدة أراضي مالي.

تبلور إذن رأي دولي عام رافض لفكرة الانفصال وتجزئةِ الكيان الموروث عن الحقبة الاستعمارية، ليشكل هذا الرفض لاحقا الأرضية السياسية الملائمة والغطاء الأخلاقي المطلوب للتدخل العسكري بالإقليم الذي تم تحت غطاء الشرعية الدولية بعد إصدار القرار الأممي (2085) القاضي بنشر قوة دولية تدعى "أفيسما" قوامها 12.600 جندي، مؤذنا بتغلب دعاة الحرب والحسم العسكري على حساب أنصار خيار التفاوض والحل السلمي، ليتحول إثرها الإقليم المنكوب إلى ساحة حرب في معركة مفتوحة بلا قواعد أو تقاليد، الخاسرُ الأكبر فيها هم المدنيون العزل، الذين تدفقوا بعشرات الآلاف على بعض بلدان الجوار كموريتانيا والجزائر وبوركي نافاسو.

وبعد أشهر من المواجهات العنيفة التي استَخدَم خلالها المهاجمون خصوصا من الفرنسيين "سلاح الطيران" بشكل مكثف، تمكنت القوى الدولية من دحر الجماعات الجهادية المسلحة، وإجلائها عن جل المدن الرئيسية التي كانت قد احتلتها مع مطلع العام المنصرم، مما اضطرها إلى الاختباء والتسلل إلى دول الجوار، خصوصا الجزائر والنيجر، دون أن تنجح القوى المهاجمة في القضاء على جيوب المقاومة التي ظلت نشطة لهذه الجماعات في جبال (إيفوقاس) بمالي وجبال شمال النيجر، وجبال (تيبستي) شمال اتشاد، و(تمنراست) في أقصى الجنوب الجزائري، رغم تبجح الرئيس الفرنسي (هولاند) بهزيمة تلك الجماعات في خطاب له ألقاه بمناسبة حفل تنصيب الرئيس المالي الجديد إبراهيم أبو بكر كيتا في: 2013/9/19، عند ما قال: "إن دحر الحركات الإرهابية المسلحة في شمال مالي، وتكبيدَها خسائر فادحة يعتبر انتصارا في الحرب التي جرت في إقليم أزواد"، وأكد على ذلك في ثنايا الخطاب مجددا بالقول: "إننا انتصرنا في هذه الحرب، ونحن نحتفل بانتصار كبير لمالي اليوم"، وكأنه بمجرد حسم الموقف عسكريا كما زعم "هولاند" ستتعافى البلاد من أزماتها السياسية المتعفنة، وهي المقارَبة

الأمنية المجوَّفة والخطأ السياسي الجسيم الذي يبدو أن مختلف الأطراف المعنية بـذلك الصراع قد تنبهت له، وأصبحت غير مستعدة بالتالي لدفع ثمنه سياسيا مـرة أخـرى عقودا جديدة من الحرمان والتهميش والاحتراب الداخلي، وهو ما يفسر قبول مختلف فرقاء الأزمة دعوات الحوار، وتغليب الحلول السلمية التي أطلقتـها لجنـة الوسـاطة للمجموعة الاقتصادية لدول غرب إفريقيا بزعامة الرئيس البوركينابي (بليز كمباوري) نهاية العام 2012، وضمت إلى جانب الحكومة المالية المؤقتة كلا من الحركة الوطنية لتحرير أزواد، وجماعة أنصار الدين الإسلامية التي خاضت الحرب ضد الفرنـسيين، والتي يبدو أنها عادت وتراجعت عن مطلب الاستقلال الذي سبق وأن نادت بـه في إعلان الاندماج الموقع من قبلها مع الحركة الوطنية لتحرير أزواد في السادس والعشرين من مايو 2012، كما أعلنت قبل المفاوضات (في تصريحات رسمية) رفضَها للإرهاب والتطرف ودعوتها إلى حوار سياسي مع الحكومة المالية الانتقالية لحل الأزمة القائمـة، لتتوج ذلك بإصدار وثيقة هامة مع مطلع يناير 2013 عنونتها "بالبرنامج السياسي"، أعلنت فيها تخليها عن مطلبها السابق بالاستقلال لإقليم أزواد مستعيضة عنه بمطلـب "الحكم الذاتي الموسع" في إطار دولة يعاد تشكيلها –كما قالت الوثيقة– في مالي تتميز بشكل واضح عن العلمانية، كما اشترطت الجماعة في الوثيقة تضمين الدستور اعترافا بالطابع الإسلامي لمالي، مشددة على أن تطبق الشريعة في كل أنحاء شمال مـالي هـو شرط غير قابل للتفاوض، حيث سلمت الوثيقة المذكورة إلى الوسيط الإفريقي المنتدب من الإيكواس (بليز كمباوري).

ومع تصاعد وتائر عملية "سيرفال" أو "القط المتـوحش" الفرنـسية ضـد الحركات الجهادية بالإقليم انسحبت أنصار الدين من العمليـة التفاوضـية وسـط انتقادات شديدة من الطرف المالي الرسمي حين اعتبر الرئيس المالي المؤقت "ديونكوندا" في حديث أدلى به لإذاعة فرنسا (RFI) أن "المحاور الوحيد من الطـوارق في نظـر باماكو في أي مفاوضات سياسية مقبلة سيكون الحركة الوطنية لتحرير أزواد"، لافتا الانتباه إلى أن "مصداقية جماعة أنصار الدين قد تقوضت".

وبالفعل فقد تواصلت المفاوضات في غياب أنصار الدين بين الحكومة المالية المؤقتة والحركة الوطنية لتحرير أزواد التي أصبحت مستعدة للتخلي عن مسعى الانفصال في مقابل الحصول على "حكم ذاتي موسع" بعد ما نجح الماليون في استثمار الحقائق الجديدة التي خلقتها عملية (سيرفال) على الأرض في تحسين موقفهم التفاوضي في مباحثات "واكادكو" للسلام، فقد أعلنت الحركة على لسان ممثلها في أوروبا (موسى أك أساريد) من (كورسيكا) أنها "ستقترح على السلطة المركزية في باماكو حكما ذاتيا كما ينص عليه الاتفاق التمهيدي على وقف إطلاق النار".

وقد اقترح الوسيط الإفريقي على فرقاء الأزمة المالية خطة للنقاش مكونة من أربع نقاط غداة اللقاء الذي تم عقده بـ"وكادوكو" في الثامن من يونيو 2013.

1. حيث نصت النقطة الأولى على وقف الأعمال العدائية، لأن ذلك سيخلق الظروف الأمنية الضرورية لإجراء انتخابات حرة وشفافة مع تشجيع عودة اللاجئين والنازحين.
2. أما النقطة الثانية فتتعلق بنشر الإدارة العامة والمصالح الاجتماعية الأساسية للحكومة وقوات دفاعها وأمنها في شمال البلاد، وخاصة كيدال وفق إجراءات محددة يتم التفاوض بشأنها.
3. أما النقطة الثالثة فتقترح أن يتم التفاوض بشأن آليات المتابعة والتقييم كإجراء للمواكبة، وتتكون من البلدان والمنظمات التي تشكل شركاء مالي.
4. النقطة الرابعة تتعلق بالتأكيد على مواصلة محادثات السلام بعد الانتخابات الرئاسية بهدف إرساء سلام نهائي وتنمية مستدامة وجامعة في البلاد.

وقد وقعت "الجبهة الوطنية لتحرير أزواد" وحليفها "المجلس الأعلى لوحدة أزواد" بالأحرف الأولى على اتفاق مبدئي مع الحكومة المالية كان من مخرجاته السماح بإجراء الانتخابات الرئاسية في مدينة كيدال، وعودة الإدارة الحكومية إليها.

وقد أجريت الانتخابات وفاز بها الرئيس إبراهيم أبو بكر كيتا الذي كان أول مرشح يزور كيدال بنسبة: 77,6%، حيث صرح أثناء الحملة الانتخابية بأن عملية السلام وإجراء المصالحة الوطنية هي هدفه الأساسي، وهو المسعى الذي ركّز عليه في

الخطاب الذي ألقاه بمناسبة تأدية اليمين الدستورية كرئيس لمالي بالقول: "أريد أن أصالح القلوب والنفوس، وأقيم أخوة حقيقية بيننا حتى يستطيع كل واحد منا أن يؤدي دوره في التركيبة الوطنية، أريد أن أجمع كل المكونات وكل أجيال المجتمع".

ثم عاد ليؤكده مجددا في أثناء الحفل المقام بمناسبة تنصيبه رئيسا في: 2013/9/19 بحضور ما يربو على العشرين زعيما أجنبيا يتقدمهم العاهل المغربي محمد السادس إلى جانب الرئيس الفرنسي "فرانسوا هولاند"، عندما صرح قائلا: "إن المصالحة الوطنية بين مختلف مكونات الشعب المالي، وخصوصا بين الشمال والجنوب هي الأولوية الأكثر إلحاحا بالنسبة لي".

وفي خطوة اعتبرها البعض بادرة حسن نية: أعرب نائب رئيس الحركة الوطنية لتحرير أزواد: (محمد خيري ميكا) لوكالة "افرانس برس" باسم الحركات الموقعة للاتفاق التمهيدي في "واكادوكو" عن تهنئته للرئيس كيتا بفوزه الكبير كما قال في الانتخابات الرئاسية"، وقد تمنت الحركة الوطنية على رئيس البلاد المستقبلي منحها حكما ذاتيا بعد فترة المفاوضات التي تستمر ستين يوما كما ينص عليه الاتفاق التمهيدي لوقف إطلاق النار، والمبرم قبل تلك الانتخابات.

لم تتضح لحد الآن النيات الحقيقية للرئيس المالي الجديد "كيتا" بخصوص مطالب الأزواديين كما تطرحها الحركات الأكثر تجذرا وتمثيلا للمجتمع الأزوادي كأنصار الدين والحركة الوطنية لتحرير أزواد رغم دعوات السلام والمصالحة الوطنية التي أطلقها أثناء الحملة الانتخابية وبعدها، إلا أنها جاءت عمومية ومبهمة، ولم يحمل برنامجه الانتخابي خطة مفصلة أو أفكارا متبلورة يمكن أن تشكل أرضية سياسية مقبولة يتلاقى حولها مختلف الفرقاء، وهو ما قد يُلقي بظلال من الشك بنظر البعض حول مدى جدية تلك الوعود، واستعداد النخبة السياسية المالية للاستفادة من دروس الأزمة الحالية، وتجاوزها في اتجاه بلورة حل سياسي دائم يخاطب جذور المشكل الحقيقية بعيدا عن إعادة إنتاج الأزمة من جديد عبر استدعاء ذات الخطابات الديماغوجية المحنطة الموروثة عن حكومات مالي المتعاقبة عن فكرة "الوطن الواحد للشعب الواحد ذي الثقافة الواحدة والهوية الوطنية الموحدة".

وفي المقابل يتساءل البعض عن مزاعم الحركات المحاورة بالتخلي عن مطلب الانفصال، وتغليب خيار الحوار على مركب الحرب هل هي فعلا خيارات استراتيجية نابعة من قناعات صادقة باستحالة تحقيق ذلك المطلب؟ أم هي مجرد مواقف تكتيكية ليست أكثر من استراحة محارب أملتها طبيعة التوازنات الحالية والحقائق الجديدة القائمة على الأرض التي فرضت نفسَها بقوة على مسار الأحداث؟

وهل يمكن أن يُكتب لسلام لا يشارك الإسلاميون في صناعته حظا من بقاء؟ باعتبارهم رقما صعبا لا يمكن تجاوزُه في أي خارطة لرسم طريق مستقيم للسلام بالإقليم، وهو الطريق الطويل الذي يبدو أن مختلف الأطراف المعنية بتعبيده ما تزال في بداياته؛ فالرئيس المالي الجديد يتحدث في أحدث تصريحات له عن أن "وحدة مالي الترابية ليست موضع مراجعة أو نقاش"[1]، ماسحا بذلك الطاولة أمام أي طرح أو نقاش لأية فكرة قد تفضي إلى أي نوع من المساس بالحكامة السياسية أو الإدارية للدولة الموروثة عن الحقبة الاستعمارية. وقبله كانت تصريحات الرئيس المؤقت (ديونكوندا تراورى) أكثر تصلبا وصراحة بهذا الخصوص، عند ما قال[2]: "أرفض فكرة إعلان حكم ذاتي في شمال مالي، ولن نصل لهذا الحد، ونعتقد أن عملية اللامركزية لدينا تضم كل العناصر لتسوية قضية الشمال إذا تم تطبيق اللامركزية بشكل صحيح فإن الجميع سيكونون راضين".

وما يزال السياسيون الماليون منذ الاستقلال ولحد اليوم يتحاشون الإشارة إلى الإقليم باسمه الطارقي (أزواد)، ويفضلون تسميته بـ"الشمال المالي".

من جانبه لم يستطع الأمين العام لحركة تحرير أزواد (بلال أكْ شريف) التخلص من "نوستالجيا" دولة أزواد المستقلة بعدُ، رغم محاولته الظهور بمظهر السياسي الواقعي، وذلك في مقابلة صحفية أجرها معه إذاعة انواكشوط الحرة، حيث أوضح خلالها أن مشكلة أزواد هي مشكلة سياسية أساسا ومشكلة هوية ووجود شعب يحس بأن له مكونات ثقافية وسياسية واقتصادية تختلف عن جنوب مالي، وهو ما يستحق

---

1) وردت تلك الجملة في خطاب ألقاه بمناسبة حفل تنصيبه في: 2013/9/19.

2) ورد ذلك في مقابلة أجرها معه قناة "يورونيوز" في: 2013/5/17.

التعامل معه بقرار سياسي من الحكومة المالية ليس من خلال التسويات والمقاربات وتلك الأكاذيب"[1]. بل ذهب إلى أبعد من ذلك عند ما قال: "ينبغي التعامل مع الدولة الأزوادية على أساس أنها موجودة في اسم واسع هو مالي، لكن لابد من الاعتراف لإقليم أزواد بخصوصية، يعني لابد أن يكون القرار الأزوادي الأساسي الذي يمس الحياة اليومية للناس نابع من أزواد، وعند ما أعلنا ذلك أردنا أن نقول للعالم أن هذا هو المطلب الأزوادي، والتعامل معه أساسي لمعالجة مشاكل أزواد، وإلا سنواجه مصير اتفاقيات 1963 و1990 و2006".

تبخرت إذن آمال الأزواديين في الاستقلال وإقامةِ دولتِهم الخاصة بهم، أمام الرفض الإقليمي والدولي انطلاقا من حسابات كل طرف على حدة.

فالأطراف الإقليمية، وخصوصا البلدان التي توجد بها امتدادات واضحة لإثنية الطوارق، كالجزائر والنيجر ومالي، إضافة إلى بلدان أخرى معنية بالشأن الطارقي بشكل أو بآخر كالمغرب وموريتانيا: تقف بشكل صارم في وجه قيام كيان طارقي ناشئ هو بنظرها سابقة خطيرة ستنعش بلا شك آمال باقي الإثنيات في المنطقة لإقامة كيانات مشابهة خصوصا بعد النجاح النسبي لتجربة الانفصال في جنوب السودان التي تمت بمباركة غربية واسعة، ولذلك تعتقد تلك البلدان أنه متى ما فتح المجال أمام المساس بمبدأ قدسية الحدود الموروثة عن الاستعمار، "فسيخرج كل ما في قمقم (باندورا) الإفريقي من مشكلات ستفتح أبواب الكوارث على إفريقيا من تفكك سياسي لا أول له ولا آخر، ولذا فإن تعلق معظم الدول الإفريقية بوحدة مالي ليس في الأساس حرصا على شرعية أو حبا في سواد عيون الدولة المالية وإنما يأتي خوفا وفرقا من أن يمتد التقسيم والتفكك إلى دول أخرى في القارة"[2]، ولذلك فإن تلك الدول تستميت في الدفاع عن ما تسميه وحدة وسلامة الأراضي المالية حتى أكثر من الملك ذاته، حيث يشكل الموقف من ذلك الانفصال واحدة من القضايا القليلة التي تحوز الإجماع بين مختلف تلك الأطراف التي وَجدت فيه فرصتها لتمرير رسائل قوية من

---

1) نشر نص المقابلة على موقع "وانا" الموريتاني بتاريخ: 2013/8/13.

2) الحسن ولد أحريمو: القضية الأزوادية، استراتيجيات الخروج الممكنة، مقال منشور على الشبكة العنكبوتية.

شأنها قطع الطريق في وجه أية محاولة جادة للتفكير في تأسيس كيانات منفصلة عن الدولة الأم، وإلا ستواجه محاولاتُها نفس المصير القاسي الذي واجه محاولةَ طوارق أزواد وبعض إخوانهم من عربه.

ولم يكن حماس المجتمع الدولي لكتم أنفاس "الوليد المتخلق من رحم المعاناة والتهميش" بأقل شأنا من حماس الجوار الإقليمي لأزواد؛ فباستثناء بضعة بلدان كاريبية تبلور رأي دولي عام رافض لاستقلال الإقليم، مناد بوجوب المحافظة على وحدة وسلامة الأراضي المالية، ترجمته الأجواء العامة للدورة السابعة والستين للأمم المتحدة، وجسدته قرارات مجلس الأمن الثلاثة التي أعقبتها، وكان آخرها القرار (2085) القاضي بتشكيل قوة "افيسما" العسكرية ذات القوام "12.600"، والمرابطة هذه الأيام بالإقليم لمنع عودة الجماعات الجهادية المسلحة مرة ثانية للإقليم بعد دحرها من قبل التحالف الدولي بقيادة دركي المنطقة فرنسا التي أفصح رئيسها السابق (ساركوزي) عن النيات الحقيقية لبلاده من وراء تدخلها العسكري بالمنطقة عند ما قال: "علينا أن نبذل كلما في وسعنا لمنع ظهور دولة إرهابية أو إسلامية في قلب الساحل"[1].

أفصح (ساركوزي) بذلك عن حقيقة المخاوف التي تساور الغرب المسيحي ذي النفس الصليبي ومع بعض أطراف في المجتمع الدولي من المخاطر الأمنية الاستراتيجية المتعلقة بقيام دولة أصولية جاذبة على أطراف أوروبا سرعان ما تتحول إلى حاضنة دافئة لتفريخ الإرهاب الإسلامي بحسب تعبير ساركوزي، حيث المنابع الحيوية للطاقة في الشمال والغرب الإفريقيين إلى جانب مناطق النفوذ التقليدية للحليف الفرنسي، وهو ما يشكل خطوطا أمنية حمرا لا مساومة بشأنها لتأثيرها المباشر على الأمن الاستراتيجي لتلك البلدان.

في ضوء كل تلك المخاوف والتهديدات يشكك العديد من المحللين في قدرة أي كيان طارقي ناشئ على العيش والاستمرارية وسط مثل ذلك المحيط الرافض

---

1) وردت تلك التصريحات في مقابلة مع قناة "أي تيلي" بتاريخ: 2013/4/19 ونقلها موقع "أطلس أنفو للأنباء" الموريتاني.

بالكلية لقيامه، إلى جانب ضعف أو حتى غياب المقومات الاقتصادية الأساسية التي قد ترشح أيَّ كيان للوقوف على قدميه اعتمادا على قدراته الذاتية وموارده الخاصة في معركة الصراع من أجل البقاء في عصر التكتلات الاقتصادية الكبرى، حيث لا مكان للضعفاء، رغم ما يمتلكه الإقليم من ثروات مخبوءة تكفي لسد حاجياته وزيادة.

لقد نجح الأزواديون في إعادة قضيتهم إلى دائرة الاهتمام العالمي مجددا، وحققوا مكسبا سياسيا وإعلاميا كبيرا بعد ما طواهم النسيان عقودا، ولم يعد من الممكن أبدا تجاهل تطلعاتهم المشروعة في الحصول على حقوقهم الثابتة في العيش الكريم الآمن، ونصيبهم العادل من الثروة والسلطة في بلد يحترم خصوصيتهم الثقافية والاجتماعية، ويعترف بهم كمكوّن وطني هام أثْرَى التاريخَ والثقافة الماليين وشَكّل قنطرة رئيسية لعبور الدين الإسلامي وثقافته إلى المنطقة، حيث اختيرت (تينبكتو) من قبل المنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم عاصمة للثقافة الإسلامية سنة 2005 عرفانا ببعض الجميل الذي قدمه الطوارق إلى جانب إخوانهم من عرب مالي وغيرهم لخدمة هذا الدين وإثراءِ ثقافة أبنائه، فتحولت مالي إلى قنطرة أخرى لجسر الهوة الثقافية ما بين إفريقيا السوداء المسلمة وباقي العالم الإسلامي، وهو نفس الدور الإيجابي الذي لعبته وما تزال جارتُها الغربي (موريتانيا).

ويبقى الدور الأكبر في إجراء مصالحة وطنية شاملة معلقا على عاتق الحكومة المالية في الجنوب باعتبارها المسؤولة تاريخيا عن المعاناة المريرة التي عاشها الإخوة من ساكنة الشمال. كما أن دول الجوار الإقليمي تتحمل هي الأخرى قسطا وافرا من المسؤولية، فهي معنية الآن أكثر من أي وقت مضى بإعادة مراجعة مواقفها التقليدية من المشكل الإثني الخاص بشعب الطوارق، ولعبِ الدور المنوط بها، والذي تخلفت عنه مرارا، لتكون جزء أصيلا من ملامح الحل القادم، لا جزءا من تعقيدات الوضع ومشاكله. كما أنها معنية كذلك بتناسي خلافاتها البينية المزمنة والابتعاد عن سياسات "المحاور" والاحتراب بالوكالة عبر هذا الطرف أو ذاك من فرقاء الأزمة المالية.

الفصل الثالث
موريتانيا وأزواد: تاريخ ضاقت به الجغرافيا

- مجالات التواصل بين الفضائين الصحراوي والسوداني
- الهجرات العربية إلى أزواد
- التعاطي الموريتاني الرسمي مع القضية الأزوادية

رغم تغير الخريطة الجيوسياسية بالمنطقة وما ترتب على ذلك من تبدل في موازين القُوى السياسية التقليدية وصعودِ قوى جديدة واختفاء أخرى من المشهد، فإن ثمت حقيقة لا يمكن إغفالها، وقد أصبحت بمثابة المعطى الثابت في معادلة الوضع السياسي والأمني بإقليم أزواد، ألا وهي المتعلقة بخصوصية العلاقة التاريخية بين موريتانيا وإقليم أزواد؛ فالتزام موريتانيا المبدئي بالحدود الموروثة عن الحقبة الاستعمارية في هذا المجال لا ينافي كون أزواد أصبح بحكم تلك العلاقة التاريخية المتجذرة عمقا استيراتيجيا لموريتانيا يجب أن تحافظ عليه صيانة لأمنها القومي؛ وذلك انطلاقا من جملة مصالح واعتبارات جيوسياسية واستيراتيجية وسوسيو ثقافية، يأتي على رأسها:

- الاعتبارات الأمنية، فموريتانيا تمتلك واحدا من أطول الحدود الإقليمية مع مالي (2237 كلم^2)، ومن مصلحة أمنها الاستيراتيجي وجود استقرار دائم في الإقليم، سيما وقد عانت طوال العشرية المنصرمة من هجمات الجماعات المسلحة المنطلقة من الأراضي المالية.
- تشابك النسيجين الاجتماعيين في كل من موريتانيا وأزواد، فمعظم ساكنة الإقليم ينحدرون من أصول صنهاجية أو عربية نزحت من صحراء الملثمين (موريتانيا) وظلت محافظة على صِلاتها بجذورها التاريخية في موريتانيا
- الانسجام العقدي والثقافي (وحدة المعتقد والمذهب وأنماط الثقافة العالمة) بين الشعبين في موريتانيا وأزواد.
- وحدة التاريخ وتجانس المجال، حيث يتقاسم الشعبان في كل من موريتانيا وأزواد ماض مشترك امترج فيه عبق التاريخ برائحة الأرض، فمن (أودغست) إلى مملكة (غانا)، ومن دولة المرابطين إلى إمبراطورية مالي، ومن دولة السنونغاي لسلطنات الطوارق وإمارات بني حسان: اتسعت دائرة المشتركات بين المجالين الصحراوي الموريتاني، والسوداني المالي، بحيث لم يعد من الممكن الفصل ميكانكيا بين شعبين لحمت بينهما وحدة المعتقد والمصير والتاريخ.

وهكذا فقد ضاقت الجغرافيا بتاريخ متصل بين الفضائين، وتدخلت قوى أجنبية لتفك أواصر وتقطع أرحاما ظلت متصلة.

المبحث الأول:

مجالات التواصل بين الفضائين الصحراوي (الصنهاجي) والسوداني

فضلا عن التجانس في الجغرافيا الطبيعية من حيث المكونات والمجال والتماثل حتى في بعض المسميات والمعالم، تتقاطع مكونات الجغرافيا البشرية هي الأخرى بين الشعبين في كل من موريتانيا وأزواد؛ حيث شكلت الروابط الاجتماعية من وشائج القربى والرحم إلى جانب العلائق الروحية والثقافية الوثيقة من وحدة المعتقد والمذهب ومناهج التلقي لوحة فريدة استمدت مادة تلوينها الرئيسية من تاريخ حافل بالتواصل ساهم فيه تداخل الحدود بين المجالين وعدمُ وجود حواجز طبيعية فاصلة إلى جانب ديناميكية المكونات البشرية التي شغلتها باستمرار. فقد شكلت هجرة القبائل الصنهاجية إلى الصحراء الكبرى قادمة من الشمال الشرقي ما بين القرنين الثاني والثالث الميلادي حدثا فارقا في الحياة السياسية والاجتماعية بالمنطقة أعاد إليها المزيد من الحيوية والأهمية المفقودة بعد ما سعى سكان الصحراء الجدد إلى محاولة إعمارها والتوطن بها، فأسست تلك القبائل مملكة "أودغست" في منتصف القرن الثاني الهجري التي اعتبرت من أوائل الكيانات المنظمة التي عرفتها الصحراء حيث امتدت حدودها الجنوبية في بعض الفترات لغاية منعطف نهر النيجر، مع أن الرقعة التي امتدت عليها لم تكن محددة بل كانت تتسع خلال فترات وتتراجع أثناء أخرى بشكل يتناسب مع فترات القوة والضعف التي عرفتها تلك المملكة عبر تاريخها[1]. وفي أوج ازدهارها وصفها اليعقوبي بأنها: "واد عامر فيه المنازل وفيه ملك لا دين له ولا شريعة يغزو بلاد السودان يقال له غسط"[2].

---

[1] الناني ولد أكسين: صحراء الملثمين، دار المدار الإسلامي 2007 ص 188.

[2] كتاب البلدن لليعقوبي، دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولى 2002 ص 199. والمقصود بـ(غسط): أودغست

وإلى جانب قوتها العسكرية تمتعت المملكة الصنهاجية بوفرة اقتصادية أيضا جراء التحكم في واحدة من أهم الطرق التجارية بالمنطقة خلال العصر الوسيط وهي المحور الغربي، ويجمع الطرق المنطلقة من جنوب المغرب باتجاه الساحل الجنوبي للصحراء وتشمل ثلاث مسارات فرعية رئيسة هي:

- الطريق الساحلي - تامدلت
- طريق أوداغست - وادي درعة
- طريق الصحراء - بلاد السودان.

وقد شكلت تلك الطرق مجالا فسيحا للتبادل وتوثيق العلاقات التجارية والاجتماعية، مثلما كانت مدعاة للتنافس والسيطرة على الموارد الاقتصادية المتمركزة حولها بين الصنهاجيين وجيرانهم وخصوصا معدن الذهب والمما لح التي بقيت لفترة تحت سيطرة الصنهاجيين مثل مملحة "آوليل" و"تغازة". وقد وصل سعر حمولة الجمل الواحد من الملح خلال القرن العاشر الميلادي ما بين 200 إلى 300 دينار من الذهب كما ذكر ابن حوقل.

وقد ساعد تضافر جملة من العوامل الداخلية والخارجية على انهيار هذه المملكة منها نشوب اضطرابات داخلية ضمن صفوف التحالف الصنهاجي المسيطر على بيت الملك توجت بمصرع آخر ملوكهم كما أوضح ذلك ابن أبي زرع بقوله: "فقام بأمر صنهاجة[1] إلى أن توفي سنة سبعة وثمانين ومائتين، وكانت أيامه خمسا وستين سنة فولي بعده ولده تميم بن الأثير فأقام ملكا على قبائل صنهاجة إلى سنة ست وثمانين، فقامت عليه أشياخ صنهاجة وقتلوه فاختلفت كلمتهم وتفرقت أهواؤهم مدة مائة وعشرين سنة"[2].

ينضاف إلى هذا العامل الداخلي الخطرُ الخارجي الذي شكلته على الدوام الجارة الجنوب شرقية (إمبراطورية غانا)، حيث سيطرت بفضل دعم حلفائها من

[1] المقصود هنا هو الملك الصنهاجي: الأثير بن فطر

[2] ابن أبي زرع الفاسي (علي بن محمد) : الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس – المطبعة الملكية – الطبعة الثانية – ص 155.

الزناتيين (قبائل بربرية) على عاصمة المملكة (أودغست) ابتداء من القـــرن العاشـــر الميلادي.

ورغم غلبة قومية السوننكى على العصبة الحاكمة لغانا فإن بعض المـــؤرخين السودانيين من أمثال السعدي ومحمود كعت يـــذهبون إلى أن المؤســـسين الأوائـــل لإمبراطورية غانا من الصنهاجيين، يقول السعدي: "وهم بيضان في الأصل، ولكن ما يعلم من ينتمي إليه في الأصل وخدامهم عكريون"[3]. ويذهب مؤرخون آخـــرون إلى أن أولئك المؤسسين من شعب الكرمنت (الجرمنت) القادمين من ليبيا في الألف الأول قبل الميلاد، حيث امتزجوا بالزنوج قبل أن تصبح تلك الإمبراطورية زنجية صرفة ابتداء من القرن الثامن الميلادي، وكانت عاصمتها كومبي صالح (قبة صالح) على مـــشارف الصحراء وعلى مقربة من "أودغست" عاصمة الصنهاجيين. وقد بسطت غانا نفوذها على أجزاء واسعة من الجنوب الشرقي الموريتاني الحالي (منطقة الحوض) كما امتـــدت شمالا لغاية تكانت.

وقد بقي التداخل بين المجالين الصحراوي والسوداني السمة البارزة حتى قيـــام الدولة المرابطية وما أعقب ذلك القيام من حركة فتح واسعة، سيما بعد عودة أبي بكر بن عمر إلى الصحراء وفتحه لغانة حوالي 496 هـــ - 1077م وتأثير ذلك الفتح في الشعوب والأقوام التي اعتنقت الدين الجديد وانصهرت في بوتقته إلى جانب الفـــاتحين الذين حملوه، ليتشكل فضاء فسيح للتلاقح الثقافي والتنوع الاجتمـــاعي بـــين تلـــك الثقافات والقوميات المختلفة ضمن الهوية الإسلامية الجامعـــة الـــتي اســـتطاعت أن تستوعب كل ذلك التنوع وتفجر طاقات الإبداع الكامنة فيه.

ورغم تراجع المد الإسلامي المرابطي القادم من الصحراء إثر استشهاد أبي بكر بن عمر المفاجئ حوالي 480 هـــ - 1088م، إلا أن قيام الإمبراطورية المالية وتلقب ملوكها بـــ"المسلماني" سيمنح دفعة قوية لهذا التوجه مع انتقال مركز الثقل السياسي من التخوم الجنوبية لصحراء صنهاجة توغلا نحو الجنوب الشرقي حين نقلـــت تلـــك

---

[3] عبد الرحمن السعدي: تاريخ السودان ص 81 مرجع سبق ذكره.

الإمبراطورية عاصمة ملكها إلى مدينة "نياني" الواقعة على ضفاف نهر النيجر. وقد لعب ملوك مالي المتدينون من أمثال "منسي ولي" (علي) و"منسي موسى" و"منسي سليمان" أدوارا بارزة في دعم ذلك التوجه من خلال تهيئة الأجواء الملائمة لعملية المثاقفة تلك. وهكذا هاجرت مجموعات سودانية باتجاه الصحراء كما هاجرت مجموعات من سكان الصحراء لتستقر في بلاد السودان مثلما هو الحال بالنسبة لبعض البطون المسوفية التي انزاحت شرقا وعلى رأسها طوارق "مْقَشْرنْ" ممن استوطنوا حول منعطف نهر النيجر لِيُشَيِّدُوا -كما مر بنا- مدينه تينبكتو أواخر القرن الخامس الهجري، وقد نوه البكري بدور الطوارق الذين كان يشير إليهم بـ"تاركا"، حيث ذكرهم من ضمن القبائل التي شاركت في تشكيل الجيوش المرابطية عند خروجها من الصحراء. وقد تعاظم دورها كما يقول الباحث الناني ولد الحسين في التبادل التجاري بين شمال إفريقيا وغربها بعد سيطرة المرابطين على الصحراء والمغرب.. وعرفت بداية عصرها الذهبي بالصحراء في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي بعد أن أصاب قبيلةَ لمتونة التي كانت تتزعم صنهاجة الصحراء الوهنُ عقب استشهاد زعيمها فانسابت مجموعات من قبيلة "تاركا" من أعماق الصحراء إلى الشرق وسيطرت على الصحراء المحاذية لنهر النيجر، فبسطت نفوذها على ساكنيها وأعطت اسمها لكل المجموعات التي أصبحت خاضعة لها. وقد عبر ابن أبي دينار عن هذه الغلبة بالقول: "هم الذين يقال لهم التوارق في هذا الزمان ويجاهدون السودان"[1].

وهو التروح الذي عرفته مجموعة صنهاجية أخرى هي "ماسنة" التي نزحت من "تشيت" الموريتانية نحو الشرق لتستقر بالشمال المالي الحالي، وقد التحقت بها مجموعات أخرى من أحفاد (عرب الفتح) إضافة إلى لبرابيش[2]، وقد دخلوا إلى أقصى الجنوب المغربي ابتداء من القرن الخامس عشر الميلادي، وتوغلوا حتى تخوم السودان من غندام حتى "كاو" في النصف الثاني من القرن الخامس عشر الميلادي، حيث أسسوا لاحقا رئاسة قبلية شمال مالي الحالية عرفت باسمهم.

---

[1] الناني ولد الحسين : صحراء الملثمين ص 101 – مرجع سبق ذكره

[2] سنعود إليهم بشيء من التفصيل في المحور التالي

وقد تعزز الوجود الحساني بالمنطقة بعد قيام إمارة أولاد امبارك شرقي موريتانيا (1124هـ - 1712م)، حيث بسطت نفوذها على الأجزاء المصاقبة لها من بلاد السودان (مالي الحالية) مما أضفى حيوية جديدة على المجال فازدادت الروابط وتعزز التواصل الذي بلغ أوجه مع توثق العلائق الروحية والصلات الثقافية والاجتماعية بين الشعوب والقبائل التي استقرت بكلا المجالين. ومن ثم فلم يكن غريبا أن تصبح حواضر "تادمكة" و"تينبكتو" و"جني" ضريبات لـ"شنقيط" و"ولاتة" و"ودان" في الازدهار العلمي والنشاط التجاري حين شكلت تلك الحواضر فضاء فريدا للتلاقح الثقافي والعلمي والامتزاج الاجتماعي بين المجموعات الصنهاجية العربية من جهة والسودانية من جهة أخرى، فظل العلماء وطلابهم إلى جانب عشرات القوافل التجارية ينتقلون بسلاسة بين تلك الحواضر جيئة وذهابا.

وقد حفظت لنا كتب التراجم صورا مشرقة من تاريخ تلك المثاقفة الثرة، فمن أوائل القضاة الذي عرفتهم إمارة "كشن" الإسلامية ببلاد "الهوصا": العالم الولاتي محمد بن أحمد التازختي[1] الشهير بلقب "أيد أحمد". ومن ولاتة أيضا قدم الأخوان الفقيهان إبراهيم والحاج حيث تولى الأخير كما حكى السعدي منصب القضاء بتينبكتو في أواخر عهد إمبراطورية مالي[2] وأصبح عميدَ أسرته (آل الحاج) التي كانت إحدى أشهر ثلاث أسر علمية صنهاجية بالسودان ضمت إلى جانبها أسرة (آل اندغ محمد) و(آل أقيتُ) الولاتية التي ينتمي إليها العلامة أحمد بابا بن أحمد الذي حمل لقب (التينبكتي) لمولده بتلك المدينة التي سرعان ما أصبحت العاصمة الثقافية لمملكة الصونغاي وريثةِ الإمبراطورية المالية وعاصر أحمد بابا نفسُه نكبتَها على أيدي السعديين من ملوك المغرب.

ورغم ما حاق بالمنطقة جراء غزو السعديين، فلم تنقطع جسور التواصل بين الفضائين الصحراوي والسوداني، فشخصيةٌ علمية كبيرة بحجم العلامة والمربي الشيخ

---

[1] تازخت قرية كانت قريبة من ولاتة أغلب سكانها من قبيلتي ماسنة وإدرمشاكة المسوفية التارقية التي انزاحت نحو أزواد بعد هدم المدينة كما هو مرجح على يد أولاد يونس إثر مصرع فتاة منهم على يد صياد تازختي.

[2] عبد الرحمن السعدي ص 139 مرجع سبق ذكره.

سيديا بن المختار بن الهيبة انتقل إلى أزواد أيضا للاستزادة من العلم بعد مـــا طـــاف حواضر "شنقيط" و"ولاتة" و"تشيت" واستقر به الترحال في رحاب الزاوية الكنتيـــة هناك وهي في أوج عطائها العلمي والتربوي على يد العلامة المربي والمجدد الشيخ سيد المختار بن أحمد بن أبي بكر بن سيدي حبيب الله بن الوافي.

وفي المقابل شكلت الحواضر العلمية الموريتانية موئلا لا ينضب للعلماء والطلبة من أهل السودان عموما وأزواد خصوصا، وظل خريجو هذه الحواضر محط الإعجاب والتقدير أينما حلوا وحيثما ارتحلوا، فالشيخ سيد المختار نفسه زار مناطق مختلفة مـــن موريتانيا حتى بعد ذيوع صيته خارج أزواد وتمنى كما حكى ابنه وخليفته الشيخ سيد محمد الإقامة بين ظهراني أهلها لولا اعتزامه السفر إلى الديار المقدســـة لأداء فريـــضة الحج.

المبحث الثاني
الهجرات العربية إلى أزواد

ظلت حركة التواصل نشطة بين المجالين الصحراوي والسوداني طيلة العصر الوسيط، وقد تعززت بعد إحكام بني حسان سيطرتهم على منطقة موريتانيا الحالية وتأسيسِ إمارات ورئاسات قبلية امتد نفوذ بعضها (إمارة أولاد امبارك) ليشمل الأجزاء المحاذية لحدود موريتانيا من السودان الغربي (مالي الحالية). وهكذا تأسست في عمق الشمال المالي (أزواد) رئاسيةُ لبرابيش الحسانية، إضافة إلى قدوم مجموعات عربية أخرى، كان أهمها: الرئاسية التي ضمت عددا من فروع قبيلة كنته وحلفائها. هذا بالإضافة إلى مكونات قبلية أخرى، على نحو ما نوضحه في السطور الآتية[3]

أولا. البرابيش:

تعود أوائل هذه الهجرات إلى النصف الثاني من القرن الخامس عشر الميلادي عند ما توغلت مجموعة من قبيلة لبرابيش العربية القادمة ضمن هجرة أوسع لقبائل المعقل المنحدرين من كعب بن الحارث من قبائل مذحج اليمانية التي وصلت إلى شمال إفريقيا مع بني هلال في القرن الخامس الهجري - الحادي عشر الميلادي.

وفروع المعقل الرئيسية ثلاثة هي بنو منصور وبنو عبد الله وبنو حسان وإلى هذا الفرع الأخير ينتمي لبرابيش وقد قدموا إلى أزواد من تخوم المغرب الجنوبية والصحراء وشمال موريتانيا عن طريق آدرار وتكانت والظهر. ويتشكل لبرابيش من جذعين رئيسين هما: أولاد حم المنحدرون من حم بن حسان، والرحامنة المنحدرون من عبد الرحمن بن حسان، أو من رزق بن حسان علا خلاف. ويشكل الفرعان العمود الفقري لاتحادية لبرابيش إلى جانب مجموعات وأسر من أصول شتى، منها من

---

[3] اعتمدنا في إعداد معظم مادة هذا المبحث على مقالات للباحث والسياسي العنيد: محمد محمود بن ودادي مع بعض التصرف

ينتمي إلى عرب المعقل، نعبر عنهم بالأصليين، بينما ينحدر الباقون من أصول مختلفة تدل عليهم أسماؤهم، انضموا للاتحادية وأصبحوا جزءا منها، إما كحلفاء، أو أتباع. على نحو ما هو مبين في التقسيم التالي:

1. **أولاد سْليمان:** مؤلفون من: أولاد سْليمان الأصليين (أهل رحال، أهل مرزوق بن الشيخ، أهل يوسف الكبار، أهل يوسف الصغار)، أولاد اسْعيد، الهارات، الرتيبات، أهل النفع، أهل منصور، أهل السلام عليكم.
2. **أولاد غيلان:** أولاد غيلان الأصليون (أولاد أحمد ولد إبراهيم)، أولاد عبد الله ولد ابراهيم، أولاد بوخْصيب (أهل المجيد، الخميرات).
3. **أولاد إيعيش:** أهل القوني، أهل حمّ، أهل الحسن.
4. **أولاد إدريس:** أهل مْبارك، أهل اعْماره، أهل حمّوداد، أهل بله، أهل اعلي موسى، غْريب.
5. **أولاد غنام:** أولاد معريك، أهل الحسين، أهل حماد، أهل حدي، أهل بجه، أهل بده.
6. **أولاد عمران:** أهل الهادي، أهل الكوري، المحافيظ.
7. **الگوانين الكحل:** أهل بلال، أولاد محمد ولد سيدي احمد، ياداس
8. **الگوانين البيظ:** أهل دخنان، أهل الراحل، أهل امياله، أهل بو ابْعير، أهل هيمه، أهل اعلي ولد ماما، أهل عمر، أهل أحمدو.
9. **رگان:** ياداس، الزريبة، أهل بكار.
10. **السكاكنة:** أهل بوصْبيع، أهل الكنيبي، أهل كيجاجا.
11. **أهل أروان:** بني سيدي احمد بن صالح (سكان القصر) بني احمد بن أيّر، الحيسة، أولاد بوهدة، النواجي، الوسرة، تحكانت وهؤلاء كانوا من سكان بوجبيهه.
12. **أهل بو جْبيهه.**

وكان أول مقر حضري للبرابيش (أروان)، حيث أقام به الجد المشترك للعديد من أسرهم: أبو مخلوف ذو الصيت الشائع في القيادة والتدبير والاستقامة ليرتبط بشيخ

أروان المعروف الشيخ سيدي محمد آغ آدّه. وظلت سيطرة لبرابيش قائمة على القرية حتى بعد وصول الفرنسيين، حيث زارها كبولاني قادما من تنبكتو تمهيدا لمشروع إقامة مستعمرة "تُراب البيظان" لكن محمد بن مْهمد رئيس لبرابيش رفض دخوله الدشرة فعاد خالي الوفاض إلى تنبكتو.

وأرض نجعة لبرابيش واسعة تشمل الشمال الغربي لأزواد من أروان حتى تنبكتو، وغربا حتى العكلة، وجنوبا إلى منطقة الأبيار ورأس الماء أحيانا. وبشكل عام يستخدمون آبار انغارنوإنبلاشا وتنغ الحي وإمراتنوتينتاكونتوالحجيو ويشتركون فيها مع قبائل أخرى، أما الگوانين منهم فينتجعون عادة قرب تنبكتو.

ثانيا. كـــنـــتـــه:

جاءت الهجرة الكنتية إلى أزواد في النصف الأول من القرن الثاني عشر الهجري الثامن عشر الميلادي (1130هـــ - 1717م) انطلاقا من الساقية الحمراء عبر اتوات والحنك وأركشاش.

- **كنتة الصحراويون** (أو كنته الضفة اليسرى لنهر النيجر: أزواد، آدرار إيفوقاس، وتيمترس..): وينقسمون إلى أربعة أفخاذ كبيرة هي: الرگاگده، وأولاد سيد المختار، والهمال، وأولاد الوافي؛ وتتداخل مناطق نَجعة هذه الأفخاذ الأربعة بصورة حميمة، كما أن معظم الآبار هي آبار عامة لهم. ويبلغ عمق الآبار عموما بين 50 و90.

أ. الرگاگده: ينقسمون إلي ثمانية أفخاذ فرعية أصلية، يتبع كل واحد منها مخيمات تابعة سواء عربية أو طوارق (إيمغاد) وحتى من إيفلان، ويُعرفون أيضا باتلاميد. والأفخاذ الفرعية الأصلية هي وحدها التي تعد من أصل كنتي، ويتألفون من حيث المبدأ من ذراري محمد الرقاد الجد الجامع، المنحدر من سيد اعمر الشيخ بن الشيخ سيدي احمد البكاي دفين ولاته (920 ه-1514 - 15م) بن سيد مْحمد الكنتي الكبير (القرن 8 هــ 14م) دفين فصك في تازيازت بن سيدي عْلي دفين تْوات في الجزائر، والأفخاذ هي:

1. أهل سيدي الصديق (أصليون)، وينقسمون إلى: أهل عبد المؤمن، تركزْ، أولاد عمران، أهل لعليبات، أولاد البكاي، أهل النهارات

2. أهل سيدي علي بن أحمد (أصليون)، وينقسمون إلى: الأمهار، أهل اكّليله، أهل آمينوكه.
3. أهل سيدي بن أعمر، وينقسمون إلى: أهل بوزكري، أهل كومة، أهل الطالب الأكحل.
4. أهل سيدي الشيخ (أصليون)، وينقسمون إلى: أهل خطري، أهل عبد الله
5. أهل سيدي يحيى (أصليون): أهل بيكن
6. أهل سيدي المصطف (أصليون): أهل عُمر
7. أهل الفيرم (أصليون)
8. أهل لحبارة (أصليون)

وينتجعون إجمالا بين أروان إلى توزاي، ولهم مركز على مسافة 250 كلم شمال شرق تمبكتو، وبه آبار غزيرة المياه.

ب . **أولاد سيدي المختار**: وينقسمون إلي الأفخاذ الثانوية التالية:
1. أهل سيدي بادي (حمادي)
2. أهل سيدي بو هادي
3. أهل سيدي مينه (سيدي عبدي) الذين هم أصليون
4. أهل حمو صالح
5. أولاد زيد
6. لمازيل
7. أهل الطالب محجوب وهم (تلاميذ)، وكانوا في الأصل تابعين لإلمدن، لكنهم يتحدثون (تَماشغ)

ج . **الهمّـــال**: وينقسمون إلى الأفخاذ التالية:
1. أهل علواته (بكل)

2. أهل سيدي موسى وهم أصليون، وينقسمون إلى: التوابير، أهل شيخنا، النورات، الهرات.

د. أولاد الوافي: يؤلف أولاد الوافي حاليا أكثر أفخاذ كنته عددا، وينقسمون إلي عشرة أفخاذ، ويُطلق على الثمانية الأولى اسم أهل الشيخ، ويؤلفون أول مجموعة، ويتألف التاسع من أهل محمد ول احمد، ويشكلون مجموعة ثانية، وفيما عدا هاتين المجموعتين اللتين تؤلفان نوعا من مجموعة ثانية، هناك الفخذ العاشر، وهم أولاد ملوك، وهم حلفاء قدماء منحتهم السلطة الفرنسية استقلالا كاملا. وينقسم أولاد الوافي إلى:

1. أهل بادي (أصليون)، ويضمون: الأمهار، مشظوف، لادم، الطرشان، دورقْ، تاگا، تدابوكه، بْدوكن، أولاد بن عمار، إيفلان.

2. أهل عابدين (أصليون)، ويضمون: الأمهار، لادم، لعريم، وياداس، والزخيمات، والتوابير.

3 . أهل الشيخ سيدي البكاي (أصليون)، ويضمون: أهل التمري، ياداس، أهل الأزرق، أهل الفلاني.

4 . أهل بابا ولد سيدي بابا احمد (أصليون)، ويضمون: أولاد زين العابدين (أصليون)، وأهل سيدي بادي (أصليون)، لادم، أوريلة إيمانيس.

5 . أهل باي (أصليون)، ويضمون: إيفلان، لادم، التلاميد.

وقد غادر (أهل باي) إلى كنتة النيجر - بسب الاحتلال- كلٌّ من: أهل علوه، وأهل الركوه، وأهل بركه، وأهل عابدين آغ طالبي، وأولاد سيدي أحمد، وأهل الطالب عْلي.

6. أهل بابا ولد الشيخ سيدي محمد (أصليون)، ويضمون: ترمز (أصليون)، النهرات (أصليون)، الحبوس (أصليون)

7. أهل سيدي الأمين (أصليون)، ويضمون: إيفلان

8. أهل الشيخ سيدي أعمر، ويضمون: تجكانت، أهل توات، أولاد سْعيد، دورق، أهل العطاري..

9. أهل محمد احمد (أصليون)، ويضمون: أهل سيدي عبد الرحمن (أصليون).

ويُدعى هذا الفخذ الفرعي أحيانا أولاد سيدي الوافي الأصليين.

10. أولاد ملّوك (أصليون)، ويضمون: أولاد عمر (أصليون)، أولاد حديك (أصليون)، أهل القبلة (أصليون).

وقد كانت كنته الصحراء تضم في عام 1915م عشرة آلاف نسمة

- **كنته گورمة**: ويدعون أيضا: "كنتة أريينده" (الضفة اليمنى للنهر)، وهم أقل عددا بكثير من أبناء عمومتهم الشماليين. وبما أنهم يعيشون في وسط أقوام زنوج ويختلطون بهم عن طريق زيجات عديدة، فيظهرون شديدي التهجين. وهم ينتجعون في بحيرات العقفه: كورسي، گادو، دو، نيانگاي، هاريينگو. ويزرعون في حقول يملكونها الأرز والدخن ولهم سبع قرى على ضفتي بحيرتي گاروووهاريينگو. وينقسمون إلي مجموعتين:

1. **أهل بادي**: ومعهم زوايا وأتباع و(إيمغاد). وهم: اشريفن (كل السوق)، ايمورامن، أهل كاهيدي (برابيش)، إيدنان، الحراطين الحمر، ايكايمادادين، ايكورشاتن.

2. **أهل سيدي علواته**: أهل سيدي علواتة الأصليون، أولاد ملّوك حراطين أولاد ملوك، ايدوفان (بيلّة: طوارق) ايغافبغافن المستقلون.

وبلغ عدد أفراد (كنته كورمه) في عام 1915 حوالي: 2000 نسمة.

ثالثا. قبائل أخرى سوى لبرابيش وكنته

توجد بأزواد داخل الاتحاديتين الكبيرتين (البرابيش وكنته) وخارجهما خاصة في المراكز الحضرية، خيام وأسر من قبائل موريتانيا، مثل: تكنه، تركز، حم صالح، أولاد الملات (أولاد دْليم)، المصادفه، الركيبات، تنواجيو، آمكاريج، أولاد سالم، أولاد عمني، الگواليل (تجكانت) ارماظين (تجكانت) إدگجملّه، أهل بوردّه، ادگاربن، أهل السيد (أولاد بالسبع) إدوعلي، أهل باريك الله، لمرادين، اتمدك، أهل الطالب مختار، إديبوسات.

المبحث الثالث
التعاطي الموريتاني الرسمي مع القضية الأزوادية

لم يكد موقف الدولة الموريتانية من "القضية الأزوادية" يَخرج عن السياق العام للمواقف التقليدية لدول الجوار المالي، والمجمعة على وجوب احترام الحدود والترَكيبة الموروثة عن الحقبة الاستعمارية والنظر دوما بريبة وقلق إلى التطلعات المشروعة للمجموعات الإثنية المختلفة في الحصول على نصيبها العادل من السلطة والثروة واحترام خصوصيتها الثقافية والاجتماعية.

وإذا ما استثنينا بعض المواقف المتعاطفة أو المتفهِّمة من بعض شخصياتِ ونخب جيل الاستقلال الوطني، فقد تراوحت مواقف الحكومات الموريتانية المتعاقبة بين التجاهل والإهمال أحيانا، والتمالئ مع حكومة (باماكو) في وجه المطالب المشروعة لأبناء الإقليم أحيانا أخرى؛ هذا رغم ما يربط موريتانيا بإقليم أزواد من روابط تاريخية وثقافية واستراتيجية استدعت منا أن نُفرد لها هذا الفصل.

العنصر الأول:
القضية الأزوادية في الأجندا السياسية لجيل الاستقلال

ظل الموريتانيون على اختلاف حقبهم التاريخية ينظرون إلى أزواد كامتداد طبيعي لهم وعمق جيو استراتيجي هام حيث انعكس ذلك الاهتمام في مستوى العلاقات الحميمية والتثاقف المثمر الذي استمر لقرون مديدة لم يعكر صفوها سوى ولوج المستعمر إلى المنطقة، حيث خطط على ما يبدو لغزو موريتانيا انطلاقا من عمقها الاستيراتيجي آنذاك (أزواد) الذي زاره الحاكم الفرنسي السابق لإقليم

موريتانيا (كزافيي كبولاني) ضمن استيراتيجية غريبة من منظور اليوم[1]، فلم يكن يدور في خلده قبلها أن يغزو موريتانيا انطلاقا من الشرق، فعبر التاريخ الطويل والمتقلب لغرب الصحراء كانت حركات الاجتياح المنطلقة من الشرق إلى الغرب نادرة جدا، فحركة الرجال كانت تتم دائما من الشمال إلى الجنوب، أو من الغرب باتجاه الشرق، وبصورة استثنائية حصلت بعض الاختراقات المنطلقة من الجنوب باتجاه الشمال كالحركة التي قام بها المرابطون بقيادة يوسف بن تاشفين.

ومن غير شك أن (كبولاني) الذي أصبح فيما بعد حاكما لموريتانيا منتدبا من قبل الإدارة الاستعمارية الفرنسية، حاول توظيف الخبرة السياسية والإدارية إلى جانب الثقافة الاجتماعية التي اكتسبها خلال مرحلة استكشافية للفضاء الأزوادي في تدبير المرحلة الموريتانية من الاحتلال، حين اعتمد في جزء من استيراتيجيته على موادعة قادة العشائر والمجموعات القبلية، استنساخا لتجربة مماثلة طبقها الفرنسيون بنجاح في بعض الأقاليم المستعمرة، ومنها أزواد، غير أن القتل المبكر لهذا الحاكم على يد المجاهد سيدي بن مولاي الزين رجح الكفة لصالح الجناح الذي تبنى خيار الحسم العسكري داخل الإدارة الفرنسية، وهو ما حدث بالفعل عبر تصاعد حدة البطش والتنكيل من قبل المحتل في مقابل اتساع نطاق عمليات المقاومة التي شملت معظم أرجاء الإقليم الموريتاني.

ما كادت الثلاثينيات تحل حتى تمكن الفرنسيون من إخماد نيران المقاومة على امتداد الخط المواجه من موريتانيا وحتى العمق الأزوادي، ففي إقليم أزواد توقفت عمليات المقاومة حوالي 1932، وقريبا منه توقفت شقيقتها الموريتانية إثر معركة (إبحيك) 1934.

وطوت بذلك معظم الأطراف صفحة من العمل الجهادي المقاوم الذي غلب عليه الطابع العسكري المسلح، لتركن اضطرارا إلى العمل السياسي السلمي سبيلا لإزاحة كابوس المحتل الغاشم، وفي هذه الأثناء ظل الفرنسيون يديرون الجزء الشرقي

---

1) محمد يحظيه ولد ابريد الليل: "موريتانيا وأزواد"، سلسلة مقالات منشورة على الشبكة العنكبوتية.

من البلاد الملحق بأزواد من مالي حتى أحداث 1940 القبلية (الطُّرُقية) المؤسفة التي عرفتها المنطقة وما أعقبها من اضطرابات اجتماعية خطيرة، فقرروا إلحاقه إداريا بموريتانيا لتسهيل السيطرة على تسيير شؤونه من جهة، وتكريس المزيد من عزلة إقليم أزواد اقتصاديا واجتماعيا، وهي عملية الفصل الميكانيكي الفجة التي لم تنس الأخوة الأشقاء على جانبي الحدود الوهمية التي بدأ الاستعمار في اصطناعها حقيقةَ انتمائهم، ولا طبيعة قوة الروابط الروحية الثقافية وتجذرها، إلى جانب العلائق الاجتماعية الضاربة في أعماق التاريخ الواحد العابر دوما لزمن الجغرافيا. وهي المشاعر الجياشة التي وجدت لها بعض المتنفس في أعقاب الحرب العالمية الثانية وما تلاها من أحداث وتطورات، تفاعلت لرسم خارطة المستقبل السياسي لمستعمرات فرنسا الإفريقية، بما في ذلك إقليما موريتانيا وأزواد، حين أنعشت أجواء الانفتاح السياسي لفرنسا على مستعمراتها آمال الأشقاء من الطرفين في إمكانيات التلاقي مجددا، والتحرر من الحدود الوهمية التي تحولت إلى ما يشبه الحواجز النفسية التي نجح المستعمر في زرعها في عقول النخب المتعلمة، وقد شرع بتهيئتها لخلافته وحراسة إرثه السياسي والثقافي، "حيث أوجد داخل الدائرة الكبرى دوائر داخلية أضيق، وهي الحدود الفظيعة التي تجاهلت المجتمع والتاريخ وعواطف الناس"[1]، فوجدت تلك النخب نفسها في أغلب الأحيان عاجزة، بل ومتخلفة عن الالتحام بالمطالب العفوية للغالبية الساحقة من أبناء أوطانها في التوحد والاندماج في كيان سياسي موحد.

شكل الانضمام إلى موريتانيا مطلبا ملحا لشرائح عريضة من أهل أزواد عربا وطوارق، وهي الآمال التي تعززت بتصريحات زعيم البلاد السياسي آنذاك المرحوم المختار بن داداه في خطاب له ألقاه بمدينة أطار في العام 1957، اعتبر فيه أزواد والصحراء الغربية بمثابة جناحي موريتانيا[2]، وقد كانت عبارته تلك بالغة الدقة في توصيف الوضع الحقيقي والطبيعي لعلاقة الصدر بجناحيه، وحجم الجريرة التي اقترفها المستعمر في حق ذلك الكيان الواحد الذي مزقه بمسطرةٍ وفِرْجَارْ.

---

1) محمد يحظيه ولد ابريد الليل: مرجع سابق.

2) محمد محمود بن ودادي – أوراق من أزواد، مرجع سبق ذكره.

لقد كان قيام الكيان الموريتاني من دون إقليمي أزواد والصحراء الغربية أشبه بتحليق طائر مهيض الجناح فيما يحاول مشاكلة أشباهه من الطيور الطليقة.

غير أن تصريحات الرئيس المختار لم تمر بسلام على ما يبدو، فقد استهجنها الفرنسيون والإسبان، وأثارت حفيظة موديبو كيتا[1]، وامتعاض العرش المغربي، وهو الذي ظل يعتبر أزواد بمثابة عمقه الجنوبي، وثغره في الصحراء، فسعى للضغط بقوة على أصدقائه من زعماء الإقليم، خاصة الأمير محمد علي بن الطاهر الأنصاري زعيم "كل انتصر"، وزعيمي قبيلة "أموشغ": شبو وفهرو"، لمنع أي تجاوب جماهيري مع مسعى الزعيم المختار لضم أزواد، وعلى الأقل منع مدينة تينبكتو التي لهم الكلمة الطولى في شؤونها من الانضمام إلى الكيان الموريتاني الوليد، وهو الموقف الذي قد يفسر جزئيا التصلب المغربي اللافت إزاء الموافقة على منح موريتانيا الاستقلال في المحافل الدولية، إضافة إلى أطماع العرش العلوي التاريخية في اعتبار الموريتانيين من رعاياه.

وهذه الضغوط الإقليمية والدولية سرعان ما رضخ لها قادة الكيان الجديد، خصوصا المختار بن داداه وظهيرَه سيدي المختار ولد يحيى انجاي، "ليتضح لاحقا أن الدعوة إلى الوحدة مع أزواد لم تكن إلا تعبيرا عن فورة عاطفية لزعيم دولة البيظان الغارقين في أحلامهم بإعادة أمجادهم في مجالهم الجغرافي والثقافي، حتى ولو كان دون تحقيقها آنذاك خرط القتاد"[2].

تخلى السياسيون الموريتانيون إذن عن (ازواد) وأهلِه عربا وطوارق، وتركوه فريسة لأطماع المستعمر وحسابات دول الجوار، ولم يسجل له أدنى حضور يذكر على الأجندة السياسية لهؤلاء إبان تحضيرات الاستقلال، أو حتى بعيدها، ليبقى الإهمال والتجاهل المطبق سيد الموقف، حتى أثناء أحداث (كيدال) الدامية 1963 "التي لم تحرك مشاعر الدولة الموريتانية، فموديبو كيتا رئيس مالي حينها فهم أن حكومة تجبن عن استطلاع ما يقع لبني جلدتها هي حكومة تافهة، فهو نفسه لو كان في مكانها

1) محمد محمود بن ودادي ، مرجع سابق.

2) محمد محمود بن ودادي، مرجع سابق.

لكان له تصرف مختلف، فانتهز الفرصة، واستدعى المختار ولد داداه إلى خاي 1963 لمؤتمر من أجل ترسيم الحدود، وفي الواقع هو اقتطاع أراض واسعة من موريتانيا. وفي مؤتمر خاي طرح "كيتا" بادئ ذي بدء شروطه غير القابلة للمساومة، حاول الوفد الموريتاني أن يناقش ويمنطق ويشرح ويفهم، لكن كل ذلك زاد من توتر وانزعاج الرئيس المالي، فغادروا القاعة على وشك الانفجار من الغيظ بعد أن ضرب الطاولة بكامل قوة قبضته، مؤكدا أنه لن يعود إلى قاعة الاجتماع إلا بعد التسليم بمطالبه بلا قيد ولا شرط.. وفي النهاية، ومن غير أن نعرف بمبادرة من من؟ عاد (موديبو كيتا) إلى طاولة المفاوضات، ووجد الموريتانيين يميزون الليل من النهار، ووضعوا التوقيع المطلوب على الأوراق، والذي كانت نتيجته فقدان ثمانين ألف كلم^2 من الحوض الشرقي على الأقل، لأننا لا نعرف إلا معطى واحدا عند الاستقلال وهو أن مساحة البلاد مليونا وتسعة وستين ألف كلم^2، المساحة الموريتانية بعد ما اقتُطع منذ 1963 غير معروفة حتى الآن.. هناك قاموس يوثق به صادر سنة 2000 يحدد مساحة البلاد بمليون وواحد وثلاثين ألف كلم^2"[1].

---

1) محمد يحظيه ولد ابريد الليل: مرجع سابق. ويجدر التنبيه إلى أن بعض الباحثين يشككون في رواية ولد ابريد الليل هذه، ومنهم محمد ولد امّين الذي يقول: "وهذا غير دقيق من الناحية التاريخية حيث يخلط الأستاذ محمد يحظيه ولد ابريد الليل الواقعة المشهورة التي تعرض لها الوالي سيدي محمد ولد عبد الرحمن والد اسويد احمد والعقيد امبارك ولد محمد بون مع النقيب (دانبي) حاكم دائرة (خاي) حول ترسيم الحدود بين البلدين ويُقحم فيها رئيس الجمهورية شخصيا، حسب تحرياتي: لقد تعرض الخبيران لفظاظة زميلهم المالي المختل عقليا، وقد كلفه ذلك منصبه، وليس لرئيس الجمهورية الدخول في تفاصيل من هذا النوع، ومن المعروف والمسلم به أن رؤساء لا يلتقون إلا بعد التغلب على كل النقاط العالقة، وهذا ما حصل قبل المراجعة الحدودية بين البلدبن".

العنصر الثاني

موقف الحكومة الموريتانية من أزمة الانفصال في الشمال المالي

اتسم موقف الحكومة الموريتانية - التي تمتلك واحدة من أطول الحدود الإقليمية مع مالي تمتد على مسافة 2237 كلم - بالارتباك والمناورة مع بداية تطور الأحداث الجديدة في الشمال، وجاء أول موقف رسمي من الأزمة الحالية على لسان وزير الخارجية الموريتاني الأسبق حمادي ولد حمادي أثناء اجتماع وزاري طارئ، تداعت إليه مجموعة دول الساحل المعروفة "بالإيجاد" في الرابع والعشرين من يناير العام (2012) إثر عملية "ميناكا" العسكرية التي نفذتها الحركة الوطنية لتحرير أزواد، حين وصف الوزير الموريتاني ما جرى بأنه: "شأن مالي داخلي، لا علاقة لدول الجوار به"، وهو الموقف الدبلوماسي السلبي الذي وصفته بعض الأطراف المالية بالمنحاز والمتمالئ مع الانفصاليين.

وجاءت تصريحات وزير الخارجية الموريتاني لإذاعة فرنسا الدولية بعد ذلك بأربعة أيام لتغذي الشكوك المالية بهذا الخصوص، حين أوضح في إجابة له على سؤال يتعلق بالمقارنة بين مطالب الحركات المسلحة الأزوادية وأهداف تنظيم القاعدة بالمنطقة، بأن هؤلاء لم يحاربوا دولة أجنبية، وبأن لديهم مطالب واضحة بشأن الهوية والحصول على نصيبهم من السلطة والثروة، وعلى خلفية تلك التصريحات وما رافقها من استقبال وصف بالحفاوة من السلطات الموريتانية للاجئين الأزواديين، إضافة إلى إيواء بعض العناصر القيادية من حركة تحرير أزواد وغيرها، والسماح لها بحرية الحركة والتواصل مع الإعلام، دشنت وسائل إعلام مالية حملة انتقادات واتهامات واسعة ضد الجانب الموريتاني، بل واستفاضت في الحديث عن مخطط قدمته المؤسسة العسكرية والأمنية الموريتانية للمتمردين الطوارق بغرض إقامة كيان مستقل لهم في إقليم

أزواد[1]. وفي ذات السياق نسبت بعض وسائل الإعلام تصريحات للرئيس الموريتاني محمد ولد عبد العزيز بشأن أحقية الطوارق في الحصول على حكم ذاتي.

لكن الدبلوماسية الموريتانية الحذرة سرعان ما خرجت من منطقة الظل بعد ما استشعرت تصميما فرنسيا قويا على سحق الجماعات الإسلامية المسلحة المسيطرة على الإقليم، سيما بعد الزيارة الخاطفة لوزير الخارجية الفرنسي (آلان جوبيه) إلى انواكشوط في العاشر من يوليو 2012، والتي يبدو أنها ساعدت في إنضاج الموقف الموريتاني، وحررت الدبلوماسية الموريتانية من عقدة الخوف والارتباك، فتبلور موقف موريتاني واضح، يؤكد على "وحدة الأراضي المالية، وعلى ضرورة مواجهة ما أسماه بالإرهاب والجريمة المنظمة، مع الدعوة إلى فتح حوار بين جميع الفرقاء لاحتواء الأزمة".

وهي الأزمة التي يبدو أن الحكومة الموريتانية سرعان ما وجدت فيها فرصتها السانحة للإجهاز على واحد من أهم أذرع القاعدة الضاربة بالمنطقة، ممن اكتوى بنارها البلدُ في أكثر من واقعة دامية (تورين، الغلاوية، لمغيطي، آلاك، نواكشوط، باسكنو، النعمة..)، غير أنها بالمقابل كانت تحسب ألف حساب لما يمكن أن تفرزه تلك الحرب الضروس من مخاطر وانعكاسات على استقرار البلد وسلامة أراضيه، حيث يأتي على رأس تلك المخاوف الهاجس الأمني، وهو متعدد الأوجه، ومتداخل الأبعاد ككرة اللهب المتدحرجة، يصعب التكهن بمسارها وحجم انتشارها، مع تزحلقها على شريط حدودي يفوق الألفي كيلومتر، شكل على الدوام خاصرة أمنية رخوة، عرفت الجماعات المسلحة العابرة للحدود كيف توظفها بعد ما عَجَمت تضاريسَها جيئة وذهابا، حيث أن ما تخشاه الحكومة الموريتانية أن يتحول إقليم أزواد إلى محجة أو أفغانستان أخرى للجماعات الجهادية، مما قد يعمل على اجتذاب المئات أو الآلاف من الشباب الموريتاني، علاوة على الأعداد المنخرطة منهم بكثرة في صفوف تلك الجماعات حاليا، حيث تمتلك تلك الجماعات جيوبا تنظيمية لها، تنشط

---

[1] الباحث الحاج ولد ابراهيم: أزمة الشمال المالي، مقال منشور على موقع الجزيرة نت.

في صفوف فئة الشباب المتدين من طلبة المحاظر والمعاهد الشرعية وخريجي الجامعات العاطلين العمل.

تنضاف إلى تلك المخاوف المخاطر الأخرى المتعلقة بتحول المناطق المتاخمة للحدود المالية من البلاد إلى ملاذ آمن لتلك الجماعات المسلحة في حال اشتداد الضغط العسكري والأمني عليها من قبل التحالف بقيادة فرنسا الذي يحاربهم، مما قد يدفع البلاد لخوض حرب استنزاف طويلة في مواجهة جماعات مدربة ومحترفة.

وعطفا على المجال الأمني، "فإن من شأن هذه الحرب أن تعمق الشرخ بين القبائل العربية الأزوادية ذات الامتداد الموريتاني، والأعراق الزنجية الأخرى، ولاسيما قبائل (البانبارا) و(الفلان)، الذين عاشوا لحد الآن في تفاهم وانسجام مع جيرانهم الموريتانيين في جنوبي شرق مالي، مما قد يقود إلى خلق النعرات العرقية، وظهور المشاعر العدائية التي قد تتطور إلى احتكاك ومواجهات دموية، قد تنعكس سلبا على علاقات الصداقة وحسن الجوار السائدة لحد الساعة بين البلدين الجارين"[1].

ومن تداعيات هذه الحرب التي أصبحت اليوم واقعا واريا للعيان: الاعتداءات المتكررة على المواطنين الموريتانيين المقيمين في مدن أزواد وباقي المدن الأخرى لمجرد ألوانهم وانتمائهم العربي، وقد أضحى الموريتانيون ذوو البشرة الفاتحة عرضة للاعتداءات الجسدية من قبل جماعات عنصرية زنجية وبتواطؤ مع السلطات العمومية أحيانا أو بتغاض منها، وصار من يحاول منهم الفرار إلى بلاده يشكل هدفا لغارات الطيران الفرنسي، ولا يستبعد أن تؤدي الاعتداءات على العرب الأزواديين والموريتانيين العرب المقيمين بمالي إلى ردة فعل عنيفة من طرف القبائل التي يتم الاعتداء على عناصر منها يكون ضحيتها بعض الماليين الزنوج بشمال مالي أو في موريتانيا، وقد يتسبب في صدامات عرقية على نطاق أوسع، وهذه وضعية خطيرة مما قد تنعكس سلبا على التعايش السلمي لمواطني البلدين الجارين، وعلى التبادل التجاري والفكري والديني الشرعي، وعلى التفاهم السياسي والتعاون الاقتصادي بين

[1] محمد الأمين ولد الكتاب: مقتطفات من ورقة للملتقى المغاربي الدولي حول التهديدات الأمنية للدول المغاربية: 2013/2/18.

الحكومتين، كما أن إمكانية تسلل عناصر من الجماعات المسلحة، واندساسها ضمن حشود اللاجئين المتدفقة إلى موريتانيا، والتي تجاوزت ستة وستين ألف لاجئ تمثل هي الأخرى إحدى التداعيات المقلقة لما بات يعرف بحرب "القـــط المتـــوحش" الـــدائرة بالإقليم.

الخلاصات والتوصيات:

- تقع مالي على تقاطعات استراتيجية بالغة الأهمية بالنسبة للقوى الدولية، فالصراع الذي دار مؤخرا في شمال البلاد، وإن كان يبدو في ظاهره نزاعا سياسيا، إلا أنه في جوهره صراع مصالح ومنافع اقتصادية بالدرجة الأولى، حيث تقف الشركات الغربية والصينية في واجهته الخلفية حفاظا على مصالحها الاستراتيجية في المنطقة بصورة عامة والإقليم بصفة خاصة؛ فقد أصبح من المؤكد تقنيا أن الإقليم يسبح فوق بحيرة من الغاز يقدر احتياطيها "بترليون" متر مكعب إلى جانب مخزون ملحي يكفي لخمسين سنة مقبلة. وهي مصالح حيوية باتت محركا قويا لمساعي تلك القوى لكي تكون لها الكلمة الفصل في رسم معالم المستقبل السياسي بالمنطقة بما يكفل استمرار مصالحها الاقتصادية بعيدا عن حسابات القوى المحلية الصاعدة وما يمكن أن يحمله مثل ذلك الصعود من تحديات أو مخاطر على المديين المتوسط والمنظور على مسار ذلك المخطط الكولونيالي الذي يمثل الموجة الثالثة من الاستعمار الجديد المتوسل بالقوى بجَزَرة الناعمة إلى جانب العصا التقليدية الغليظة لمثل تلك البلدان.
- كشفت الأحداث الأخيرة أن مفتاح الاستقرار السياسي والأمني والتنموي بالمنطقة يمر عبر الحل العادل للقضية الأزوادية بالشمال ضمن عملية سياسية قميئ الأرضية الملائمة لحوار شامل يجمع كافة الفرقاء المعنيين بالمشكل ويؤسس لصياغة عقد اجتماعي وسياسي جديد يعترف بالتنوع الثقافي والعرقي ضمن الهوية الجامعة التي تتخذ من المواطنة الخالصة "قاعدة الحقوق والواجبات" ضمن اتحاد فيدرالي طوعي يحتفظ فيه إقليم أزواد باستقلاله الذاتي وهو ما لا يتناقض برأينا مع أولويات الرئيس المالي "إبراهيما كيتا" التي حددها وزير خارجية رهابي ولد سيد محمد بأنها: "تحقيق المصالحة الوطنية والوحدة الوطنية وسلامة التراب الوطني".

- لم تعد مالي بفعل تلك الأحداث نموذج الديمقراطية المستقرة في محيط إقليمي متقلب، فقد أبانت الأحداث الأخيرة عن الضعف الشديد للديناميكيات الخاصة بالحوكمة وتخلف النخبة السياسية المهيمنة عن الاضطلاع بالأدوار المنوطة بها مع غياب دور المجتمع المدني وارتباط الكثير من قواه بالحسابات المتعلقة بمصالح القوى الأجنبية وهو ما انعكس جليا في محاباة المركز (الجنوب) على حساب المطالب المشروعة للفئات الأخرى من ساكنة الأطراف (أبناء الشمال خصوصا) في تنمية مناطقهم وتحسين أوضاعهم المعيشية المتدهورة، حيث اكتفى النظام بدلا من ذلك بإبرام تفاهمات أمنية سرية مع الجماعات والميليشيا المسلحة وبعض أمراء الحرب السابقين، والقيادات التقليدية من أبناء المنطقة لضمان قدر من الاستقرار للإقليم المضطرب في مقابل غض الطرف عن أنشطتها المشبوهة والخارجة في أغلبها على القانون (تجارة مخدرات، تهريب، اختطاف رهائن، سطو مسلح، معسكرات تدريب، شن عمليات ارهابية على دول الجوار ..).

وهي المقاربة الأمنية التي سرعان ما أثبتت فشلها في صناعة الاستقرار عند أول امتحان واجهته حين تعارضت تطلعات الأزواديين المشروعة في الحرية والتنمية مدفوعة بأطماع الجماعات المسلحة مع مصالح النخبة الحاكمة بمالي منذ الاستقلال، فكان الانهيار المدوى.

- أظهرت الأحداث الأخيرة أن مالي هي الحلقة الأضعف أمنيا ضمن "حزام مستعمرات السفانا" كما سماها (هو فوت بونيي)؛ فقد تحولت بمرور الوقت إلى حاضنة دافئة لتفريخ "إرهاب الجماعات المسلحة" الخارجة على القانون، هذه الأخيرة التي سارعت إلى استغلال أجواء الفراغ الأمني والسياسي الناجم عن سقوط النظام الليبي وما أعقب ذلك من انتشار واسع لتجارة الأسلحة لتعزيز قدراتها القتالية وبسط سيطرتها على مناطق واسعة من الأراضي المالية مع التهديد الجدي للعاصمة (باماكو) وتلويح أطراف أخرى من تلك

الحركات بالزحف نحو دول الجوار لإقامة إمارات إسلامية بها على غرار النموذج الذي اجترحته بالشمال المالي.

- من الحقائق الهامة كذلك التي كشفت عنها تلك الأحداث الضعف الكبير للجيش المالي مع نقص العدد والعتاد، حيث تمتلك البلاد واحدا من أصغر جيوش المنطقة (حوالي 7000 آلاف جندي)، إلى جانب تهالك المعدات العسكرية وتراجع القدرات القتالية بسبب نقص التأهيل وغياب الحوافز مما يتطلب الترميم العاجل لهذه المؤسسة وإعادة بناء العقيدة القتالية لأبنائها على أسس قويمة تضمن الولاء للوطن على اختلاف تلويناته الإثنية وتبعد الجيش عن الانغماس في مفردات الشأن السياسي حتى يتفرغ لمهمته الأساسية لتستعيد الديمقراطية المالية عافيتها في مناخ مدني صحي.
- رغم أن الحركات الأزوادية قد حققت عبر إعلانها استقلال الإقليم مكسبا سياسيا وإعلاميا أعاد القضية المغيبة من رفوف النسيان إلى دائرة الشهرة والأضواء، فإن تلك الحركات مطالبة الآن على اختلاف مشاربها باعتماد استيراتيجية سياسة واقعية أكثر مرونة وأبعد نظرا تقوم على مبدأ "خذ وطالب" بدلا من سياسة "كل شيء أو لا شيء" التي انتهجتها بعض الجماعات الراديكالية التي دخلت على خط المواجهة في الآونة الأخيرة فخلطت أوراق اللعبة مجددا.
- لا ينبغي لموريتانيا أن تقف موقف المتفرج إزاء ما يجري بباحتها الخلفية بحجة احترام الحدود الموروثة عن الاستعمار وقد أضحت في مرمى نيران الأطراف المتحاربة، مما يهدد أمنها القومي واستقرارها المجتمعي، في حين يرشحها موقعها الجيو استيراتيجي للاضطلاع بدور وازن في حل وإدارة الصراعات بالمنطقة واستثمار ذلك الرصيد دبلوماسيا معزّزا بخبرة أمنية لا يستهان بها راكمتها المؤسسة العسكرية الموريتانية خلال حربها المتواصلة مع الجماعات المسلحة ضمن إطار الحرب الدولية على الإرهاب التي تخوضها حكومات البلاد المتعاقبة بالوكالة متى أعجزها خوضها بالأصالة.

- فرنسا التي تدخلت ما لا يقل عن ستين مرة في القارة لتثبيت أركان نظام موال أو الإطاحة بآخر مناوئ، عملت جاهدة لحماية وتسييج مصالحها عبر جدارين، خارجي صلب قوامه مائة قاعدة عسكرية منتشرة حول القارة كالكماشة، وداخلي ناعم قوامه عشرون دولة أو تزيد تقودها نخب "فرانكفيلية" تشربت الثقافة والقيم الغربية ولكن بنكهة فرنسية يشوبها فساد سياسي وأخلاقي أزكمت رائحتُه ذائقة سيد (الشانزليزيه)، تبدو اليوم بجوقتها الاقتصادية (ما لا يقل عن ستين شركة منتشرة في مختلف أرجاء مالي) فضلا عن قواها العسكرية، حاضرة بقوة في أي تسوية تتعلق بالوضع في مالي، وقد كانت حماية مصالحها الاقتصادية وقطع الطريق على التنين الصيني الذي بات أكبر شريك اقتصادي للقارة الإفريقية منذ العام 2009 من أهم العوامل التي دفعتها للتدخل، رغم تأكيدات وزير خارجيتها "لوران فابيوس" بأنها "لن تلعب دور الشرطي في إفريقيا وتحل نزاعا على أراضي مالي".
- لم تكد الجزائر -التي تمتلك هي الأخرى حدودا طويلة نسبيا مع مالي 1330 كلم- تغيب عن المشهد السياسي والأمني بالإقليم حيث بقيت ولوقت قريب أبرز اللاعبين الإقليميين وأكثرهم خبرة ودراية بخبايا وتعقيدات الملف الأزوادي، فقد رعت الدبلوماسية الجزائرية طوال العقدين الماضيين معظم اتفاقيات السلام بين الحكومة المالية والحركات المسلحة وحافظت على علاقات ودية مع مختلف الفرقاء مكنتها من لعب دور الوسيط المقبول الذي يحظى بثقة الجميع، وقد ظلت الجزائر تتطلع دائما إلى الشمال المالي كعمق استيراتيجي لها يمثل باحتها الخلفية ويرتبط بأمنها القومي ارتباطا وثيقا، ومن ثم فهي غير مستعدة بالمرة للسماح لمن يحاول العبث بها أيا كان لما يمثله ذلك من تهديد حقيقي لأمنها الاستيرايتجي حيث تتركز معظم ثرواتها الطبيعية على الشريط الحدودي الغني بالجنوب (بترول، غاز) والمحاذي لإقليم أزواد مكان انتشار أبناء عمومة الأزواديين من طوارق الجزائر، ولذلك يبدو من الصعب أيضا رسم أي خارطة أو وصفة للاستقرار السياسي بالإقليم من دون أخذ الموافقة الجزائرية الضمنية على ذلك.

قائمة المراجع

1. عبد الرحمن السعدي: تاريخ السودان – دار الكتب العلمية، 2012
2. محمد سعيد القشاط: التوارق عرب الصحراء – مؤسسة ذي قار 1999
3. همام هاشم الألوسي: الطورق – دار أبي رقراق 2010
4. عبد الرحمن بن خلدون: العبر – بيروت دار الفكر 1979
5. الناصر السلاوي: الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى – الدار البيضاء 1954م
6. عبد الوهاب بن منصور: قبائل المغرب – المطبعة الملكية الرباط 1968
7. ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب – دار الثقافة بيروت 1983
8. ابن الكلبي : كتاب نسب معد واليمن الكبير – مطبعة عالم الكتب
9. جامي عبد القادر : من طرابلس الغرب إلى الصحراء الكبرى – دار المصراتي
10. أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار – طبعة مركز زايد للتراث
11. الهادي المبروك: قبائل الطوارق
12. الحلل الموشاة : لمجهول من أهل القرن الثامن الهجري
13. محمد صالح منصور: العلاقات بين المرابطين وملوك الطوائف الجغرافيا ج1
14. الناني ولد الحسين : صحراء الملثمين – دار المدار الإسلامي 2007
15. اليعقوبي : كتاب البلدان – دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولى 2002
16. ابن أبي زرع الفاسي (علي بن محمد): الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وفاس وتاريخ مدينة فاس – المطبعة الملكية
17. الصحف والمجلات والمقالات والمواقع:
18. جريدة "تامازيغت" مقال : الطوارق الشعب الأمازيغي المنسي ص 3
19. مجلة "الوعي العربي" – بيان موقع بتاريخ 2007/10/10

20.مقال الرجال الزرق الأسطورة والواقع
21.موقع قراءات إفريقية : مقال "مظاهر الثقافة الإسلامية العربية في تينبكتـــو وغـــا ووجنى"
22.مقال :" المعرفة الاستعمارية : الأدوات والعراقيل" الدكتور محمدو محمذن أمين
23.مذكرة قادة الحركة الأزوادية الصادرة 1990
24.الطوارق : الساحل المخيف: سلسلة مقالات – بدون تاريخ
25.أوراق من أزواد: سلسلة مقالات لمحمد محمود ولد ودادي
26.موريتانيا وأزواد: سلسلة مقالات لمحمد يحظيه ولد ابريد الليل
27.مقال: حرب الطوارق بين طموح الاستقلال وسيناريوهات التوظيف الـــدولي : الحافظ ولد الغابد
28.الجماعات الإسلامية في مالي: علي عبد العال – الموقـــع الألكتـــروني للكاتـــب المذكور
29.إمارة أزواد الإسلامية: محمد محمود ولد أبو المعالي – الجزيرة نت
30.ثورة الطوارق في معادلة العلاقات الأمريكية – العربية: مقال منشور على موقـــع الحوار المتمدن
31.مقابلة مع الأمين العام لحركة تحرير أزواد: بلال أغ شريف : موقع وانا الموريتاني منشورة بتاريخ : 2013/8/13
32.مقال : القضية الأزوادية : استراتيجيات الخروج الممكنة للكاتب : الحسن ولـــد احريمو
33.مقال: ازمة الشمال المالي : الحاج ولد إبراهيم – الجزيرة نت
34.عرض حول "التهديدات الأمنية للدول المغاربية ": محمد الامين ولد الكتاب ألقي خلال الملتقى المغاربي الدولي.



طوب بريس

العنوان: رقم 22، زنقة كلكوتة، المحيط، الرباط
الهاتف: 21 31 73 37 05 (212+) - الفاكس: 28 39 26 37 05 (212+)
الموقع الإلكتروني: www.toppress.ma
البريد الإلكتروني: toppress2@gmail.com